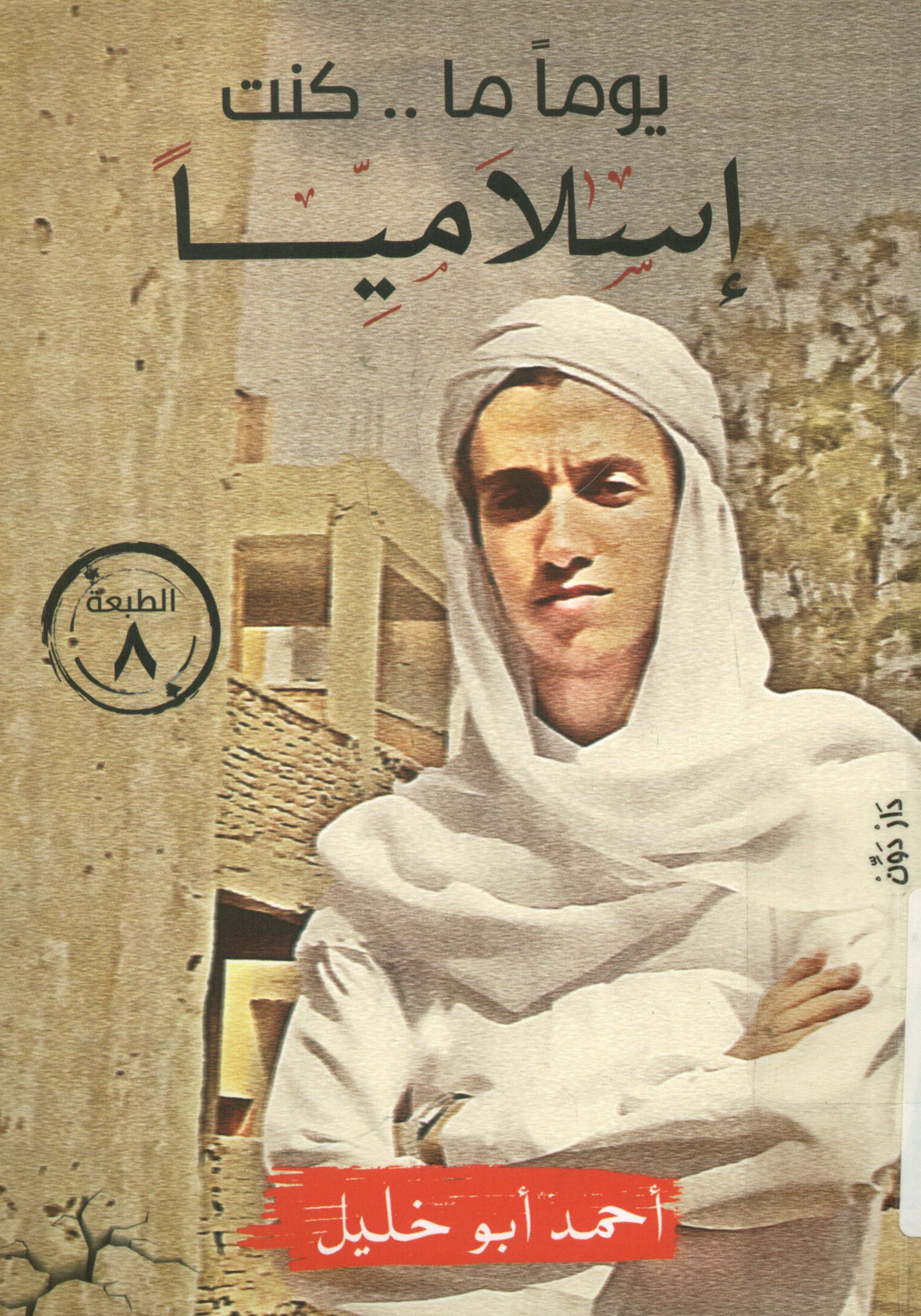

يوماً ما .. كنت
إسلامياً
الطبعة
٨
دار دوّن
أحمد أبو خليل

يوما ما.. كنت إسلامياً

الطبعة الأولى: نوفمبر ٢٠١٢
الطبعة الثامنة : ديسمبر ٢٠١٥
رقم الإيداع: ١٩٨٠١/ ٢٠١٢
الترقيم الدولي: ٦-٠١-٦٤٢٦-٩٧٧-٩٧٨
تصحيح لغوي: أحمد العشري الجمل
تصميم الغلاف: أسامة علام

تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

يوماً ما.. كنت إسلامياً

أحمد أبو خليل

سيرة ذاتية

الطبعة السابعة



دار دوّن للنشر والتوزيع

إهـداء

إلى الشهيدين.. إمامَيْ هذا الطريق الذي اختطَّ للأمة..
حباً وثورةً.. فكراً وحركةً:
البنا وقطب..

أخذت أبحث في تلافيف ذكرياتي طويلاً حتى أَنفُذَ إلى النقطة الأولى التي يكتشف فيها الطفل منا أنه «إسلاميٌّ»، أو بعبارة أخرى: يشعر أنه مختلف ومتمايز عَمَّنْ حوله، وأخذت أسأل: هل يشعر المرء منا بكينونته الإسلامية (أو غيرها) في مراحل الطفولة والصبا، أم أن معناها لا يتسلل إلى وجدانه إلا في مرحلة المراهقة والشب عن الطوق فضلاً عن الفتوة والشباب؟!

بتوع ربنا

كان ذلك في الصف الأول الابتدائي تقريبًا، مدرستي في أحد أحياء مدينة الزقازيق كان اسمها «الشبان المسلمون»، وكذلك الحضانة التي قضيت فيها سنتين سابقتين لم يكن بها شيءٌ إضافيٌّ عن المدارس الأخرى إلا منع الاختلاط حتى في المرحلة الابتدائية، وحصة للقرآن الكريم إضافية عن مادة التربية الدينية، ولم أكن أشعر ساعتها أنَّ لي خصوصيةً عن زملائي الآخرين في شيء على الرغم من أنني أجودُ منهم صوتًا في القرآن وأحفظ، أُقَلِّدُ المدودَ والغُنَنَ التي أسمعها في إذاعة القرآن الكريم طَوالَ اليوم.

لكنَّ موقفًا (أتذكره بتفاصيله) هو الذي أشعرني يومًا ما أنني متمايز عن الكثير ممن حولي؛ ففي أحد نوادي الزقازيق كنا نلعب أنا وبعض زملائي تنس الطاولة، وكنا أربعةً تقريبًا نتبادل على طاولة واحدة، وعندما حاول زميل (كان يبدو أن بنيته أقوى مني) أنْ يستوليَ على دوري بعد أن أنهى دوره، ودفعني دفعة خفيفة كدت أسقط بها؛ نهره الآخر وجرى نحوي يحاول أنْ يسترضيَني والرهبة بادية على وَجْهِهِ من الموقف، وَوَجَّهَ للزميلِ المعتدي عبارة غريبة على مسمعي: «إوعى تعمل كده... أنت ما تعرفش... أحمد ده بتاع ربنا!».

لا أدرى! ربما فكرت قليلاً بعد هذه الكلمة في الأسباب التي جعلت «علاء» زميلي يطلق عَلَيَّ هذا الوصف، ربما أسلوب قراءتي للقرآن، أو حرصي على التوجه لـ «مسجد المدرسة» في الفسحة بين الحصص... لا أدري!

لكنَّ ما أُدْرِكُهُ جيدًّا أنني شعرت بعدها أن هناك آخرين ليسوا «بتوع ربنا»، ربما ليسوا سيئين أيضًا، لكنهم لا يحملون هذا اللقب الذي قَذَفَ في قلبي من وقتها شعورًا عَرَفْتُ مصطلحه بعدها بسنوات طويلة ألا وهو «الاستخلاف»، أنْ تستشعرَ وتستصحبَ معنى أنك «خَلِيفَةُ رَبِّنَا» بين الناس، وربما كانت بالمعنى السَّيِّئِ الآخَرِ الذي يظنه الناس ويعتقدونه حول مفهوم «رجل الدين» هذا المفهوم الغربي الذي يُنْعَتُ به أَيُّ شخصٍ له صفةٌ كَنَسِيَّةٌ، ذلك المفهوم الذي يُصَدَّرُ إلى مجتمعاتنا بشكلٍ لا واعٍ.

سبّح الطّير

بيتنا كان إسلاميًّا بامتياز: فوالدي التحق بـ «الإخوان المسلمون» في شبابه، ووالدتي ابنة رجل إخواني كبير في قريته وبين كل القرى المجاورة، وربما الأبرز في مركز «ههيا» كله وما حوله، وفي عرسهما حضر عشرات الإخوة من أرجاء «الشرقية» كافَّةً مُبارِكين ومُهَنِّئين.

في منزلنا المتواضع تشربتُ أَوَّلَ مَعْلَمٍ من معالم الحالة الإسلامية من خلال «المُسَجِّلُ» الذي لم أَكُنْ أَكُفُّ عن تشغيله يوميًّا في ظِلِّ عدمِ وجود «تلفزيون» في بيتنا. فقد كانت فكرةُ اقتنائِهِ ساعَتَهَا مستهجنةً إسلاميًّا.

كانت شرائط الأناشيد التي أستمع إليها على ثلاثة أنواع: أناشيد أفراح: كأفراح الندى وأفراح اليرموك مثلاً، وأناشيد أطفال: كإصدارات سفير، وأناشيد اجتماعية: كإصداراتِ الفِرَقِ الفنية الإسلامية بجامعة المنصورة «عاصمة الفن الإسلامي» كما كان يُطْلَقُ عليها آنَذَاك.

سَبَّحَ الطَّيْرُ وَكَبَّرْ.. مُنْشِدًا اللهُ أَكْبَرْ.. ليتَ للنَّاسِ عُيُونًا.. كَعُيُونِ الطيرِ تُبْصِرْ كلمات أول أنشودة في شريط «سَبَّحَ الطَّيْرُ» كانت تصاحبني مع كل شروق للشمس أسمع فيه زقزقة العصافير في الشجر الكثيف الممتد على شاطئ التُّرْعَةِ التي أسير بجوارها في كثير من الأحيان إلى أن أعبر الشارع وأصل للمدرسة في الجانب الآخر من المدينة، كان غِلافُهُ ذو الألوان الزاهية يَشُدُّني، وكان الطفلُ المرسومُ عليه ذو المُحَيَّا الطيبِ والطاقيةِ المزركشة يُشْعِرُنِي أنني هو، طفل يغرد مع الطيور والعصافير بحمد الله ككل الكائنات!

كان الشريط به أنشودة لكل ركن من أركان الإسلام، تدندن حول معانيها وتجعلها لصيقة بأذهان الأطفال، وتنقش على قلوبهم حروفًا لا تبلى مع الزمن.

وكانت كلمات: «يا عرسنا نلت المباهج كلها.. حلو النشيد وصحبة تهفو لها...».

أو: «عم يا عم يا والد هيك الصبية.. بدي يا عم تكون لي زوجة شرعية...».

وبالطبع: «ياجمالوا يا جمالو يا جمالو.. وعريسنا ما بين أحبابو...».

كلها لم تكن تفعل بي سوى بعض الطرب، وحركة اليدين التي تضرب على أي جماد أمامها كطبلة، وإيقاع مع الأنشودة التي تهدر من الشريط، فلم أكن أدرك من معانيها الكثير.

أما أناشيد جامعة المنصورة فكانت مختلفةً بعض الشيء كلماتُها من أمثال:

بين الجنة وبين النار ... ليه الناس دايمًا تحتار

فكر حبة وشغل عقلك ... شوف الأحسن إيه واختار

خلي لسانك دايمًا طاهر ... إوعى الغيبة ولحم أخوك

لما تقول الخير بلسانك ... كل إخوانك هايحبوك

تحفظ غيبته تروح الجنة ... تنهش لحمه تروح النار

فكر حبة وشغل عقلك ... شوف الأحسن إيه واختار

وتستمر الأنشودة في الحض على الصلاة والتحذير من تركها، أو التحذير من التدخين والترغيب في تركه، وتكون المحصلة في كل أمر أو نهي أن نفكر بعقلونا: هل ينتهي بنا المطاف إلى الجنة أم النار؟

وكانت هناك كلماتٌ أخرى أكثرُ تفصيلاً لشرائحَ وفئاتٍ معينة مثل تلك التي كانت عن فتيات الجامعة:

ودنك لحظة يا بنت الجامعة — بس ياريتك صاحية وسامعة

هى نصيحة وقلبى عليكى — أنا عايزك تبقى النور والشمعة

خارجه الصبح ولابسة الموضة — عاملة ف نفسك أجمل زينة

رايحة تتمى هناك تعليمك — ولا حاتقفى فى الفترينة!

ليه بتزيدى النار الوالعة! — بس ياريتك صاحية وسامعة!

اللى بيشغل بالك موضة — طالعة جديدة بتجرى وراها

ولا رواية تشد عواطفك — تقضى الليل سهرانة معاها

بين ده وبين ده حياتك ضايعة — بس ياريتك صاحية وسامعة

وتستمر الأنشودة في حصر المآخذ على فتاة الجامعة، ثم تختم بوصايا لها تتعلق بالعفة والحجاب والاهتمام بمستقبلها أمًّا تربي الأجيال وتنفع الأمة.

أما الأنشودة التي زرعت في نفسي معنى «الأمة» وحمل همها مبكرًا فكانت كلماتها المفضلة يشدو بها المنشدون:

أيام ورا أيام ... وسـنين تمر أوام

قولوا لى عملنا إيه لخدمة الإسلام

قولو لى عملنا إيه لخدمة الإسلام

كان هذا المقطع الذي يأخذني بتلابيبي ويجعلني أتابع أكثر تفاصيل ما يتحدث عنه الشادى:

المسلمين مـلايين ... وللأسـف نايمين

عايشين فى دنيا الغاب بين الوحوش ساكنين

ثم يأخذ في نقد كل شيء من: «صِحَافَةٍ، وتلفزيون، وشباب ضائع، وحتى التبعية للغرب والشرق، والأمريكان، والروس»، ولم يعلق بذهني ساعتها سوى المعنى العام، ولكن بدأت الأمور تتضح بعد عامين أو ثلاثة عندما كنت في العاشرة من عمري.

أمثال هذه الأناشيد أحدثت لديَّ ما عَرَفْتُهُ لاحقًا بحال «المفاصلة» تُجَاهَ المجتمع، فالمدخن أو المتبرجة فضلاً عن أنهم ليس لهم علاقة ب «بتوع ربنا» إلا أنهم أيضًا في غفلة عن طريق ربنا برمته، وربما في اتجاه معاكس له، وبالطبع هم لا يعملون في «خدمة الإسلام»، وفي الغالب إحساسي المتولد ساعتها تُجَاهَهُمْ هو الغضب منهم!

وأذكر أن مُدرسة الرسم في المدرسة كانت تضع كَمًّا لا بأسَ بِهِ من المساحيق على وجهها للدرجة التي جعلتني أكره حصتها تمامًا، ولا أفهم زميلي الذي يعتبرها لطيفة، فقد كانت بالنسبة لي سيئة.

كل هذه الكلمات التي تصدر من مسجلنا ذي اللون الفضي الأنيق كنت أفهمها وأرتب عليها أمورًا، إلا أن أنشودة واحدة أحسستها غريبة وسطها وأخذت أبحث عن معناها:

يا مسافر ما تاخدني معاك.. ده أنا عمري عشته وياك.. يا ما بكرة توحشنا كتير.. ونحن تاني لرؤياك.. يا مسافر ما تاخدني معاك

رغم أن كلماتها تبدو مألوفةً إلا أن فطنتي جعلتني أستغربُ من وجود هذا اللون الذي يعبر عن مشاعرَ عاديَّةٍ، بعد ذلك اكتشفت أنني كنت أقصد «مشاعر غير مؤدلجة» في شريط كهذا، وبالفعل سألت والدتي عن هذه الأنشودة: فأخبرتني أن هذا المسافر هو الشخص الذي يُعْتَقَلُ، وهم في الأنشودة لا يريدون التصريح بهذا!

بالطبع سألت عن معنى الاعتقال، وبذلت والدتي قدرًا لا بأس به من الجُهْدِ لإفهامي إياه، لكنني في النهاية تخيلته فَقَطْ. تخيلت أن هذا الطريق «بتاع ربنا» ليس مجرد عبادات وأدعية، مواظبة على الصلاة، وترك للتدخين، وحجاب، واهتمام بالأمة، بل بعد كل هذا ستواجه الأعداء، من هم؟ لا أعرف تحديدًا، لكنَّ هناك أعداءً سيواجهونك كي لا تستمرَّ في هذا الطريق!

العبادات والأركان تدور أناشيد الأطفال دائمًا حول معناها، والروابط الاجتماعية والمعاملات تدندن حولها الأناشيد الشبابية، ومعنى الأمة والقضايا الكبرى حاضرة أيضًا، وأخيرًا وجود تَحَدٍّ ومدافعة في هذا المضمار؛ تتمثل في حبسٍ أو اعتقالٍ لم أفهمْ كُنْهَهُ على وجه الدقة!

كانت هذه هي الرباعية (العبادات / المعاملات / قضايا الأمة / المدافعة) التي أحْسَبُ أن نفسي بدأت تُكَوِّنُ بها رؤيةً كاملةً (غير واعية بالطبع) لما في الحياة من حولي.

لم يكن بعد كل هذا الذي أسمعه أتأثر بأي أغنية أطفال عادية أسمعها قدَراً، كنت أشعر ساعتها بأن كلمات مثل "أنا لما بحب أتسلى محبش أقزقز

لب.. أنا عندي أقرا مجلة أو أرسم زي ما أحب".. أو "يا صحابى وصاحباتى هنا وحلك سر.. بصو وشوفو حاجاتي إنما إيه في السر". كنت أشعر بأنها لا تليق بذائقتي التي تشكّلت بفعل الأناشيد الإسلامية، فهي لا تحمل نفس المعاني، ولا تشترك في نفس اللغة، الأمر الذي جعلني أسلم داخلياً بأنها لا تخاطبني.

وبالرغم من ذلك لم أكن محاصراً، كطفل يجلس في فقاعة معقّمة، كنت أحتكُّ بكل الأشياء العادية (غير الإسلامية) في المجتمع. ولم أسمع أي توجيه أسري ساعتها بالبعد عنها أو اجتنابها، كانت بالنسبة لي أشبه بالخيارات: ففي حفل التخرُّج من "الحضانة" الذي أقيم على خشبة مسرح الشبان المسلمين لم أكن ذلك الفتى الذي ارتدى جلباباً أبيض، واستفتح الحفل بآيات من القرآن، بل كنت الذي ارتدى زي الفراعنة وجسَّد دور "رمسيس الثاني" في فقرة استعراضية، وبجواري وقف طفل يُجسِّد شخصية "مينا" موحِّد القطرين، وطفلة مكحّلة تُجسِّد شخصية "نفرتيتي"، وكان والدي سعيداً وهو يلتقط لي الصورة تلو الأخرى من كل زوايا المسرح.

سلسبيل

عندما أترك المسجل الذي يتوسط صالة شقتنا الصغيرة وأتجه إلى الصالون أجد ذلك الجهاز العجيب الذي كان يشبه التلفاز، إلا أنه لا يبث عبر شاشته صورًا مماثلة. فقد كان جهاز كمبيوتر حديث (XT100) -ما قبل البنتيام- يعمل بنظام (Dos) -ما قبل الويندوز- لا يوجد مثله عند كل الأطفال الذين أعرفهم أو دخلت بيوتهم؛ ففي أوائل التسعينيات كان اقتناء جهاز كمبيوتر شيئًا غير منتشر على الأقل في الأقاليم. كانت الأقراص المدمجة التي تشغل البرامج عليه ملونة، ولا أجيد استخدامها إلا تلك التي تشغل ألعابًا بُدَائِيَّةً كانت تُعَدُّ أعلى ما يمكن أن يحصل عليه طفل في تلك الأيام.

في العُلْبَةِ المخصصة لحفظ هذه الأقراص يوجد أحدها مميزًا بلون أخضر وبطاقة ملصقة مطبوع عليها كلمة «سلسبيل»، أتذكر أول مرة شغله والدي أمامنا في البيت امتلأت شاشة الجهاز السوداء بكلمة سلسبيل بلون أخضر أيضًا. ثم انتقل عبر الأزرار إلى قلب البرنامج لنجد أن المصحف كاملاً موجود على الجهاز، وتستطيع أن تبحث عن كلمة ما في القرآن الكريم ليخرج لك عدد المرات التي ذكرت فيها ومواضعها، ولم يكن يأتي ضيف عندنا إلا ويأخذ والدي يشغل لهم هذا البرنامج الذي يجعل الجميع يتمتمون «سبحان الله.. الله أكبر.. ولله الحمد».

وفي يوم ما سمعت من والدي أن صاحب الشركة التي أنتجت هذا البرنامج والتي اشترى والدي منها هذا الجهاز من الأساس قد اعتقل، وكانت هذه هي

المرة الأولى التي أسمع فيها عن شخص اعتقل: حيث بدأت أنشودة «يا مسافر» تقترب من ذهني أكثر، لم أكن أتذكر من اسمه ساعتها سوى «الشاطر»، وسألت والدي بالطبع عن السبب فحاول أن يفهمني بأن من يعمل لخدمة الإسلام والدين من خلال العلوم المتطورة كمجال الكمبيوتر أو غيره يعتقل: لأن «النظام» لا يريد للإسلام أن يمتلك هذه التكنولوجيا!

لم تكن الأناشيد ولا برامج الكمبيوتر وحدها هي مصدر شعوري طفلاً بتمايزي عمن حولي، فقد كانت أفعالي نفسها تبدو مختلفة قليلاً. فأنا آكل بشكل مختلف عن الناس، نعم.. أتمتم قبل كل طعام: «اللهم، بارك لنا فيما رزقتنا، وقنا عذاب النار»، وإذا نسيت يذكرني أبي: فأتوقف عن الطعام وأقول: «بسم الله أوله وآخره»، وأغلب الناس لا يفعلون ذلك، أو يبدؤون: «بسم الله» وفَقَطْ. وأنام بشكل مختلف فتلقنني أمي قبل النوم: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».. ثم أنام على شقي الأيمن، الذي غالبًا ما أتحول عنه في أقل من دقيقتين.

عندما أرفع سماعة الهاتف أقول: السلام عليكم، وليس «آلو» التي عرفت بعد ذلك أن أصلها «Hallo»، عندما أركب السيارة أجد والديَّ يلقناني دعاء الركوب أو السفر في المسافات الطويلة، وعندما أشكر أحدهم لا أقول: شكرًا، بل: جزاكم الله خيرًا.. وفي رواية: جزاك الله كلَّ خير.. أبي كان يُحكى له نكتة عن «جزاكم الله خيرًا» ربما لم أفهمها إلا بعد أن كَبِرْتُ قليلاً.. النكتة تقول: أن أخَين كانا متجهين إلى مكان ما ولاحظا أن مخبرًا يتتبعهما، فتوقفا عند أول كشك وطلبا من البائع عُلْبَتَيْ سجائر، في محاولة لتضليل المخبر، أعطاهما البائع السجائر وباقي المبلغ فابتسم أحدهما يشكره، وقال له: جزاكم الله خيرًا.. فأمسك المخبر بتلابيبهما.. أهلاً بتوع: جزاكم الله خيرًا".

ربما كانت أدعية وعبارات اجتماعية بسيطة، لكنها كانت تشعرني دائمًا أن شيئًا مميزًا يتم في حياتي اليومية لا يفعله الآخرون.

إلى القاهرة

كان والدي عقيدًا بالقوات المسلحة عندما انتقلنا من «الزقازيق» إلى «القاهرة» وَسَكَنَّا بمساكن الضباط في مدينة نصر، عمري ساعتها لم يتجاوز الثماني سنوات، تركت المدينة التي كانت على أطراف الريف، ودخلت إلى المدينة التي على أطرافها الصحراء، لم تكن نفسي الطفلة قد علقت بعد بالزرع ولا بالشجر، ولا تشربت ذاكرتي من هواء الريف كما يجب، ولا تشبعت عيناي من أناسه الفلاحين البسطاء بقدر يكفي للحنين إليه، فمضيت إلى المدينة لا ألوي على شيء، جذري ما لبث في تربة حتى انتزع إلى تربة أخرى، فكأنما استنبت في الهواء.

شقة أوسع.. حدائق رحبة، ومدرسة جديدة، كانت مدينتي الجديدة تمثل لي هذه الأشياء الثلاثة في البداية، وبمرور أسابيع قليلة فتح المسجد الذي يبعد عَنَّا نحو مِائَةِ مترٍ فَقَطْ في شارعنا نفسه، فكان العلامة البارزة بين كُلِّ هذا الجديد.

المسجد والأمة

ربما لا أحمل للزاوية التي كنت أصلي فيها في الزقازيق قدرًا كافيًا من الذكريات، كانت علاقتي بها بعض الصلوات المتقطعة في الشتاء والمتصلة (نوعًا ما) في الصيف حيث العطلة، ولم يكن الفجر من بينها على كل حال، واختلف الحال في مدينتي الجديدة، فأصبحت أكثر ترددًا على المسجد، وتعرفت على زملاء في سِنّي ما لبثوا أن أصبحوا أصدقاء، وكنا نذهب للمدرسة في الصباح، ونتسامر بعد صلوات المغرب والعشاء في المساء.

بعد أشهر تعرف إلينا شابٌّ مُلْتَحٍ ضعيفُ البِنْيَةِ وكان طالبًا جامعيًّا، ربما كان عمره وقتها اثنين وعشرين عامًا، كنا مجموعة من الفتية ما بين الخمسة والسبعة، تعرف إلينا وإلى والِدَيَّ ووالِدِيْ زملائي أيضًا، أقنعهم للمرة الأولى أن يصطحبنا معه لصلاة الفجر، وعبر لهم عن رغبته في تحفيظنا القرآن من بعد الصبح إلى شروق الشمس.

ما زلت أتذكر إحساس أول يوم نمت فيه مبكرًا لأن والدي أخبرني أن الشيخ أحمد سعد سيستأنف تحفيظنا القرآن بعد الفجر في المسجد، كنت حافظًا للثلاثة أجزاء الأخيرة من المصحف، وكان عليَّ أن أستكمل الحفظ.. كان الجو صيفًا في بداية العطلة المدرسية بين الصفين الثالث والرابع الابتدائي، كان المسجد مفروشًا بالسَّجَّادِ الأخضر، والمصلون مختلفون عن أولئك الذين أراهم في بقية الصلوات، صحيح أن بعضهم يصلي معنا في صلوات أخرى لكنه هنا يبدو مختلفًا، بعد الصلاة وجدت نفرًا منهم يجلس إلى عمودٍ

أو شُبَّاكٍ أو إحدى الحوائط، يفتح مصحفًا ويأخذ في الترتيل، بجانب أحد الشبابيك جلسنا متحلقين حول الشيخ الشاب، لَمَّا نَفْتَحِ المصاحفَ بَعْدُ.. أخذ يدندن بصوت شَجِيٍّ ويقول مومِئًا لنا أن نردد خلفه: «اللهم، بك أصبحنا، وبك أمسينا وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور».

أخذنا نردد خلفه إلى أن ختم تراتيله بـ: «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين».

انسابت الكلمات منه كانسياب الضوء المبدد لظلمات الفضاء المنتشر أمام باب المسجد، كان بصري يختلف إلى النافذة وإلى الباب المفتوح أراقب تدريجات الضوء وهو آخذ في السطوع بعدما ننتهي من كل ذكر.

ثم شرعنا في فتح المصاحف، نصحح عليه جديدنا، ونسمّع له ما فات مراجعة أو حفظًا، حتى إذا اكتمل شروق الشمس تريثنا قليلاً ثم صلى كلٌّ منا رَكْعَتَيِ الضُّحَى، ثم انطلقنا سريعًا إلى الساحة التي أمام المسجد نلعب الكرة وأحيانًا نتريض ببعض التمارين التي كان يمارسها معنا، حتى إذا حَمِيَتِ الشَّمْسُ وأخذنا التعب تناهى إلى سمعنا نداء صاحب العربة التي تهادى ببطء من أول شارعنا وهو ينادي: «فول.. بَلِيلَة» فنحضر الفول والبَلِيلَة ونذهب سريعًا للمسجد، نجد عم رمضان قد أغلق أبوابه، نأتي بخشبة صغيرة وندخلها برشاقة في لسان الباب فينفتح بسهولة، ندخل ونخرج الأطباق المخبئة في حصير المسجد ونأكل بنهم من الجوع والتعب، ثم نعود لبيوتنا نمشي في طرقات المدينة نقابل سكانها قد انتشروا لتوهم في الشوارع ذاهبين لأعمالهم ما زالت آثار النوم بادية على وجوههم.

ورقة الأذكار البيضاء الصغيرة التي وزعها علينا كبرت مع الأيام وأصبحت المطوية الخضراء المعروفة، أحببت فيها أكثر ما أحببت «سيد الاستغفار»: «اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك

ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، والصفحة التي كنا نحفظها من القرآن أصبحت ربعًا كاملاً جعلني أتممت حفظ ربع ياسين في مدة قصيرة، والمسجد الذي ارتبطنا به يومًا بعد يوم أضيفت له توسعات وأدمج فيه جزء من الساحة الفسيحة أمامه، وأنشطتنا كثرت فأخذنا نُعِدُّ الرِّحْلاتِ إلى النوادي والحدائق والمتنزهات.

كان المسجدُ عالمنا الصغير بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، الأمة ممثلة بكل معانيها، كنا ننتظر الصلاة بعد الصلاة لنهرول إليه، نصلي ونلعب إثر كل صلاة إلا الفجر والمغرب حيث نجلس بعدهما للقرآن، كنت أُؤَذِّنُ بين الفَيْنَةِ والأخرى، وَيُعْجَبُ المصلون بِأَذَاني ويثنون علي، كنت أراقب الشيوخ ذوي اللِّحَى الكبيرةِ البيضاءِ والشباب ذوي اللحى الخفيفة السوداء يجلسون في أماكن معتادة، يتحلقون حول مقرأة، أو يشردون في التسبيح وحبات المِسْبَحَةِ تتأرجح بين أصابعهم، لم يكن بمسجدنا مِصريون فَقَطْ، كان به الكثير من المسلمين الأجانب الذين يشعرونني باكتمال معنى الأمة الحقيقي في عالمي المصغر هذا.

طاجيك، وداغستانيين، وأوزبك، وشيشانيين؛ تعرفت على أسماء جنسياتهم بالكاد، كان الشباب منهم والأطفال يجلسون معنا إلى الشروق في كل يوم، لا تكاد أعينهم ترتفع عن المصاحف التي يقبضون عليها بأيديهم كأنما يقبضون على لجام فرس منطلق، كان لي صاحب منهم اسمه «سيف الإسلام»، كنت أحب سمتهم القوقازي، شعرهم المنسدل على جباههم وقسماتهم الصارمة كأنها مقدودة من جبالهم الشمَّاء.

المدرسة والدولة

لم تبدأ رؤيتي للمدرسة تتضح إلا في الصف الرابع والخامس الابتدائي، كنت من الأطفال المميزين في المدرسة، الإذاعة المدرسية أقرأ فيها قرآن الصباح وألقي أحيانًا بعض النصوص الأدبية، أتذكر أن أول جملة أحسست بها تملأ وجداني عندما انتفخ صدري وأنا أزعق في «ميكروفون» المدرسة على لسان المَنْفَلُوطِيّ: «إن الحرية شمس يجب أن تُشرق في كل نفس».
المسرح كان لديَّ باعٌ فيه أيضاً للدرجة التي طُفْت فيها على كل الفصول وأنا أمثِّل دور «سعفان الكسلان» تلك القصة التي كانت مقررة علينا في الصف الثالث الابتدائي، أيضًا رسوماتي كانت تطوف على الفصول عندما تأخذ فرشاتي في رسم الريف الأوروبي الذي أولع بصوره في قصص سندريلا والأقزام السبعة.
كل هذا لم يَخلق لديَّ حب المدرسة، ولا جعل منها بيتًا ثانيًا كما هو مكتوب على غِلافِ كتب الوزارة.. كل هذا كان عاديًّا بالنسبة لي.

الأمر الذى لم يكن عادياً على الإطلاق هو أنني لم أكن أحب طابور المدرسة أبداً، ليس لأية أسباب تقليدية لدى زملائي، فأنا غالباً لا أقف في الشمس بل أقف في مظلة الإذاعة، وغالباً لا يؤرّقني الاستيقاظ مبكراً للحاق به، ولا تزعجني التمارين التنشيطية الخفيفة التي نؤديها بحركات شبه بهلوانية، وإنما كان يزعجني شيئان رئيسيان: العلم والنشيد..

أتذكر جيدًا أنني كنت أَعُدُّ العَلَمَ مجرد قطعة قمَاشٍ ملونة بألوان محددة ليس لها أي دلالة عندي، وإن قالوا لي: إن الأحمر للدم المدفوع في الاستقلال، والأسود يرمز إلى زمن الاستعمار، والأبيض إلى الرخاء والسلام، والنَّسر للقوة والمنعة، لم يكن يعنيني كل هذا.. كل ما كان يعنيني أنه هناك في وسط "حوش المدرسة" نتحلق حوله كل صباح ونحييه! لماذا نحيي تلك القطعة من القماش؟!

لكن الأغرب هو النشيد الذي لم أكن أردِّده البتة، ولما كان أصحابي يسألونني عن هذا أقول لهم: إن هذا النشيد حرام، أو به خطأ فادح على أقل تقدير، فكيف أقول عن مِصر: «أنت غايتي والمراد»، والله هو غايتي! وليس مِصر بالتأكيد، وكيف أقول: «كم لنيلك من أيادي»، وهذه نعم الله، هو الذي يجريه، وليس للنيل نَفْسِهِ فضل في هذا!

لم يكن الأمر عارضًا؛ بل استمرَّ الجدل مع زملائي وتعدَّى إلى أساتذتي عندما شرع واضعو المناهج في إتحافنا بنصوص اللغة العربية في حب مِصر «أم الدنيا»، في حِصَّةِ اللغة العربية وقفت وسألت الأستاذ عن النص المكتوب: مِصر ترزعت تحت سمائها وشربت من مائها وتظللت بظلها.. هواؤها حسن، وجوها عليل... إلخ، ثم عقَّبت بحدة أليست هذه السماء هي سماء الله، وهل هناك أرض بلا سماء حتى تكون سماء مِصر مختلفة ورائعة، وهل هناك أرض بلا ماء أو زرع أو ظل، سألت وحملق فيَّ الأستاذ.. استأنفت: لماذا نحب مِصر، وهي ككل البلاد، وأيُّ ميزة لها ليست من صُنعها إنما هي صنع الله، فالدرس يجب أن يكون عنوانه "في حب الله" وليس "في حب مِصر"!
لا أتذكر أنني سمعت هذا الكلام بشكل مباشر من شيخي أحمد سعد، ولا أعرف حتى الآن كيف دخل عقلي وأنا في تلك السن، وأذكر أيضًا الردود التي كانت تحاول إقناعي ساعتها: النبي صلى الله عليه وسلم حض على حب

الأوطان، وخرج من مكة وهو يقول: «والله، إنك لأحب البلاد إلى الله وإلى نفسي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»، ولم أستطع الرد عليها إلا وأنا في نهاية المرحلة الإعدادية عندما بدأت أقرأ أكثر.

لكن الأمر لم يكن حالة عداء للوطن أكثر مما هو حالة عداء لتسويغات الناس وطريقة عرضها لحب الوطن؛ حيث لم أكن أجد ما يوازيه حديث عن حب الأمة أو العمل لها مثلاً، فكلمة الأمة التي ناغشت سمعي منذ الصغر لم أجدها يومًا في الكتب المدرسية التي كان أقصى مدى لها أن تذكر «الوطن العربي» أو «العالم الإسلامي».. "وطن" و"عالم" وليس "أمة" أيضًا!

كنت أشعر ساعتها بأن المجتمع غريب، كنت أقف بالساعات أمام المرآة أجمع الكثير من طرح والدتي وأربطها على رأسي متفننًا في عمامات كبيرة وملونة كالتي أراها في القصص المصورة التي تحكي عن الصحابة والفاتحين، ثم أنزع يد المقشة وأستخدمها كسيف أجول وأصول به في صالة البيت، وكان من حولي يعتبرونها طفولة متأخرة!

لكنني لم أكن أكفُّ عن هذه الاستعراضات وأنا أدندن أنشودة الشريط الجديد:

غزوة الفرقان بدر للهدى فتح ونصر.. غزوة الفرقان بدر للهدى فتح ونصر
ما بدا للدين فخر ساطع بالحق مثمر.. أيها التاريخ ردد قصة الحق المؤزر
شامخًا في يوم بدر هاتفًا الله أكبر.. هاتفًا الله أكبر

لكن كل هذا فهمته بعد سنوات طويلة، فهمت حالتي التي وقعت بين «النوستوليجا» والعداء للدولة التي احتلت مكان الإله في الأمة، فأصبح رمزها هو العلم (الصنم) الذي يعبِّر عنها، والذي نؤدي التحية له كل صباح، وأصبح النشيد هو التراتيل التي تتلى في معبد هذه الدولة، والمناهج التعليمية التي تجعل من دولة مِصر القومية الحديثة مركزًا للكون والحياة هي كتبه التي بها تُتَعَبَّدُ.

وحتى الانتماءات الصغيرة داخل كون الطلاب مصريين تدلُّ على بعد مجتمع المدرسة عن بيئتي تماما، فيكفي أن أشهر سؤال يمكن أن يُسأل لك بعد: اسمك إيه؟، هو: انت أهلاوي ولا زملكاوي؟!

وكان ردّي في البداية: أنا لا أهلاوي ولا زملكاوي، فيكون الرد: بتشجَّع الكورة الحلوة إذن!، فأقول: لا أهلاوي ولا زملكاوي، ولا بشجع الكورة الحلوة، أنا مسلم!

كانت كلمة "أنا مسلم" بعد الجواب يثير الطلاب بزوبعة من الاعتراضات، نحن أيضاً مسلمون، ما دخل الإسلام والكفر في هذا؟ ولكني كنت أقصد أن المسلم لا يُصنِّف نفسه حسب فريق كرة قدم، ويجعل ذلك أهم محدداته في الحياة بعد اسمه مباشرة.

وكان هذا النموذج خير مثال على عشرات الاختلافات بين مجتمعي كإسلامي ومجتمع أي شخص آخر، ففي الوقت الذى كان فيه "الدوري" والكاس" و"بطولة أفريقيا" أحد أهم الموضوعات الرئيسية الجديرة بالمتابعة، كنت أضجر من متابعة أي مباراة كروية، بل كنت أشتاط غضباً، كيف يُعقل أن ينساق كل هؤلاء وراء متابعة كرة تركلها الأقدام، ويرتّبون على ذلك الانتماء والغضب والفرح والثورة والبهجة وعشرات المشاعر بسبب حفنة من اللاعبين يُنفق عليهم ملايين الجنيهات من جيوبهم؟!

وكان أحد التجليات التي تُظهر الحدَّ الفاصل بين المجتمعين عندما يحضر وقت صلاة العشاء أو المغرب أثناء إحدى المباريات المهمة، وأجد المسجد تتقلّص عدد صفوفه من ستة صفوف أو سبعة إلى صف أو صفين، ساعتها أدرك أن عدداً لا بأس به ممن يصلي معنا فى المسجد ينتمي لذلك المجتمع الآخر، أو على الأقل مذبذب بيننا وبينهم، وأذكر أن أحدهم جاء إلى المسجد وأمر المؤذن أن يُبكِّر بالإقامة، وحثَّ الإمام على تقصير الصلاة وعلَّل بملء فيه في وسط المسجد: عندنا ماتش!

معرض الكتاب

أقنع الشيخُ أحمد سعد والدي أن يأخذني وإخوتي مع فتية آخرين لمعرض الكتاب، كنت أسمع هذا الاسم لأول مرة، أخذ الشيخ يتلو أدعية وأذكارًا، ويستغفر ويأمرنا بالاستغفار طوال الطريق، لم أره بهذا التوتر من قبل! عندما دخلنا من بوابات المعرض وجدت عشرات الشباب الملتحين مثل شيخي، ووجدت أيضًا عربات ضخمة ذات صناديق سوداء كبيرة، ويتراصُّ حولها جنود وضباط بزي موحد مختلف قليلاً عن زيِّ الشرطة التي أراها بشكل طبيعي في الشارع.

أخذنا نتجول في المعرض ونشتري الكتب بعضها بتوجيه من أستاذنا وبعضها الآخر بانتقاء منا، كنت طفلاً في ليلة عيد أتقافز من الفرح وأنا أسير في أروقة المعرض، أشعر بأنه يعبر عن عالمي، الكثير من اللحى والكثير من المحجبات وأصوات الأناشيد تتردد بين جنبات الصالات التي ندخلها، وعشرات الكتب والعناوين التي تتحدث عن الأمة والجهاد والدعوة، وكلٌّ يسير في رَدَهَاتِ صالة (٤) يبتسم ويلقى السلام ويقول: جزاكم الله خيرًا.

بدأت أيدينا تنوء بما نحمل من حقائب ونحن نخرج من صالة لأخرى، فجأة.. وجدت أحد الضباط يعترض طريقنا، ويأمرنا بأن نسير معه نحو مجموعة من الضباط يبدون أكبر رتبة يجلسون في ظل تلك العربات المصفحة.

أخذ الضابط يسأل أستاذي بفظاظة عن اسمه وَعُنْوَانِهِ ويتفحص بطاقته

والكتب التي يحملها. كنت أكبر الأولاد الذين معه تقريبًا. عدل قليلاً من هيئته.. نفث دخان سيجارته.. ابتسم ابتسامة صفراء:

- وأنت يا حبيبى، بابا عارف إنك جاي مع عمو ده؟

رددت عليه بقسوة:

- والدي هو من جعلني في صحبة شيخي هنا. وهو ضابط قوات مسلحة بالمناسبة..

- طيب وريني اشتريت إيه؟

أخرجت له كتابًا بعنوان «كيفَ تُصْنَعُ القنبلةُ الذرية».. وقبل أن ينبس ببنت شفة نظرت في عينيه وقلت له:

- اشتريته كي أبيد اليهود من فِلَسْطِين.

ارتبك الرجل قليلاً، ثم ابتسم ساخرًا قبل أن يشيح بنظره ويعيد البطاقة لأستاذي حتى نمضيَ في حال سبيلنا.

وكان هذا الموقف أول تطبيق عملي لما سمعت عنه من «الاعتقال» أو «رجال الأمن» وأول تعامل مع «النظام» الذي كنت أعتقد ساعتها أن وظيفته هي منعنا من الجهاد في فِلَسْطِين.

يومها أيقنت أيضًا أنني إن سرت على الطريق الصحيح فيجب أن ألتقيَ أحدَ هؤلاءِ مرة ثانية، بهذه الأشكال الجلفة العيون والسافرة رغم احتجابها خلف النظارات السوداء والأنوف الغليظة التي تستخدم كمدخنة أكثر منها متنفس هواء، والشفاة التي تخرج سِبابًا وقذًى أكثر من أي كائن آخر، آمنت بأنني لو لم ألتقِهم فأنا قطعًا في الطريق الخطأ!

كانت الكتب التي نشتريها تقع في مساحة الأطفال حتى سن اثنتي عَشْرَةَ سنةً تقريبًا، كانت قصصًا عن الصحابة والتابعين والمجاهدين والغزوات، الشرائط بدت متنوعة أكثر من التي كنت أستمع إليها في «الزقازيق» فهناك سلاسل أناشيد أطفال متنوعة تتغنى كلماتها بأركان الإسلام، بالطبيعة،

بالعلم، والنجاح في الحياة، تحكي قصص الأنبياء أو قصص الحيوان في القرآن، تتحدث عن بر الوالدين، عن الصداقة، وبالطبع يضاف إلى كل هذا الأناشيد الفِلَسْطِينية عن القضية والجهاد وأطفال الحجارة.

وكانت سلسلة أشرطة «نداء وحداء» هي الفضلى لي ولجيلي أيضًا كما أظن، فعندما تبدأ بَكرَةُ الشريط في الدوران للأمام داخل المسجل تبدأ عجلة التاريخ في الرجوع برأسي وتتبدل الدنيا من حولي عمائم ومآذن.. جهاد ومعارك:

ناداك الإســلام فأقبل ... يا ابن الإسلام لتسمعه

يشكو من قسوة غربته ... ويريدك أن تبقى معه

يا ابن الإسلام يا ابن الإسلام

يا سهمًا فى كبد الوثن ... يا قلبًا حَنَّ على البشر

بهذه الكلمات بدأت الرؤية تتبلور أكثر وأكثر فنعم أنا ابن الإسلام، والإسلام أبي لا أب لي سواه، وإن كان ثمة من قضية أرض أحنُّ إليها وأعمل من أجلها فبالتأكيد «فِلَسْطِين»، وإن كان ثمة بهجة ففي الآخرة وليس لها مكان في الدنيا.. بعد أن تحفظ وتردد:

يا أيها الإنســـانُ هــلْ ... تبكى لما أبكـــانى

أرأيت ماذا قد حَصَلْ ... فى العـــالم الحــيرانِ

اليأسُ يَعْبَثُ بالأملْ ... وَيَهُزُّ كُـلَّ كِـــيَانِي

العين فارقها الكرى ... والقلب فارقه الأمان

وأرى هناك أحـبتى ... يلقون أصناف الهوان

وأنا هنا فى غـربتى ... ما لى بنصـرتهم يدان

ولم يكن كلامًا إنشائيًّا في الهواء، وإنما كلامٌ يستدعي صورة الطفلة الباكية،

بل الصارخة الملتاعة ذات الشعر الأصفر على ملصق تعلوها عبارات: «أغيثوا كوسوفا» أو ذلك الكتاب الذي انطبع غِلافُهُ في ذاكرتي عن «مذابح الشيشان».. رشاش ذلك الصربي يفتش في جثث أمامه عمن به رمق من حياة حتى يُنفِذَ فيه رَصَاصَتَهُ الأخيرةَ، أكاد أشعر بفوهته على رأسي كلما عشت مع تلك الأناشيد.

الأناشيد لم تعد تهدهد أحلامي كما السابق ولكن أصبحت تهيج نفسي وتشحذ همتي:

خندق قبرى وقبرى خندق ... وزنادى صامت لم ينطقِ

فمتى ينفث رشاشى متى ... لهبًا يصبغ وجه الشفقِ

وحتى عندما ترقُّ الكلمات وتشف تجد الأنشودة تصدح:

لك يا رحمن ترانيمى ... سبحانك أنت المتعال

أدعوك بقلب مكلومٍ ... قد ملَّ جحيم الأغلال

حتى الصيحات الجديدة في السنوات التالية، إصدارات المنشد الجديد مصطفى محمود، شريط «بعد الصمت» الذي كنت لا أملُّه، كان بالعامية ولكنه كلماته قوية كما الفصحى:

وانتهى زمن السـكوت ... وابتدى البركـان يثور

لسه فيه للحق صـوت ... لسه فيه فى الدنـيا نـور

شيل إيديك يا ظلم يلا ... ع اللسان ياما اتخرس

خلى صـوت الحق يعلى ... وسط نار من غير حرس

بعد صمت سـنين خلاص ... هنتكلم وتسـمعنا

ولا بمدفع ولا برصـاص ... هيقدر حـد يمنعنا

بعد الصمت بعد الصمت.. آه طال الصمت

طارق والغلام

لم تتطوّر مسيرة الأناشيد وحدها، أصبح لدينا أيضًا جهاز كمبيوتر جديد «بينتيام ٢»، يعمل بنظام «ويندوز»، وكان معرض الكتاب مملوءًا بالأسطوانات، ختمات قرآنية منوعة، ودروس، ومحاضرات، وبرامج إسلامية للكبار والصغار.

كان «السي دي» المفضل لدينا هو الفيلم الكرتوني «يوميات طارق»، أعتقد أنه كان من إنتاج شركة صخر. كان عبارة عن حلقات لقصة كرتونية بطلها طفل اسمه طارق يعيش مع أبويه في بلد أوروبية. يتعرض الطفل للاختطاف من قبل عصابة تطلب من والده الثري فدية كبيرة «مليون دولار»، يخبر الوالد الشرطة ويحاول الوصول إلى طارق، في الوقت الذي يقنع فيه طارق واحدًا من مختطفيه بالإسلام ويدعوه إليه فيسلم، وينقذه في الوقت الذي تصل فيه الشرطة.

كان السيناريو يَتَضَمَّنُ كثيرًا من الأحاديث النبوية المهمة في حياة المسلم اليومية، وبعد كل حلقة تجد الأحاديث في «أيقونة» منفردة وتجد شرحًا لها، وتجد ترجمة وسيرة لراويها، وتجد ألعابًا تعتمد عليها، فتجد مثلاً في لعبة الفضاء سفينتك مكتوب عليها: «الذي ليس في جوفه شيء من القرآن» ثم تجد عددًا من الكائنات الفضائية مكتوب عليها تكملات مختلفة للعبارة واحدة فَقَطْ هي الصحيحة «كالبيت الخرب»، تطلق عليها النار، فتنفجر، وتمر للمرحلة التي تليها.

أم طارق وهي تدعو بأذكار الصباح على سجادة الصلاة «اللهم، إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك»، وأبو طارق وهو يوجه ابنه على الفطور عندما أعرض عن نوع من الأطعمة: «ما ذمَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) طعامًا قَطُّ، إذا اشتهاه أكله، وإذا عافه تركه»، وطارق نفسه وهو يدعو مختطفه جوزيف إلى الإسلام، ويشرح له معاني الصلاة والصيام، كل هذه المشاهد حُفرت في نفسي، وتمنيت أن قناة كاملة للأطفال تعرض عشرات الأفلام والمسلسلات الكارتونية عن طارق وأشباهه، فقد كانت بطولاته عندي أعظم من أهداف كابتن ماجد في مرمى رعد، أو انتصارات مازينجر على آلِيَّ «أبي الغضب».

كنت أحاول تقليد طارق، كنت أختبر مهاراتي الدعوية مع أقراني، كانت محاولات من قبيل إيقاف اللعب عند الأذان وإقناعهم بالصلاة في المسجد، لكن الموقف الذي أثبتُّ فيه تلك المهارات كانت مع شاب يكبرني بأكثر من عشر سنوات، كان فرد أمن في منطقتنا اسمه عادل، تعرفت عليه وأصبحت أجاذبه الحديث كلما نزلت للشارع، كان مدخنًا ولا يصلي بانتظام، أحضرت من مكتبة الأشرطة بالمسجد شريطي «لماذا لا تصلي» و«حرب التدخين» للشيخ محمد حسين يعقوب، وعيت ما فيهما ورحت أتحدث معه عن الأمر، وأحضرت له كُتيبًا أيضًا عن أضرار التدخين.

لم أصدق نفسي عندما أخبرني يومًا أنه عزم على ترك التدخين بسبب كلامي والكتاب الذي أهديته إياه، ورمى أمامي بآخر علبة سجائر كانت بجيبه، ظننت أنه يحاول ترضيتي لكن مع الأيام لم أره بعد ذلك يشرب سيجارة واحدة، أخذ قلبي يرقص فرحًا، وترن بأذني كلمات أم طارق لولدها عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «لأنْ يهديَ اللهُ بك رجلاً خير من الدنيا وما فيها».

كان طارق بطلي المعاصر، أما بطلي التاريخي الأسطوري فكان «الغلام»، هكذا هو علم على نفسه، وهكذا نطق الملك الظالم اسمه في نهاية قصة «أصحاب الأخدود» الشهيرة: «باسم الله رب الغلام» عندما ضرب برمحه فجاء بين عينيه.

إنها قصة الغلام الذي كان يتردد على الساحر حتى وجد عالِمًا، فأصبح يتردد إلى الساحر والعالِم، واحار فيما بينهما، وفي اليوم الذي وقفت فيه الدابة العظيمة في طريق الناس التقط الغلام حجرًا ودعا ربَّه: «إن كان العالِم أقرب إليك من الساحر فأمت الدابة» فماتت الدابة، واستبشر الناس بالغلام، ووفدوا عليه يتداوون ويقضون جوائجهم وهو يقضيها لهم باسم الله، حتى ذاع صيته فأمر الملك به، وحاولوا قتله بكل طريقة، حتى أشار الغلام على الملك أن عليه حشر الناس جميعًا وضربه بسهم يقول قبل إمضائه نحوه: بسم الله رب الغلام.

قُتل الغلام، وحدث له ما أراد وخطط، ولكن آمن الناس، وتجبر الملك حتى حفر لهم الأخاديد، ورماهم في نيرانها.

كانت القصة واحدة من عشرات القصص الإسلامية التي كنت أقرأها في مجلة «براعم الإيمان» التي كانت تصدر ملحقًا لمجلة «الوعي الإسلامي» الشهرية الكويتية، كانت المجلةُ المعادلَ الإسلاميَّ لـ«ميكي ماوس» أو «فلاش» أو «سمير»، وغيرها من المجلات، وكانت هذه القصة بالذات لا أملُّ قراءتها، ولا أملُّ تخيل صورة ذلك الغلام، الذي ضحَّى بنفسه ليهديَ قومه جميعًا بذكاء وفطنة.

الله أكبر ولله الحمد

كنا نتوجَّه لقضاء كل الأعياد في الزقازيق، وكانت الأعياد بالنسبة لي ذات مذاق خاص، فكل ليلة عيد يطير النوم من عيني ترقبًا للغد، لم تكن العيدية أو الألعاب النارية هي ما يطير النوم من عيني، ولكن كانت الصلاة في الاستاد هي التي تجعلني أترقب العيد.

كنت أدخل «استاد الزقازيق» وأجد التكبير يرج المكان: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله.. الله أكبر.. الله أكبر.. ولله الحمد»، كان الجميع يردد هذه الصيغة حتى تجد ميكروفونًا ما تنطلق منه صيغة أخرى: «الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، لا إله إلا الله، وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده» إلى أن تُختم بالصلاة على النبي وآله وصحبه وأزواجه.. كانت الأجواء تتلبد سريعًا، ويحجم غالب من حولي عن ترديد تلك الأخيرة، وعيد وراء عيد أخذت أفهم أن الأولى هي السنة؛ كما يقول الإخوة، والثانية «لم ترد»، لكن الأهم من عدم ورودها هي أنها صيغة الحكومة، الأوقاف؛ ولذا لم أكن أطيق سماعها!

عندما كبرت قليلاً سمح لي أبي أن أذهب وحدي للاستاد وأشارك في المسيرة التي كنت أشاهدها فَقَطْ من بعيد في كل مرة، كانت المسيرة هي أعظم شعور يمكن للمرء أن يحصل عليه طوال السنة، أن تجد نفسك محاطًا بالعشرات بل المئات تلتف الأزرع حول بعضها بعضًا كالسلسلة في كل صف ستة أشخاص أو ثمانية، وفي منتصف المسيرة من يكبر تكبيرات العيد،

وهناك لافتتان عن اليمين واليسار عليهما ذلك الشعار المثير للحماس، سيفان ومصحف يتوسطهما، وعبارات التهنئة الإسلامية «تقبل الله منا ومنكم»، كنت أراقب نظرات الشرطة وهم يمسكون باللاسلكي ويبلغون بالعدد وبعض المعلومات عند رأس كل شارع نقطعه، كنت أشعر بالحماسة أكثر ما دام ذلك يغيظهم وتعلو نبرتي بالتكبير أكثر وأكثر.

عندما نصل لبوابة الاستاد تختفي اللافتات حتى لا تُختطف هي وحاملها، يخفت الهُتَافُ، ونجد من يستقبلنا باللافتات ذات التهنئة غير الإسلامية، مكتوب عليها: «عيد سعيد».

في نهاية خطبة كل عيد أحصل على كيس صغير به بالونة، وحبتين فول سوداني، وقطعة شوكولاتة، أتركها جميعا لإخوتي الصغار، وأحتفظ فَقَطْ بالملصق الصغير داخل الكيس الذي عليه الشعار المحبب إلى عيني نفسه: السيفان والمصحف، وفوقهما عن اليمين واليسار كلمتا: «الله أكبر.. ولله الحمد».

الحلم العربي

انتقلت من الابتدائية إلى الإعدادية، دور واحد للأعلى بالمدرسة نفسها يفصل هذه المرحلة عن تلك، أصبحت الفصول كلها أولاد، وذهبت زميلاتنا إلى مدرسة إعدادية للبنات فَقَطْ، لم أنتبه لوجود الفتيات معنا إلا في آخر امتحانات في المرحلة الابتدائية حيث أتين بملابس توحي بأنهن قد كَبِرْنَ، كانت أشبه بحفل وداع.

لم تتغير الحصص كثيرًا، المواد العاديّة، والمكتبة التي لا أجد ما أقرؤه فيها فلم يكن بها أي عناوين تثير ميولي هي هي، والألعاب التي غالبًا أنزوي فيها بركن أدندن أو أراجع بعض السور، في الحوش نفسه، ربما حصة الكمبيوتر سيأخذوننا فيها إلى معمل «إعدادى» وسمعنا عنه أنه مجهز بشاشة كبيرة يعرض عليها أحيانًا بعض الأفلام!

وجاء اليوم المنتظر وانتظمنا صفوفًا نسير باندفاع من الفصل إلى غرفة «الكمبيوتر»، جلسنا أمام شاشة بيضاء كبيرة، قال لي أصدقائي إن شاشة السينما أكبر منها بكثير، لم أكن قد شاهدت شاشة سينما من قبل، أحكمنا غلق الستائر، وبدأ «البروجيكتور» ذلك الاختراع الجديد يعمل ويبث الصورة على هذه المساحة الواسعة.

موسيقى شجية، وعدد من المغنين والمطربين لا أعرف منهم الكثير بالطبع، يجهزون الكلمات، المايسترو أعطى إشارة البدء فنطقوا بالجملة الأولى:

أجيال ورا أجيال ... هتعيش على حلمنا

واللى نقـوله اليوم ... محسوب على عمرنا

جايز ظلامَ الليل ... يبعـدنا يوم.. إنما

يقدر شعاع النور ... يوصل لأبعد سما

ده حــلمنا ... طـول عـمرنا

حضن يضمنا ... كـلنا كـلنا

لم أكن أعلم من قبل أن هناك «أغاني» تتناول أمورًا شبيهة بالتي أسمعها في الأناشيد، انطلق «الكليب» وأخذ يعرض صورًا تسير مع الأغنية، أخذ ينكأ الجراح بالترتيب، بدأ من النكبة.. فالثورة.. فالنكسة.. لم أرَ هذا من قبل على أي شاشة، سمعت عنه وشعرت به من قبل لكنه لم يتجمع هكذا أبدًا.. استمرت السكين تعمل في أوصالى وأوداجي حتى وصل للانتفاضة الفِلَسْطِينية، أطفال الحجارة وهو يلقون بمقاليعهم.. الفِلَسْطِينيات العجائز وهنَّ يُضرَبْنَ بكعوب بنادق اليهود.. الشباب وهم يحملون الجرحى.. الأطفال وهو يموتون بين يدي أمهاتهم.. الأم التي تحمل رضيعها على يد، وفي الأخرى حجر ترمى به.

لم يكدر صفو الحال التي أعيشها سوى الكلمات التي بدأت تكون سخيفة، فليس وراء كل هذا العرض أية كلمات عن الجهاد أو العزة أو رد الاعتداء حتى، وإنما كل هؤلاء من كل أرجاء الوطن العربي جاءوا ليردوا على ذلك بالحب والسلام والغناء «قدر العصفور طيرانه.. وقدرنا نغني أغاني».. نعم قدرهم أن يكونوا مخنثين لا يحسنون سوى الغناء وأمتهم تُفعل بها الأفاعيل.. انفجرت من البكاء في نهاية العرض، نعم كان يبدو على زملائي بعض التأثر لكنه لم يصل بأحدهم للبكاء قط.. انتهى العرض ولم تَنْتَهِ الحصة، أشَّر المدرس على «كليب» آخر لنشاهده، بدت جملته الموسيقية الأولى صاخبة وغريبة وهلل الزملاء فجأة، إنه «مايكل جاكسون» يخرج من

بين ظلام الشاشة ويتلوى بجسده كالأفعى، انتفض الدم في رأسي حتى كاد أن ينبثق من عروقي، لحظات أحاول فيها استيعاب الموقف، بدأت الفتيات العاريات يظهرن متلويات مثله، أخذت القرار بكل حسم.. وقفت من وسط القاعة وتوجهت نحو الباب دون استئذان، دون أن التفت للمدرس حتى، ومضيت نحو الحوش، ألتهم درج السلم في تهور يكاد يسقطني.

جلست على أريكتي المفضلة ذات الطلاء الأخضر المتآكل من الشمس، أتحسس أنفاسي اللاهثة، أغمض عيني قليلاً لأتذكر ما حدث، لم يستثِرني «الحلم العربي» بقدر ما استثارتني «سفاهة المدرس» وبالطبع التلاميذ من بعده، هم يعتبرون هذا «كليب» وذاك «كليب» أيضًا وربما في ملف واحد أيضًا، لا يعرفون أن سبب الذي شاهدوه في المقطع الأول هو ما يشاهدونه في الثاني، أن بعدهم عن دين الله هو الذي أوصل الأمة إلى هذا، أن الذنب نُذنبه هنا فيقتل به طفل هناك.

أخرجت ورقة صغيرة كانت في جيبي وأخذت أكتب شكوى من المدرس لمديرة المدرسة، ولا أتذكر كيف انتهت الأمور بالشكوى ساعتها!

عطلة أولى إعدادي

لم أكن أجيد لعب الكرة، لم أكن أجيده على الإطلاق، ولم يكن لي صحبة واسعة بين أقراني فغالبًا ما أتحدث في شؤون لا تهمهم، وغالبًا ما يتحدثون في أمور لا تهمني، لم أكن على دراية كافية بأنواع السيارات والهواتف المحمولة الجديدة، ولا بأسماء الممثلين ولاعبي الكرة، ولا بألعاب الفيديو جيم، في أول عطلة لي بالمدينة أخذنا نفكر في تقضية الوقت بشكل مختلف، لا أدري كيف وصلت إلى أطفال بعمر السادسة والسابعة ساعتها فكرة إقامة مكتبة خاصة لأقرانهم، نعم فقد كانت المدينة جديدة والمحال التي أسفل البنايات معظمها خالية، فاخترنا موقعا أسفل عمارة أحد أصدقائنا، نظفنا المحل وعلقنا فيه حبالاً وخيوطًا، وأحضر كل منا الكتب والقصص التي بمكتبته ونشرناها بالمكان، وكانت أكبر سلسلة قصص من بيتي «قصص الأنبياء لعبد الحميد جودة السحار».

ستة مقاعد وطاولتان وأصبح المكان مهيئًا، علقنا لافتة كتب عليها: «رسم الدخول خمسة وعشرون قرشًا».. وفي نهاية العطلة وزّعنا إيرادات المكتبة بالتساوي علينا، وكان هذا أول دخل أحصل عليه في حياتي.. وكانت هذه أول عطلة أقضيها في المدينة.

بعد ثلاثة أعوام وفي نقطة ضجر في أول عطلة صيف بالمرحلة الإعدادية قررت أن أنتقل من الأرفف السفلى بمكتبة بيتنا حيث قصص الأنبياء والغزوات والفاتحين المصورة إلى الأرفف العليا حيث الكتب الكبيرة التي ليس بها أيُّ صور، أخذت أقلب في العناوين فلمحتني أمي ورشحت لي كتابًا

اسمه «في موكب الأنبياء»، كانت تحاول أن تجعلني أقرأ في المساحة نفسها التي اعتدت عليها ولكن بمحتوى أكبر، لم أكمل المقدمة وتركته وقررت البحث بنفسي.

لفت نظري غلاف أحد الكتب حيث رُسمت عليه بعض الشخصيات التي أعرفها مثل جمال عبد الناصر وآخرين لم أعرفهم منهم ملتحين وغير ملتحين، كان العنوان «حقيقة الخلاف بين جمال عبد الناصر والإخوان المسلمين» كنت سمعت هذا الاسم من أستاذي قبل ذلك الحين، أعرف أنهم ينظمون صلاة العيد التي أذهب إليها، وأعرف أنها جماعة إسلامية كبيرة وفَقَطْ، قررت أن اسأل والدي قبل أن اقرأ عن رأيه في الإخوان.

عرفت يومها بشكل مباشر أن والدي كان من الإخوان وترك الجماعة قبيل انتقالنا إلى القاهرة، كان في أسرة كلها ضباط قوات مسلحة، ومسؤول الأسرة هو من أدخلهم جميعًا للجماعة، تذكرت ساعتها أنني كنت أدخل لصالون شقتنا القديمة لأجد ضيوفا يجلسون بخشوع وأحدهم يمسك كتابًا كبيرًا داكن اللون، عرفت ساعتها أنه «الظلال».

ترك والدي الجماعة هو وكل أسرته التي كانت تجلس معهم، مسؤولهم الذي أدخلهم هو الذي أقنعهم بالخروج معه، كان الاختلاف فكريًا وإجرائيًا، لم أفهم الاختلاف الفكري وقتها بشكل جيدٍ، قال باقتضاب: «الجماعة تسعى لمصلحتها قبل مصلحة الدين والأمة» كانت مشكلة والدي الحقيقة إجرائية. بعض المخالفات، ربما الكثير منها مخالفات مالية وإدارية في الزقازيق ومحيطها جعلته يؤمن أن العمل ليس خالصًا لله، وأن الشوائب تعلو في القدح فتعكر الصفو، وأن أفكارهم تلك تأكدت لهم بعد خروجهم من «الإخوان» حيث فُرِضَ حظر عليهم في الزواج من أسرهم أو التعامل معهم في الأمور المادية، وأخذ يسرد لي قصصًا بأسمائها وأعيانها.

وعلى الرغم من كل هذا فإنه اعترفَ في النهاية بأنهم أفضل من يحافظ على الشباب ويقيه من الانحراف خاصة في مرحلة الثانوي والجامعة، فالتربية لديهم ليس عليها غبار، وصحبتهم ليس لها مثيل.

والدي لم يوجهني بشكل مباشر إلى شيء ما، قال لي في نهاية المطاف: من الأفضل أن تتخذ حكمك على الإخوان أو غيرهم بنفسك، وأن تكون لك تَجْرِبَتُكَ الخاصة التي قد تثبت مع الأيام صحة كلامي، وقد تثبت عكسه.

دخلت إلى الكتاب بهذه الروح أتفقد مواضعه، فإذا به يأخذني في عوالم طالما افتقدتها إلا في أحلامي، فصوله الأولى كانت تحكي عن حسن البنا، ذلك الرجل الذي سمعت به ولم أسمع عنه من قبل، قرأت كيف صال وجال بين القرى والمدن فاتحًا ومرشدًا، ينسج حلمه وحلم الأمة خيطًا فريدًا بعدما انتقض على يد أتاتورك، حتى وصلتُ إلى قبيل الثورة وعلاقة الشاب جمال عبد الناصر بالجماعة، طموحه واعتداده بنفسه، فطنته ونفاذ بصيرته التي هيأت له أن يقفز على كل هؤلاء.

ثم يأخذ الكتاب في الانعطاف إلى ما بعد الثورة وتلوّي العلاقة وبداية الاصطدام فتأخذ أنفاسي في الاحتباس حتى إذا شارف على الهزيع الأخير منه انقلبت الأمور رأسًا على عقب، فُتِحت السجون وعُلِّقت المشانق، عُذِّب من عُذِّب وشُرِّد من شُرِّد، وكانت أسوأ خاتمة لأول كتاب أقرؤه في حياتي.

أورثني «حقيقة الخلاف بين الإخوان المسلمين وجمال عبد الناصر» دفعة حقيقية في الطريق الذي اخْتُطَّ لي منذ كنت في السادسة من عمري، كرهت النظام أكثر وأكثر، وآمنت بالحركة الإسلامية ومعركتها الوجودية أكثر، وأخذت أفكر كثيرًا في الحكمة القدرية من أن أقرأ هذا الكتاب في بداية طريقي!

لم أكد أنتهي منه حتى فتحت المكتبة مرة أخرى وأخذت أفتش بهمة وقد قلَّ هاجس الغربة والخوف عندي من كتب «عالم الكبار»، وقع في يدي كتيب

صغير، راية سوداء عليها الشهادتين، مغروس رمحها على طريق أخضر ممزوج بالدماء القانية، وسط صحراء «شهداء على الطريق» لحسن دوح، هكذا كان العنوان.

كنت متشبعًا بقصص الشهداء من لدن حمزة بن عبد المطلب إلى سعيد بن المسيَّب، وكأن الأمة قد توقَّفت عن مسيرة شهدائها وأبطالها وقصصهم في الحياة طيلة هذه القرون، جذبني لما طالعت الفهرس، ولم أجد أيًّا من أسماء هؤلاء الشهداء أعرفهم أو أسمع بهم من قبل.

كان أول اسم في قائمة الشهداء «سيد شراقي»، في السطور الأولى من قصته وجدت اسم قرية أمي «حوض ناجيح» أمسكت بالكتاب وجريت به إلى أمي كالملدوغ أصيح:

أمي! قريبك هذا.. اسمه سيد شراقي، هو اسم عائلتك نفسه!

نعم سيد شراقي هو عمي مباشرة، لم أخبرك من قبل؟!

حدقت فيها: لا بالطبع لم تخبريني!

كانت والدتي تظن أن سير خالد بن الوليد وأسامة بن زيد وحدها ما يصلح للصبيان والناشئة، لم تذكر لي والدتي كيف كان سيد شراقي الشاب الذي استشهد في الثلاثين من عمره، الفتى اليافع الذي شكل كتيبة كاملة من قريته الصغيرة لما سمع نفير الإخوان للحرب في فِلَسْطِين عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف، الشاب الذي رجع من الحرب مخذولاً إلى المعتقل إثر استشهاد حسن البنا واغتيال النقراشي باشا، وخرج منه بعد الثورة مباشرة إلى أرضه يغرس ويقلع، عندما سمع بإلغاء المعاهدة مع الإنجليز انفك من عقاله مرة أخرى، وأخذ يجمع شتات كتيبته، ويلملم شمل جنوده مرة أخرى لحرب القناة، وأسند إليه الإخوان مجموعات أكبر بدأ يشرف على تدريبها في «تل بسطة» القريبة من «الزقازيق» حتى جاء اليوم الذي أصابته فيه رصاصة طائشة فأردته شهيدًا.

كان حسن دوح يروي عمن عاصرهم بنفسه من شهداء في حربي ٤٨ والقناة، كانت قصة واحدة منه بألف من «رجل المستحيل» التي لم أقربها قط إلا مرة واحدة في حياتي، ليس لسوء فيها بقدر ما كان لطبع شخصي ساعتها في الرغبة عن المختلق من القصص والحكايات لا سيما التي لا يحارب بطلها فيها دفاعًا عن الدين أو الأمة!

عمر شاهين طالب كلية الحقوق، الجامعي الذي شكل مجموعة مقاتلة من زملائه ولبّى نداء الجهاد في فِلَسْطِين وعاد منها أيضًا واسْتُشْهِدَ في معركة التل الكبير إحدى معارك الإخوان المسلمين في القناة مع الإنجليز.

صلاح حسن المعلم المقاتل الذي استشهد في حرب الاستنزاف قرب مستعمرة «كفار روبين».

وسيد منصور الذي ذهب مع كتيبته للاشتراك في معركة «الفالوجا» ومحاولة فك حصارها، ولما انقطعت الإمدادات بهم لبثوا يرقبون اليهود ويغيرون عليهم الفينة بعد الأخرى في محاولة لتخفيف الضغط عن «الفالوجا».

سيد الذي استشهد تحت عجلات دبابة إسرائيلية بعد محاولة شجاعة للصعود عليها وقتل قائدها داخلها لما نَفِدَتْ منهم الذخيرة.

مشاهد أسطورية حُفِرَتْ في ذاكرتي بزوايا سينيمائية حاكت ما كنت أشاهده في معارك «عمر المختار» بالفيلم الهوليودي الشهير، وأكدت لدي أيضًا كره كل الأنظمة بل عمالتها.

سبعة جيوش عربية تُهزم في هذه المعارك! ولو تركوا الأمر للإخوان وأمثالهم لما صمد العَدُوُّ ساعةً!

لا ألبث أن أنتهي من الكتاب حتى أهرع إلى المسجل أضغط على الزر فينطلق أبو عبد الملك:

سنخوض معاركنا معهم ... وسنمضي جموعًا نردعهم

ونعيد الحق المغتصب ... وبكل القوة نردعهم

بسلاح الحق البتار ... سنحرر أرض الأحرار

ونعيد الطهر إلى القدس ... من بعد الذلة والعار

أردد الكلمات كرصاصات أفرغها بكل حماسة:

مزِّقيهم يا كتائب الأحرار ... وارفضى العيش فى ثياب العار

ارفضى العيش فى ثياب الدخيل ... ليس يحمى الديار مثل النار

تهدأ حماستي قليلاً وأتوجَّه صوب المكتبة لأعب مرة ثالثة، فأجد أبا الحسن الندوي في انتظاري هذه المرة بمؤلفه العمدة: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»

كانت وجبة الندوي دسمة إلى الحد الذي يجعلني لا أتم في بعض الأيام عشر صفحات من كتابه، كان جامعًا مانعًا مثاليًا لفتى يريد أن يفهم بعد كل هذه المدخلات التي تعتمل في رأسه منذ الصغر: من أنا تحديدًا؟ وما أمتي بالضبط؟ لماذا أنا على هذه الحياة؟ وكيف وصلت أمتي للريادة عبر محطات التاريخ؟ وكيف وصل الحال بأمتي إلى هذا الذي نحن فيه؟

حكى الرجل منذ بداية التاريخ، تحديدًا منذ عصور ما قبل البعثة، الجاهلية المطبقة على الأرض، العرب، والفرس، واليونان، والرومان، والهنود، والفراعنة، ثم أتى للبعثة النبوية التي قرأت عنها مرارًا في كتب الأطفال لكنها هنا جاءت بغير الوجه الذي عرفته، تحدث عن رؤية الإسلام للعالم والبشر التي جاء بها النبي (صلى الله عليه وسلم)، القضايا الكبرى، ربعي بن عامر.. ابتعاث الله لنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ألقى في روعِي معنى «المسلم الحق»، ثم أخذني في رحلة مشرقة براقة، عصر الخلافة الراشدة، ثم عصر الإمامة والحضارة الرائدة، قصص سمعت بها منفردة لكنها لم تنتظم لدي من قبل بهذا البهاءِ والتألق.

ثم وصلت الرواية الكبرى إلى الذِّروة (العقدة)، والأحداث تترى، الدولة العثمانية تهادى صرعى، كمال أتاتورك يتنحنح نعم إنه يعتلي المنصة، ها هو يعلنها، لقد أسقط الخلافة، أسقطها ابن الساقطة، هكذا سببته يومها بكل ما أوتيت من معجم سبابي المتواضع.. تنهدت ورحت كالمحموم أكمل القراءة، طاف بي الرجل مرة ثانية في العالم بدأ من أوروبا، غاص بي في أوحال نهضتها، تقف كملكة متوجة بالألماس والكهرمان وأقدامها متوحلة في الأوساخ والطين، عرج على القارة الجديدة، بحار دماء الهنود الحمر التي عامت عليها أمة بأسرها تدعى أمريكا.. الحرب العالمية التي أذاقت البشرية ما لم تَذُقْهُ في قرون متطاولة.. رقدة العرب والمسلمين التي لا يخشى منها صحو ولا يرجى منها عودٌ.

ختم الندوي شجونه بالحث على الأوبة وبيان طرقها الموصلة إليها، القرآن والسنة، العلم والفَهْم، التجديد والاجتهاد، التثقيف والتطوير، التسليح والتصنيع.. الأخذ بأسباب الحضارة وأدواتها، مِصر ودروها.. العالم العربي وريادته.. الأمة الإسلامية قاطبةً.. تنفد كلمات الكتاب وتترك خلفها سيلَ عَرِمٍ من المشاعر والأفكار المتلاطمة بين أضلعي، حتى تمنيت أن لم أكن قد اطلعت عليه، ولا عرفته.

دائمًا ما أقول إني دخلت عطلة «أولى إعدادى» صبيًّا، وخرجت منها كهلاً، محملاً بما تنوء به العصبة أولو القوة من الرجال، لم تحدث في حياتي طفرة أكبر من تلك التي حدثت لي بسبب هذه الكتب الثلاثة ولا سيما الأخير منها، كان بمنزلة إعلان رحلة من الغربة الأبدية في هذه الحياة، خرجت منه أصيح: زمِّلوني.. زمِّلوني، فإني قد أُلقي علي قولٌ ثقيلٌ.. كان عليَّ أن أحمل نفسي على مواصلة الحياة.. أن أئد جرحي بين أضلعي.. وأجمع دمعي بين أجفاني.. وأنتظر ما يقسمه الله لي من قدر في عودة هذه الأمة إلى بعض ما كان لها.. أردد كلمات أنشودة أثيرة:

غــرباء.. غــرباء.. غــرباء.. غرباء

غُـــرباء ولغير الله لا نحـنى الجـباه

غُـرباء وارتضيناها شـعارًا للحياة

إن تسـل عنا فإنا لا نبالى بالطغاة

نحن جندُ الله دومًا دربنا درب الأُباة

الحقبة السلفية

كان وجه أستاذي الملتحي كافيًا لإقناعي دون أي كلام أن اللحية زينة الرجال وشيمة الإسلاميين، تطول أو تقصر حَسَبَ الاتجاه فَقَطْ، وإنني مقتنع بها فطريًّا بلا أيّ جدل أو دخول في تفاصيل فقهية، لم أهتمَّ بالبحث فيها يومًا، فما أنبته الله في وجوهنا له حكمة أكبر من جزه كل صباح بشفرات الحلاقة!
أستاذي لم يستمرَّ معي طويلاً، على كبر تأثيره لم يستمرَّ معنا في المدينة سوى سنتين أو ثلاث وانتقل إلى حي المطرية حيث عائلته، وتعاقب على مجموعتنا بعده أكثر من شاب سلفي يقوم بالمهمة نفسها، ولكن لم يكن أحد منهم على قدر الكفاءة أو التأثير: فالذي تلاه مباشرة كان أكثر تسلفًا للدرجة التي كان يعارضني عندما أقوم بعمل رحلة لإحدى الحدائق العامة في مدينة نصر بدعوى أن بالحدائق اختلاطًا ولا يجوز الذّهابُ إلى أماكن تظهر فيها المعصية!

كنت أجادله طويلاً ولا أصل لشيء، وفي النهاية أمضي رأيي كأن لم أسمع منه، لم يكن هذا أفضل ما تركه لي أحمد سعد، أفضل ما تركه لي الرجل كان «مكتبة الأشرطة» في مسجدنا.

كان قد أسسها ضمن أنشطته وفعالياته التي قام بها في المسجد بالفترة التي قضاها بيننا، صندوق خشبي عريض بزجاج جرار من الأمام كعارضات المحال تتراص في واجهتها الأشرطة الإسلامية من كل نوع، وتعلق في إحدى زوايا المسجد.

كانت فكرة المكتبة الصوتية قد انتشرت ساعتها في المساجد انتشارًا سريعًا، ولم يمضِ عامٌ أو عامانِ إلا وفي كل مسجد كبير أو صغير مكتبة أشرطة.
رشحني الشيخ أحمد لإمام المسجد كي أخلفه في إدارة هذه المكتبة، وكنت لم أنتقل للمرحلة الإعدادية بعد، سعدت بهذه الثقة وتسلمت مفاتيحها بالفعل، وقمت على الفور بعمل جرد لكل محتوياتها، وحددت ما ينقصها من أشرطة وما في صندوقها من ميزانية كي أستكمل به ذلك النقص.
في الصف الأول كانت السلاسل: سلسلة «حلقات الدار الآخرة» الشهيرة للشيخ عمر عبد الكافي، وأخرى بالعنوان نفسه لطارق السويدان، وسلسلة «قصص الأنبياء» الشهيرة أيضًا لطارق السويدان، ثم ظهرت بعد ذلك سلاسل للداعية الجديد «عمرو خالد» وآخرين.
كان المُبرز بين جميع الدعاة هو الشيخ محمد حسان، كانت عناوين خطبه ودروسه براقة ومتنوعة، وأشهر شريطين له آنذاك أحدهما عن وفاة الحبيب (صلى الله عليه وسلم)، والآخر عن الخطر الأمريكي على العالم الإسلامي، وكان محمد حسين يعقوب يحتل المرتبة الثانية، وأغلب خطبه وعظية ورقائق، وكان من أشهرها: «إصلاح القلوب» و«لماذا لا تصلي؟» ولغته كانت أقرب للعوام في الدعوة.
أبو إسحاق الحويني، وجدي غنيم، وحيد عبد السلام بالي، محمد سعيد رسلان، الشنقيطي، الدويش، إسماعيل المقدم.. الكثير من الأسماء التي كانت لدي بالمكتبة والكثير من الأشرطة التي كنت أسمعها يوميًا بعد الشروق أو بعد العشاء قبل النوم، لم يكن محرما عليَّ في هذه الدوحة سوى شريط واحد، أوصاني أستاذي بألا أستمع إليه مطلقًا، كان اسمه «بحر الحب» للدويش على ما أتذكر، وكان حجته في ذلك أنه للمقبلين على الزواج أو المتزوجين بالفعل، ولم أكن من هؤلاء ولا أولئك، وأذعنت بالفعل لنصيحته ولم أفكر في الاقتراب منه، فقد كان يروي بعض ظمئي شريط

«أعظم نعيم أهل الجنة» لوحيد عبد السلام بالي، الذي يصف في جزء لا بأس به منه الحور العين بشكل مثير بالنسبة لي ولأصحابي في المسجد، الأمر الذي جعل مسؤول اعتكاف رمضاني يمنع من دخول الشريط إلى المُعتكَف لَمَّا رَأى إقبالنا على سماعه، وإعادة مقاطع الحور العين بالذات.

بعد عام ونصف كنت قد انتهيت من معظم السلاسل بالمكتبة، وأثَّرت فيَّ حلقات الدار الآخرة لعمر عبد الكافي أكثر مما سواها، وكنت أيضًا أدمنت شريط «إصلاح القلوب» بهزاته العنيفة، ونبرات حسين يعقوب القوية، أكرر سماعه بعد أن أُطْفِئَ الأنوارَ جميعها في البيت، ما زلت أتذكر كيف كان شعوري عندما يصيح: «فيضمك القبر ضمة تختلف فيها أضلعك»، ثم يهدأ فيقول: «أو يضمك ضمة أم حانية لم تَرَ ولدها منذُ أمدٍ».. ما زلت أتذكر أسئلته التي يليقها نيابة عن ملكين «صوتهما كالرعد القاصف.. بصرهما كالبرق الخاطف»: «من ربك؟.. ما دينك؟.. وماذا تقول في الرجل الذي بعث فيك؟».. ها ها.. ربي الكُرَة.. ها ها لا أدري.. ديني التلفاز.. ها ها لا أدري»..

كانت القُشَعْرِيرَةُ تنتابُ جسدي وَأُهْرَعُ إلى من يهدهده بكلماته الشجية:

ليس الغريب غريب الشام واليمن ... إن الغريب غـــــريب اللحد والكفن

إن الغريب له حـــــق لغـــــربته ... على المقيمين في الأوطان والسكن

كان مشاري راشد قارئ القرآن الجديد لم يفت على ذياع صيته عام أو اثنان حتى أصدر ألبومه الإنشادي الأول فيما أظن «ليس الغريب»، وكان وجه الشريط الأول عبارة عن تلك القصيدة الشهيرة الطويلة في ذكر حال الميت وتفاصيل موته من أول النزع وإلى مواراته بالثرى، وسؤاله، ثم تكون حفرة النار أو روضة الجنة، وبعدها صدرت شرائط مشابهة تتناول التوبة، والموت، والحساب، وكأن أشهرها «فرشي التراب» لمشاري العرادة، وسلسلة «يا رجائي».

كانت الكلمات تقف في الحلوق، والأحرف تتشح بالسواد غمًّا بما يكسب الإنسان من آثام:

فرشى التراب يضمنى وهو غطائى   حولى التراب يلفنى بل من ورائى

واللحد يحكى غربة فيها ابتلائى   والنور خط كتابه أنسى لقائى

لم تكن النزعة السلفية وقف على الأشرطة، بل كانت تمثل لي حالة متكاملة أكثر عندما أذهب لخطبة الجمعة في أحد المساجد السلفية. فوالدي كان يصحبني كثيرًا إلى خطب ودروس الشيخ نشأت أحمد، وكان رجلاً وَرِعًا تقيًّا بكَّاءً، لا يكاد يُبين إذا بكى في خطبة أو صلاة، يُبكي الجميع بلا استثناء، وكان أبي يخبرني أنه ليس كبقية الشيوخ الذين يخشون الحديث عن الحاكم أو ينأى بنفسه عن السياسة، بل يتحدث في هذا أيضًا ولا يخشى في الله لومة لائم، أتذكر أنني صليت خلفه القيام وعمري سبع سنوات ربما وقفت طويلاً طويلاً، واستحييت أن أجلس وكلٌّ واقفون، أو أن أخرج من الصلاة، ولما انتهت الليلة سألت والدي عن عدد الأجزاء التي صلينا بها فأخبرني أنها ثلاثة أجزاء، وأخبرني أيضًا أن الشيخ أسامة عبد العظيم يصلي بأكثر من هذا كل ليلة!

كنت ألبس القميص الأبيض، ولا أقول عنه: جلبابًا؛ لأن الجلباب لغةً للنساء، ويسمى للرجال قميصًا، وكنت أربط العمامة التبليغية (نسبة إلى جماعة التبليغ والدعوة) وعلى الرغم من ذلك لم تكن تعجب بعض السلفيين، فواحد منهم استوقفني مرة بعد إحدى الصلوات وقال لي: لماذا تلبس هذه العمامة؟

باستغراب: لأنني أود التشبه بالنبي (صلى الله عليه وسلم).

بحدة: ومن قال لك إن هذه هيئة عمامة النبي (صلى الله عليه وسلم)؟

صَمَتُّ هنيهةً: لا أفهم.

هذه (يا أخي الكريم) ليست عمامة النبي، عمامة النبي كانت دائرية، أما هذه العمامة المثلثة لم يكن يعتمُّها، وهي بدعة مأخوذة من السيخ الهنود، أخذها عنهم أتباع جماعة التبليغ والدعوة؛ لأن نشأتهم أصلاً من هناك!

ابتلعت حسرتي ومضيت دون أن أنبس ببنت شفة.

بعد ذلك اكتشفت أنه من أتباع الشيخ أسامة القوصي، ضحكت ساعتها ملء أشداقي، إذ كان القوصي لا يترك أحدًا على الساحة كبر أو صغر إلا سفهه وسبه أو كفره، فلم أنج أنا من أتباعه! ولم يكن هذا أكثر ما يسوؤني في الرجل، فقد كان أكثر ما يسوؤني أن الإخوة ينصحونني إذا حدث لي اعتقال في المستقبل أن أقول للضابط: شيخي أسامة القوصي وأنا أواظب على دروسه، حتى يفرج عني فورًا!

أكثر ما كان يجذبني في الحالة السلفية هو الاهتمام بالتفاصيل، وأكثر ما كان يثير حنقي هو تبديع وتجهيل من يخالف هذه التفاصيل الدقيقة. فالعطر والسواك ورفع اليدين في التكبير بعد التشهد وصفة الجلوس للتشهد الأول التي تختلف عن صفة الجلوس في التشهد الثاني التي تنصب فيها اليمنى وتثني اليسرى، وعشرات التفاصيل الأخرى، التي تشعرك وأنت تؤدي العبادة وغيرها أن الشرع قد رسم لك كل حركة وسكنة فيها، وكلما اقتربت من الصورة أكثر ازدادت حسناتك.

صديق كان يحكي لي أن شابًا سلفيًا من الصعيد بعدما فرغ من الصلاة مد له أحد المصلين يده ليصافحه، فرد عليه الشاب دون أن يبسط يده: لم ترد عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، فرد عليه الرجل الفلاح في بساطة: وهي كسفة إيد عمك الحاج هي اللي وردت!

كان هذا هو النموذج الذي لم أكن أطيقه في المتشدقين منهم بالسلفية، فالإنكار على الأفعال والأقوال يصل حدودًا مبالغًا فيها، والتهمة الأكثر

شيوعًا كانت: دعك من هذا، أو دعك من هؤلاء إن لديهم أخطاءً في العقيدة!

فلم يكن يهم السلفيين قول: «جزاكم الله خيرًا» بقدر ما يهمهم قول «بالله عليك»، وترك الحلف بغير الله.. وإن ضبطت مرة وأنت تحلف أحدهم قائلاً: «والنبي».. يتوقف الحديث تمامًا حتى تنطق الشهادتين أولاً، لا يكمل معك الحديث حتى تنطقهما، فمن حلف بغير الله فقد «أشرك»، وإن ضبطت وأن تشرب واقفا تجده ينصحك بأن النبى كان يشرب جالسا على ثلاث، ولا يمكن أن تذكر أمامه شخصًا اسمه "عبد النبي" حتى يصحح لك اسمه «عبد رب النبي» أو حتى تنادي على ابنك «عبد الله» باللهجة العامية، فيحاول إقناعك أنها قد تشبه في النطق «عبدّ ظل» ومن ثَمَّ فلتنطقها بالفصحى، وإياك أن تقول عنه إنه «شقي»، استخدم لفظًا آخر حتى لا يكون شقيًا في مقابل «سعيد» يوم القيامة.

كانت المساجد السلفية في هذه الحِقْبَةِ تتمتع بعصرها الذهبي، وكان أشهرها على الإطلاق مسجد العزيز بالله في حلمية الزيتون، ومسجد التوحيد برمسيس وإمامه الشهير الشيخ فوزي السعيد، لكن الأخير سمعنا في يوم من الأيام أنه قد أغلق، وأوقف الشيخ فوزى، جاء المصلون من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ ككل جمعة فلم يجدوا الشيخ، فانصرفوا راشدين.

لم أكن أظن أن السلفيين خطيرون كالإخوان حتى تغلق لهم المساجد فقررت أن أذهب ذات جمعة إلى العزيز بالله، علمت بعدها بأيام أن هناك خطبةً مرتقبةً للشيخ أبى إسحاق الحوينى، وأعرف مدى عشق الشعب السلفي لهذا الرجل، على الرغم من أن أشرطته لم تكن مفضلة بالنسبة لي، نصفها ذكر أسانيد الحديث وسلسلة رجاله ورواياته المختلفة، وفي النهاية من الممكن أن يكون ضعيفًا ويذكره فَقَطْ ليحذر الناس منه!

اعتممت عمامتي وقميصي الأبيض وخرجت قبل الصلاة بثلاث ساعات كاملة، وصلت قبل الأذان بساعتين فلم أجد موضع قدم بالمسجد، ولو تأخرت نصف ساعة أخرى لما وجدت موضع قدم بالشارع الذي أمامه، جلست على الحصر المفروشة على الأرض وسألت من بجواري: أين يذهب من يأتي متأخرًا عن هذا، أشار إلى الجسر الذي يبعد عنا بمسافة ليست قليلة؛ فالكوبري يغلق ويفرش كله للصلاة.. يومها صليت لأول مرة على ظهر الصف الذي كان أمامي فقد كانت الصفوف متقاربة جدًّا، بل تستطيع أن تقول متلامسة ولا مكان لساجد تلمس جبهته الأرض.

كانت الأرض رقعة من بياض، الكل مطلق للحي ولو كانت غير منتظمة الإنبات، مقصر للثياب، معطر للملابس بالمسك، ومزين للرأس بالعمائم والطواقي، أحيانًا أتمنى ألا تفارق عيني تلك الوجوه، ترى في الكثير منها أثر الخشوع والتقوى والبشاشة والنور، وينغص عيشك ويكدر صفوك أيضًا وجوه أخرى مقطبة تقطيبة تذمرٍ وتعسف لا تقطيبة شجن وهم.. دائمًا ما كنت أعُدُّ الشابَّ السلفيَّ دعوةً تمشي على الأرض بلا كلام، فهو يرفع لافتة دائمًا تقول: أنا «ملتزم»، ودائمًا كنت مؤمنًا أنه أبعد عن المعاصي وأعصم منها، فالناس تنظر له نظرة الشيخ، وإذا لم تردعه التقوى ردعته نظرة الناس له إذا فكر في وطء مواطن المعاصي والشهوات.

لكنني من جانب آخر كنت حانقًا منهم، ساخطًا عليهم، كيف لهذه الجموع والحشود، هذه الآلاف المؤلفة التي ذهبت الجمعة الماضية لمسجد التوحيد وعلمت أن شيخها قد اعتقل، كيف سمحت لنفسها أن ترجع لبيتها وتبحث من جمعتها المقبلة على مسجد آخر وخطيب آخر لم تطله يد الأمن بعد؟!

كيف لم يفكر أحد فيهم بالبقاء في المسجد والاعتكاف فيه والاحتشاد حوله وقطع طريق رمسيس حتى يتم الإفراج عن الشيخ؟!

لم أكن ساعتها أعرف حتى كلمة «اعتصام» ولم يكن أحد في مِصر يعرفها بشكل عملي على الأقل، ولكن تلك الحادثة أثرت فيَّ بشكل كبير، وجعلتني أترك مساحة دائمة بيني وبين السلفيين كما الإخوان بالضبط وربما أكبر منها بكثير، ففساد عقولهم ومنهجهم، وتنظيرهم الراضخ للظلم (إلا القليل منهم) لا يغني عن صلاح مظهرهم وَتَنَيُّمِي به!

وعلى كل حال لم تكن السلفية الحقة في سماع الأشرطة أو الذَّهاب للجامع واقتناء قنينات المسك، ولكنها كانت في المقام الأول تعني «طلب العلم»، تعني أن تشد الرحال إلى أبي إسحاق الحويني في كفر الشيخ حتى تجلس وتتلمذ على يديه، ولم تكن الفكرة عني ببعيدة فقد اصطحبني والدي معه بالفعل إلى درس «العقيدة» للشيخ محمود عبد الرازق، وكان درسًا ماتعًا بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، كان الرجل أسلوبه سهل وشائق يشرح ألف باء العقيدة عند السلفية التي لا يكلون من تكرارها، والبدء بها عند دعوة أي أحد «توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات».. كنت قد أخذت نبذة عنها منذ ثلاث أو أربع سنوات عندما كنت أحفظ القرآن على يد الأستاذة نشوى، كانت منتقبة تحفظنا القرآن في مُصَلَّى السيدات بالمسجد.

توسع الشرح بالطبع كثيرًا، وتعلمت أساسيات لا بأس بها، وركزت في درس أنواع الكفر وأنواع الشرك، ولا أذكر أن الرجل كان متوسعًا في التكفير ولا مضيقًا إياه، بل فهمت منه الفرق بين كفر العناد والاستكبار؛ وهو الأشد ككفر إبليس، وبين كفر الجهل بالله ككفار الجاهلية، وبين الشرك الظاهر الذي لا يغتفر إلا بالتوبة قبل الغرغرة وبين الشرك الخفي الذي لا يخرج من الملة، بل إنه ليسري في المرء منا كدبيب النمل.

وبعد عامين وقبل أن أدخل للمرحلة الثانوية حَصَلْتُ على دورة في المصطلح (علم الحديث) على يد أزهري سلفي كان اسمه محمد أحمد المهدي على ما

أتذكر، عرفت كيف وصلنا الحديث، وما المتن، وما السند، وما درجات الحديث، وما يترتب عليها من عمل؟

أيضًا كنت وصلت ساعتها في الحفظ إلى ما يقارب ثلثي القرآن، ووصل معدلي في المراجعة درجة عالية إلى أن استطعت أن أراجع في أسبوعين فَقَطْ خمسة عشر جزءًا بمعدل جزء كل يوم أسمعه كاملاً، ولم يكن هذا بغريب على الأوساط السلفية، وكانت دور تحفيظ القرآن تلك الفكرة الجديدة ساعتها قد بدأت في الانتعاش، وكانت كلها سلفية بامتياز، الفترة الصباحية كلها منتقبات وأطفال، والفترة المسائية إخوة شباب ورجال، كنت أحفظ في إحداها بالقرب من بيتي، ولما أحببت أن أتعلم متنًا في التجويد الذي كنت أتقنته إلى درجة كبيرة على المستوى العملي ذهبت إلى دار أبعد حتى أتلقى فيها متن «تحفة الأطفال»، حيث أخذت أردد في المحاضرة الأولى مع زملائي:

للنون إن تسكن وللتنوين أربع أحكام فخذ تبييني

فالأول الإظهار قبل أحرف للحلق ست رتبت فلتعرفِ

همز فهاء ثم عين حاء مهملتان ثم غين خاء

كل هذا كان مجرد مداخل للعلم الشرعي لم أستكملها، ربما لعدم اقتناعي بأن هدفي لن يتحقق بأن أصبح عالمًا، ربما لأن أحدًا ممن يدرسون أو يخطبون لم يكن أبدًا نموذجًا أو مُلهمًا لي في يوم من الأيام، ربما لأن طبيعتي حركية أكثر منها أي شيء آخر.. لا أدري!

وإن كان طلب العلم الشرعي هو قمة التسلف على مستوى المضمون، فإن تقصير الثياب عند الرجال، والنقاب عند النساء كان قمته على مستوى الشكل؛ فاللحية قد يشترك فيها غيرهم من الإخوان مثلاً مع التقصير، وقد لا تظهر على الأمرد منهم كما كان الحال في سِنِّي تلك، والخمار قطعًا يشترك

فيه غيرهم من الإخوان ومن أهل الأقاليم العادِيِّينَ. فالاختبار الحقيقيُّ إذن لاقتناعك التام بالمنهج السلفي كان في هذين الأمرين.

أما أنا فلم أستسغ النقابَ يومًا، ولم أتخيله سمتًا عامًّا للمرأة المسلمة بالأخص قبل الزواج، وكنت أقف عند القول بأنه: فضيلة، لا أرغب فيه، ولا أرغب عنه إلا في دوائري القريبة جدًّا، وكنت أعُدُّهُ رد فعل على السفور والعري في المجتمع.

وأما تقصير الثوب فقد راودتني نفسي عنه مرات، فالأحاديث فيه واضحة «ما تحت الكعبين فهو في النار»، إلا أن معناه وجوهره غير واضح، وكلما فكرت في الأمر تذكرت قصة حكاها لي خالي (رحمه الله) منذ سنوات، كان يقول: يدخل أحد المِصريين الحرم بجلباب لا يتعدى ثمنه عَشَرَةَ ريالاتٍ لكنه يغطي حتى أسفل كعبيه، ويدخل رجل سعودي عليه جلباب «الدفة» بِمِئَةِ ريال أو يزيد ويمشي بطرًا في الحرم حتى إذا شاهد ذلك المِصري نهره: ما يصير ارفع ثوبك ارفع!

ثم يدخل مباشرة إلى ذهني قول النبي لأبي بكر: «لست منهم يا أبا بكر» عندما ظن أن ثوبه الطويل قد يدخله النار أيضًا.

لم أكن أود التقصير عقلاً لأن المجتمع كله مسبل فلا وجه لأي كبر أو سمعة بل التقصير هنا قد يكون فيه الرياء؛ لأنه سمت التزام ظاهر وواضح، وفي نفس الوقت كنت أود التقصير من باب أن «يذهب المجتمع إلى الجحيم»، ويجب أن نتحدى الناس بإسلامنا ولا نعبأ بعاداتهم وتقاليدهم التي تخالفه.. ولكن العقل غلب فلم أقصر إلا أيامًا معدوداتٍ في حياتي أتذكرها جيدًا، ومِنْ ثَمَّ سقطت في اختبار التسلف وأكملت حياتي على تلك المسافة التي تباعدت وتطاولت فيما بعد!

التبليغ والدعوة

في إحدى الصلواتِ بالزاوية الصغيرة بجوار بيتنا القديم في الزقازيق وجدت وجوهًا غير مألوفة لي تصلي معنا، لحاهم طويلة ووجوههم موسومة بعلامة الصلاة، ورؤوسهم مكللة بعمائمَ بيضاءَ ذات ذؤابات مختلفة الأحجام والأطوال. وقف أحدهم وقد بدا من هيئته ويديه اللتين ما زال عليهما أثر الدهان أنه نقاش، كان يتكلم بشكل بسيط عن الصلاة وعن التوبة يذكر آياتٍ وأحاديثَ ثم يَحُثُّ الناس على الخروج من المسجد لدعوة إخوانهم ممن لا يصلون معنا.

عرفت بعد سنوات عندما قابلت وجوهًا مختلفة بنفس السمت في مسجدنا بالقاهرة أنهم يسمون «التبليغ والدعوة» جماعة تأخذ على عاتقها الدعوةَ إلى الله بالتَّطوافِ في المساجدِ وغِشْيَانِ الناسِ في البيوت والأسواق، لا تعرف أميرهم من خادمهم، كلهم يقفون بعد الصلاة ويبدؤون بديباجتهم المعتادة: «نعلم جميعًا أنَّ فلاحنا ونجاحنا في الدنيا وفي الآخرة هو فَقَطْ في امتثال أوامر الله وأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أجل هذا المقصد نصبر أنفسنا مع إخواننا بعد الصلاة، نسمع إلى كتاب الله وإلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي الأغلب يقرؤون في هذا الدرس من كتاب «رياض الصالحين»، مصنف الإمام النووي الشهير، وفي نهاية الدرس يحثون الحاضرين على الخروج في سبيل الله، والخروج يبدأ من ثلاثة أيام وحتى أربعين يومًا، يفدون على أحد

المساجد في مكان ما، القادرون منهم والمقدمون في الدعوة قد يخرجون إلى الهند أو أمريكا أو مجاهل إفريقيا، فضلاً عن كل قرى ومدن مِصر.
كنت أراقبهم إذ كان خروجهم من مسجدنا، يتبسطون للناس، وينثرون بينهم البشر، لَيِّنُو الأعطاف، لا يَلْغُونَ في السياسة والأمور العامة، ولا يتحدثون عن القدس أو فِلَسْطِين أو الحاكمية، فَقَطْ يتحدثون عن الطاعات والشعائر وأعمال القلوب، وعن عشرات القصص التي عاشوها في بقاع الأرض شتى، وآلاف الناس الذين اهتدوا إلى دين الله على أيديهم في أوروبا أو أستراليا، والآلاف الأخرى التي رجعت إلى دينها وتابت من المعاصي والذنوب من مسلمي القارة السمراء أو الباكستان.
حاولت أن أقلد عمائمهم وكنت أحب أن أتزيَّا بها، وعزمت أن أجرب الخروج معهم ذات يوم لكن لم يقدر الله لي، وكنت على قدر حبي لسمتهم ودعوتهم أتعجب من قصور تصوراتهم عن كل مجالات الحياة ما عدا الخروج في سبيل الله بهذه الهيئة!

شيخ المدرسة

دخلت عامي الدراسي الجديد بكفٍّ أحمل فيها ما قرأته عن الإخوان وعن تاريخ الأمة الحاضرة وواقعها السياسي، وكفٍّ آخر أحمل فيها ما سمعته من خطب مشايخ السلفية عن البعث والحساب والجنة والنار والخلْوَةِ والاختلاط، ولم يكن في كل من أعرف بالمدرسة ساعتها من أستطيع أن أبثه همومي بشأن الأمة أو أن أعظه في أمر دينه، فقد اكتشفت أن هناك مدارسَ بأكملها لأشباهي، مدارس خاصة بإدارة إخوانية.

ذات صباح دوَّى خبر في المدرسة قلب الجميع رأسًا على عقب، وخاصةً صَفَّنَا، فقد تُوُفِّيَ زميلٌ لنا في الفصل المجاور بسبب حقنة أعطيت له بجرعة أعلى، نُقل على الفور للمستشفى، لكنه قد فارق الحياة قبل أن يصلها، بكى الكثير من الطلاب، وقرر بعضهم إقامة صلاة الغائب على زميلنا في مسجد المدرسة، وجلس آخرون يقرؤون القرآن، دخل مدرس الحصة المقبلة، أعلن أنه لن يعطيَ لنا درسَ اليومِ، ونادى عَلَيَّ: اقرأ لنا ما تيسر من القرآن، يا أحمد.

اعتاد زملائي، بل اعتادت المدرسة بأسرها على أن القرآن يُسمع مني كل صباح، جلست في منتصف الفصل مكان الأستاذ، أطرقت في الأرض ودمعت عيناي، ثم انفجرت فيهم صائحًا: لن أقرأ لكم حرفًا آخرَ من القرآن.. أنتم أصلاً لا تعرفون معنى ما أقرأ، أنتم لا تعرفون حتى لِمَ أُنزِلَ هذا القرآن،

ولمن؟ إنه يخاطبكم، وأنتم لا يهمكم منه سوى صوت فلان الحسن الذي يدندن به!

حدَّق المدرس والطلاب في شخصي الهزيل بشدة.. لم ينطق أحدهم. تابعتُ: إن أردتم أن أقول شيئًا فيسعدني أن أقول لكم: ما الذي يحدث لزميلنا الآن، وما الذي سيحدث لنا إذا ما صرنا إلى ما صار إليه. فإن كان لكم اهتمام بالأمر أفدتكم، وإلا رجعت لمكاني.

هز الجميع رأسه في فضول وربما في ذهول. أومأ المدرس برأسه أيضًا فضولاً. فانطلقت أقول:

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعدُ: فنبدأ حَلَقَاتِ الدارِ الآخِرَةِ. سنتحدث اليوم عن سكرات الموت!

انتهت الحصة وتأثر الجميع. في اليوم التالي كانت لدينا حصة تربية دينية اقترح الطلاب على المُدرّسة أن أستكمل حلقات الدار الآخرة وأقنعوها. أخذت مجلسي الذي كنت فيه أمسِ وشرعت في الحديث:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سنتحدث اليوم عن عذاب القبر ونعيمه!

في حصة الدين الثانية بالأسبوع نفسه قررتِ المدرّسة أن تستكملَ سماعي فجلست مكانها أبدأ:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده.. حديثنا اليوم عن علامات الساعة الصغرى والكبرى إن شاء الله.

استمرت حلقات الدار الآخرة بعددها في سلسلة عمر عبد الكافي، ثلاث وثلاثون حلقة. أخذتْ معظم السنة. وفي آخر حصتين قبل الدراسة كنت أقوم أيضًا بشرح منهج التربية الدينية كله بدلاً من المدرّسة وتعويضًا للطلبة. وكانت الأمور في الامتحانات تسير على ما يرام، ولم تكن هناك من

أزمة سوى بعض الزملاء في الفصول الأخرى الذين يحبون حضور تلك الدروس.

لم تكن المدرسة تسمح بتوسيع مدى الأثر في الفصول كلها، مقام الإذاعة المدرسية لا يتسع لهذا، وما من سبيل آخر، كل ما أتذكر أنني فعلت ساعتها لأترك بصمة في كل فصل بالمدرسة تلك الورقة التي رسمتها وذهبت لمكتب «كمبيوتر» حتى يصممها، كان مجرد جدول حصص على برنامج «وورد» وتحته مكتوب أدعية قبل المذاكرة وبعد المذاكرة وحين الامتحان، وبحكم كوني رئيس اتحاد الطلبة فقد علقته باسم الاتحاد في كل الفصول حتى يكون أمام الطلاب في كل مرة ينظرون فيها لجدول الحصص اليومي.

المرحلة الثانية من القراءات

عندما أتت عطلة الصف الثاني الإعدادي كنت أستعد لجولة قراءات ثانية في مكتبة أبي، وتأثرًا بالحالة السلفية قررت أن أقرأ في الفقه والتفسير، أحضرت فقه السنة وأحضرت الظلال، وبدأت أقرأ والجميع ينظر لي في البيت بعين نصفها دهشة ونصفها إعجاب من المجلدات التي أقدمت عليها، انجذبت أكثر لفقه السنة وواظبت على قراءته يوميًا حتى أنهيت جزأه الأول، وتذكرت أني حضرت مرة درسًا للشيخ سيد سابق (مؤلف الكتاب) في مسجد «كابول» بمدينة نصر، وكان العدد الذي أمامه قليلاً جدًّا.

قرأت بشكل متقطع في الظلال، ولم يكن سيد قُطب جديدًا عليَّ بالكلية فقد قرأت كلماته من قبل في مقدمة: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، وفهمت فكرته المحورية التي تدور عليها كتاباته «لا إله إلا الله.. مركزية التوحيد.. الجيل القرآني.. جاهلية المجتمع.. إلخ»، ولم يلتبس على أمر الجاهلية أبدًا منذ أن قرأتها أول مرة، فلم أفهم منها أي تكفير، وإن كنت رزئت بالكثير من السلفيين الذين أخذوا يحذرونني من أخطاء سيد قُطب العقدية، سألت أحدهم: أين هي تحديدًا؟ قال: في قصار السور. قلت: ما زال أمامي سنوات حتى أصل في الظلال لقصار السور.. إن كان لي عمر.

عندما بدأت الدراسة مرة أخرى في الصف الثالث الإعدادي وجدت زملائي ومدرسة التربية الدينية الجديدة ينصبونني مدرسًا في كل حصص التربية

الدينية من أول يوم، فأخذت أشرح لهم فقه السنة: حيث كان مقررًا علينا في الفصل نفسه بعض أحكام الطهارة والوضوء.

وبينما كنت أشرح أحكام الجنابة إذا بزميل يسأل بشكل غير لائق: طيب إذا كان المني خرج من الإنسان عمدًا أثناء اليقظة، أجبت بكل ثقة: لا توجد حالة بهذا الوصف، البالغ منا يخرج منه المني احتلامًا، أو عندما يتزوج، أو يزني والعياذ بالله.

اكتشفت بعد ذلك أن كلمة «الاستمناء» التي قرأتها في هذا الباب ولم أفهمها أو أبحث عن معناها تعني ما كان يسأل عنه زميلي، تأزمت لأنني لم أكن على علم بذلك، ولم أجبه أن هذا الفعل محرم ابتداء، وبدأت منذ تلك اللحظة أسئلة كبرى متعلقة بالبلوغ والمراهقة والزواج تصدع رأسي وتؤرق نفسي، باب جديد فُتح عليَّ يجب أن أعثر له على تصورات إسلامية شافية كالتي حصلت عليها في كل حياتي السابقة.

«بلوغ بلا خجل»، «مراهقة بلا أزمة» كتابان اشتريتهما من المعرض لأكرم رضا الذي بدا لي من صورته وطريقة عرضه إخوانيًّا بامتياز، لكنهما لم يغنياني غنىً كافيًا، فقررت أن أقرأ مجلدين عن «تربية الأولاد في الإسلام»، كانا يتحدثان عن كل شيء من الألف إلى الياء؛ من وقت التفكير في الخِطْبَةِ إلى الزواج إلى الإنجاب، إلى مراعاة الصغار إلى أن يكبروا ويبلغوا إلى أن يتزوجوا، وتدور الحياة مرة أخرى.

أحسست ساعتها كم كنت أحتاج إلى رعاية أكثر من هذا، الكتاب كان موجهاً بالأساس إلى الآباء وأحدث عندي صدمة كبيرة عندما قرأته أنا، فكأنما طالب يقرأ دليل المعلم ويكتشف ماذا على المعلم قوله له في الحصة الدراسية، وكيف أجاد في هذه أو قصر في الأخرى!

المراهقة والتلفزيون

فتاة سمراء بنظارة دائرية سوداء، وشاب قميصه الملون مفتوح وهو يغني وحوله استعراضيون «سمرا وبعيون كحيلة»، كانت هذه الأغنية لعلي الحجار، أول ما علق بذهني من التلفزيون الذي كنت أشاهده خلسةً في بيت عمي الذي سكن بجوارنا قبل عام واحد من مغادرة أسرتنا للزقازيق.

كانت «شرفة بيتنا» هي نافذتي على الحياة هناك، مع كل صباح أقف فيها ممسكًا بسورها المبلل بالندى، أسمع تسبيح الطير على الأغصان، وصياح الديكة فوق أسطح الجيران، وصلصلة الأجراس المعلقة في الخيول التي تجر عربات الخضراوات والفاكهة إلى السوق القريبة منا، وتهَادي عربات القطارات على السكة الحديد الممتدة خلف الطريق مباشرة تحمل البشر والبضائع أحيانًا، أبواق السيارات العتيقة وأجراس الدراجات التي تقطع الطرقات كماراثون صباحي يتجدد عرضه يوميًّا، السيدات اللواتي يحملن «الكرنب» فوق رؤوسهن آيبات من السوق، والأخريات اللاتي يغسلن الثياب والمواعين على حَافَةِ «التُّرْعَةِ»، البط الذي يبدأ جولته ذَهَابًا وإيابًا مع أول شعاع نور، وفرن الكنافة الذي يُبنى في أول ليلة من رمضان من كل عام أسفل شجرة الكافور العظيمة الرابضة أمام البيت.

في القاهرة كانت الشرفة مملة للغاية، سيارة تمر كل ساعة ربما، وشخص مسرع بحقيبة سوداء أو سيدة يضرب كعب حذائها في الشارع كلاهما متوجه إلى العمل، وحافلات تقل الضباط كل صباح إلى وحدات عملهم،

قرر والدي أن يشتريَ لنا تلفزيونًا على شرط أن نشاهد عليه برامج الأطفال والنشرات الإخبارية فَقَطْ، وأن نبتعد عن المسلسلات والأفلام التي تغضب الله تعالى.

كان أول مشهد فتح عليه التلفاز بعد أن ركبنا وصلاته هو أوبريت «الليلة الكبيرة»، شاهدناه بالكامل ساعتها؛ لأنه كان يحسب على شريحة «برامج الأطفال»، ثم أغلقنا التلفاز ننتظر من اليوم التالي برامج الأطفال التي تبدأ من العاشرة صباحًا وحتى الواحدة ظهرًا، ولم يكن الاستيقاظ في العاشرة صباحًا لمتابعة «عالم الكرتون» الذي يبدأ في هذا التوقيت على القناة الثالثة ببعيد عن استيقاظي كل صباح في الموعد نفسه لسماع أبلة «فضيلة» في الراديو تحكي حكاية لا تتجاوز خمس دقائق في يوم من الأيام.

مع مرور الأيام لم تستمرَّ علاقتي البريئة مع ذلك الجهاز، بل أخذت أتطلع إلى مشاهدة ما يدور خارج توقيت برامج الأطفال والنشرات، ساعتها اكتشفت عالمًا غريبًا عني بالكلية، كل الأغاني التي تبث لم أسمع بها من قبل، كل الأفلام التي تعرض لا أرى فيها شخصًا يصلي؛ اللهم إلا إن كان شيخًا أو ضريرًا، ولا أرى فيها فتاة تغطي رأسها إلا لو كانت قروية، وفي هذه الحالة فإن رجليها حتى الركبة مكشوفتان.

كان المسموح به خارج أوقات المشاهدة الرسمية مسلسل «يوميات ونيس» وبرنامج «العلم والإيمان»، وعلى الرغم من ذلك فإن مجرد التنقل بين القنوات قد يبعث بسهم رائش يضرب به في مشاعري؛ فيجرحها جُرْحًا غائرًا، تلك القبلات والهمسات التي تشوه الحب والشهوة معًا، تجعل من الرغبة الوليدة في قلبي والتي تبشر ببزوغها في جسدي كائنًا معاقًا إذا وُلِد!

مشاهد الأفلام السبعينية كانت كارثية بالنسبة لفتًى إسلاميّ، أما مشاهد الأفلام القديمة غير الملونة فبالرغم من أن دراميتها لم تكن بالقدر نفسه من الوقاحة إلا أنَّ البارَ الذي لا يخلو منه بيت، والحفلات التي لا تخلو منها

راقصة واثنتان وعشرة؛ مساحة ما يغطين من جسدهن لا تتجاوز خمسة بالمِائَةِ -كانت كافية لإحداث قدر كبير من الصدمة.

وحتى الأفلام المسموح بها في يوم السادس من أكتوبر من كل عام لم تكن تَخلو من قصةِ حُبٍّ تجعلُ قلبي يقفز من بين أضلعي عندما أتابع فصولها، ولو كانت بين محمد (الجندي المِصري) وفاطمة (الفتاة الجامعية) في فيلم «الرصاصة لا تزال في جيبي»، أو «إنجي» الفتاة الأرستقراطية و«علي» الضابط الصغير بالجيش في فيلم «رد قلبي» الذي قد يسمح به في يوم ٢٣ يوليو.

كل هذا جعلني أشعر أن التلفاز من أجود «المواد» الموصلة إلى النار، وأفضل العناصر المشتعلة والتي تساعد على الاحتراق فيها، فلم يكن يذلني في هذه الحياة ويكسر قوة نفسي غيره!

في يوم أخبرنا والدي أنه سيسمح لنا اليوم بمشاهدة فيلم «كوميدي» سيعرض لأول مرة على القناة الأولى واسمه: «صعيدي في الجامعة الأمريكية»، كان أحد أصدقائي قد شاهده بالسينما من قبل، وأعرف بالفعل قصته، لكنني ساعتها لم أنتبه إلا وأنا أعارض بشدة وأصيح: لا لن نشاهد هذا الفيلم أبدًا!

كان تصرفي مستهجنًا من الجميع، فهم يعرفون جيدًا أنني أختلس وأتحيل لمشاهدة الأفلام، لكنهم لم يعلموا أنني أَعُدُّ ذلك معصية، الجهر بها مُهلك، واستمراؤها وسط الجميع أول خطوات الاستسهال في هذه الأمور، لم أفهم نفسي يومها إلا بعد سنوات عندما تذكرت الموقف، لقد فعلت كل العجائب كي لا نشاهد هذا الفيلم لأول مرة كعائلة ودعوت الله في صلاة العشاء أن تنقطع الكهرباء أو يعطب الجهاز لكنَّ أيًّا من هذه الأشياء لم يحدث، وشاهدنا الفيلم بالفعل.

كان خوفي شديدًا من أن تتحول هذه المعاصي الظاهرة في حياتي مستقبلاً إلى مباحات، فمجرد رؤية فتاة غير محجبة، ولو شعرها فَقَطْ، أو الاستماع إلى الأغاني، أو التساهل في الاختلاط والتعامل مع الفتيات.

علمت ساعتها أن الوقت حان كي أكون بين جماعة وصحبة تعصمني، فمهما قرأت أو عَرَفْتُ أو استمعت لن يجديَ ذلك أمام هذه الآلات العاتية. أيقنت بذلك على وجه الخصوص عندما قرأت «بروتوكولات حكماء صهيون»، وبغض النظر عن صحة الكتاب ونسبته، فإن الفصل الذي قرأته عن الإعلام واهتمام الحركة الصهيونية به، وتوقعاتها بصدد تأثيره على شباب المسلمين -جعلني أبحث عن متراس غليظ أغلق به ذلك الباب.

التجربة الإخوانية الأولى

لاحظته لأول مرة يصلي معنا بالمسجد، شاب طويل القامة من غير نحول، ثابت الخطوات قوي النظراتِ يتفرس الوجوه كَرَمَّاحٍ ينتقي من كِنَانَةٍ أجودَ عودٍ يضرب به، لم أَشُكَّ في لحظةٍ أنه من الإخوان، وتركت الأيام تثبت لي صحة ظني.

لم يمرَّ أسبوعٌ حتى وصل إليَّ أخيرًا وأخذ يتعرف إليَّ، بعد أن أتمَّ التعارف خرجنا معًا من المسجد حتى وصلنا للمنزل، أخذ يحاول (طوال الطريق) أن يعرفَ عن عائلتي ودراستي، كم أحفظ من القرآن وما معي من الأذكار، وكلما سأل اطمأن أكثر، وأحس أن مهمته أهون وصيده أثمن، حتى وصل إلى الموضع الذي يقول فيه: ما شاء الله، لا ينقصك إذن إلا أن تبدأ بقراءة بعض الكتب المهمة التي تجعل من المرء مسلمًا حقيقيًّا، وقاطعته: أول كتاب قرأته منذ عامين تقريبًا كان عنوانه: «حقيقة الخلاف بين جمال عبد الناصر والإخوان المسلمين»، نطقت الاسم وأخذت مقعدي من مشاهدة ارتسامات قسماته وانفعالات وجهه، اتسعت عيناه وسأل: قلت لي في أي صف أنت؟!

الثالث الإعدادي

وباندهاش سأل: وماذ قرأت أيضًا؟!

أخذت أعدد له وعندما انتهيتُ انحنى وضمني ضمةً طويلةً، ثم وعدني باللقاء كثيرًا وانصرف.

وما أن توارى عن ناظري حتى قفزت في الهواء متراقصًا: أجل، لقد فعلتها، سيوصلني هذا الرجل حتمًا بالجماعة، سأصحبهم وسأختبر الكلام الذي أخبرني به أبي، على الأقل سأستطيع أخيرًا أن أخرج للتنزه ولعب الكرة (التي لا أحبها) مع فتية إسلاميين مثلي: لا تنخدش أذني معهم بأقذع السباب والألفاظ طيلة المباراة، هذا الذي حُرِمْتُ منه منذُ أن تركنا الشيخ أحمد وتفرقت مجموعتنا.

مرت الأيام وعلاقتي بالأخ محمد أسامة تزداد وتتوثق عُرَاهَا يومًا بعد يوم، وجاء الوقت ليخبرني أننا سنذهب للعب الكرة مع شباب من سني إذا كنت أود ذلك، ضَربت موسيقى النصر بين أضلعي، الخطة كما هي تمامًا، وقد صرت بالنسبة له «دعوة فردية» أخيرًا، وافقت بكل براءة بالطبع، ذهبت يومها للاستئذان من أبي وجدته على علم بالأمر، فتأكد لدي أنه يحدث والدي أيضًا وقد تعرف إليه حتى يخبره إن كان لديه مشاكل تربوية معي فيحاول أن يحلها معي أو يناقشني فيها وهو الأمر الذي تكرر لاحقًا.

لعب كرة، ورحلات، ودروس فقهية خفيفة، وحديث يتطاول مع الأيام بيني وبينه عن الأمة، والخلافة، والجهاد، والأقصى، وأحيانًا يتطرق إلى وجوب الانتماء لمجموعة تعمل لدين الله، فالذئب يأكل من الغنم القاصية، كنت أبتسم، وأستزيد منه عن حكاياته التي لا أعرفها عن حماس وكتائب القسام فقد كان له اهتمام خاص بقصص المجاهدين في فِلَسْطِين.

في يوم صَحِبَني إلى أحد المساجد بمدينة نصر للسماع إلى درس وصلاة ركعتي قيام، كنا نمضي في شارع إضاءته خافتة قُبَالَةَ المسجد، لمح شخصين واقفين قُبيل المسجد فذهب وسلم عليهما وسلمت بالتبعية، مضينا خطواتٍ قبل أن يسألَني:

- هل تعرف الشخص الذي سلمنا عليه لِتَوِّنَا؟

- فقلت: لا لم أقابله من قبل.

-. إنه شخص أنت معجب به وبكتاباته جدًّا.

- تعجبت في صمت: كتاباته!

- إنه الدكتور خالد أبو شادي.

صُدِمْتُ من المُفَاجَأةِ.. خالد أبو شادي، صاحب الرقائق الفذة، والقلم الإيماني الرائق!

كان شابًّا ثلاثينيًّا، متورد الوجه حليقًا، يَلْبَسُ الجينز والكوتشي، لم أكن أتخيله هكذا طوال السنتين اللتين أدمنت فيهما سلسلة كتيباته «هبي يا ريح الإيمان» كانت سِهَامًا ماضيةً في القلبِ، وكتابات: «واشوقاه رسول الله»، و«أنا الفقير إليك»، و«الذنوب.. جراحات وآلام»، و«الزائر الأخير»، و«عندما يفرح الرب»، و«نعم بلا شكر»، و«أين الله؟».

كانت وجبة إيمانية شهرية تقريبًا، خلت أن كاتبها شيخٌ مجرّبٌ، تبلل الدموع لحيته الكثة عندما يكتب فيمتزجان، وتجري كلماته بحبره ودموعه معًا، لم أفهم ساعتها (وإلى الآن) لِمَ يصرُّ كل الإخوان على أن يكونوا حليقي الوجوه من غير ضرورة إلى ذلك، فالخوف من الأمن غير وارد في حالته، فمن لا يعرف «أبو شادي»، ومن لا يعرف قدره في الجماعة!

كان محمد خطيبًا لإحدى الزوايا القريبة من مدرستي الثانوية التي انتقلت إليها بعد مرحلة الإعدادية، وكنت أحضر له بعض الخطب عندما يصادف وجودي قرب المدرسة في أحد المراكز التي أتردد عليها في «الدروس الخصوصية»، وذات جمعة ذهبت للصلاة معه فإذا بالخطبة قد قصرها إلى عَشْرِ دقائق تقريبًا، وتعلل على المنبر بأن لديه صلاة جِنَازَةٍ لا يريد التأخر عنها.

صحبته بعد الصلاة وعزيته في فقيده ذاك، وتركته ومضيت، انتهيت من درسي وعدت إلى البيت، وفي طريق عودتي شاهدت على جَانِبَيِ الطريقِ

العشراتِ يسيرون زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا كأنهم يتفرقون من تجمع ما، دهشت للمشهد ولم أفهم ما الذي يحدث!

عندما رجعت للبيت أخبرني والدي أن مصطفى مشهور مرشد الجماعة قد تُوُفِّيَ اليوم وأنهم صَلَّوا عليه بعد الجمعة، وخرجت الجِنَازَةُ من مسجد رابعة العدوية في مَشْهَدٍ مَهِيبٍ، عَرَفْتُ ساعتها تفسير المشهد الذي رأيته ولو أنني حضرت الجِنَازَةَ لَشَهِدْتُ أضعافه.

كان اللقاء الأول بيني وبينه بعد هذه الواقعة عاصفًا، كنت قد فاتحته من قبل في أمر إخوانيته وحاولت أن أوصل له أنني مرحب بذلك وأعرف منذ فترة لكنه نفى بشكل قاطع!

- والآن.. هل ما زلت عند ادعائك بعدم صلتك بالإخوان؟

- لم أنفِ صلتي بالجماعة، لي فيهم أصدقاء كثر، لكني نفيت صلتي بالتنظيم، لست عضوًا، وعندما أصبح صدقني سأخبرك.

- سئمت من هذا.. وإذن لم أخفيت عني نبأ وفاة المرشد، لو لم تكن «عاملاً» لما أخبروك من قبلِ الخُطْبَةِ وربما عَرَفْتَ منذ أمسِ!

- لم أحْسَبْ أنَّ لك اهتمامًا بهذا.

- تعرف أن لي، وأعرف أنك إخوانيٌّ، وأنك منذ عَرَفْتَنِي من عام وأنت تَنْقُلُ أخباري في تقارير، تتصل بي كل يوم أو يومين لأن هذا هو المعدل الطبيعي لمن هو معك في دائرة الدعوة الفردية، نخرج أسبوعيًّا ونقابل فلانًا وعلانًا، وأعرف أن كلهم إخوة، وربما أُخبرك أيضًا أن بعد شهر أو شهرين من الآن سأنتقل لمسؤول آخر، ولن يكون لك عَلاقَة بي ساعتها.. نعم من حقك أن تفعل هذا مع شخص غير مؤهل لأن تخبره أنك من الجماعة وأنك تجنده فيها قبل عامين أو ثلاثة من معرفته، من حقك أن تسمع وتطيع الإخوة في أوامرهم لك بعدم إخباري بمعلومة مثل هذه قبل أن تستأذن، من حقك أنْ تُوَرِّيَ، لكني أواجهك الآن وهذا كذبٌ لا تَوْرِيَةٌ، أنا أعرف كل شيء من قبل

أن أراك، عاملوا الناس على قدر عقولهم ونفوسهم، وأنزلوا الناس منازلهم، افهموا قبل أن تطبقوا!

كان كعادته ينفي كل ذلك في هدوء أَحْسُدُهُ عليه، وقال إن كل ما قلته محض أوهام في رأسي، وأن الجماعة ليست في حاجة إلى «كل هذا اللف والدوران» كي تزيد من أعدادها فردًا من الأفراد.

تركته ومضيت، وعزمت على قطع ما بيني وبينه، سأكتفي بالسلام والتحية واللقاءات العامة، سأطوي هذه الصفحة، وسأنهي تلك التجربة سريعًا، لم يعد بي شغف أن أكمل مسيرة اكتشاف الإخوان بعد الآن، لقد انتهت التجربة بالانطباع نفسه الذي دخلت به!

نجم الجيل

كان الانتقال من المرحلة الإعدادية إلى الثانوية طفرة في الاطلاع والاحتكاك بشرائح أوسع من المجتمع، حيث بدأت أركب المواصلات العامة والخاصة حتى أصل إلى مدرستي الجديدة.

كل صباح تتجدد رحلة عجيبة على قِصَرِهَا، ذروتا اليوم في الثامنة صباحًا والثانية والنصف ظهرًا، مجموعات الشباب المفتوحةُ قُمْصَانُهُمْ المدرسية، والمثبتةُ قصاتُ شَعْرِهِمْ بذلك الاختراع الجديد (الجِل)، ومجموعات البنات المُضَيَّقَةُ جيباتُهُنَّ كأنها مقدودة عليهن، يُمْسِكْنَ حافظاتِ الكتبِ على صدورهن، ويمشين في خَفَرٍ مُصْطَنَعٍ محببٍ إلى الفئةِ الأولى من الذكور، ينتشرون جميعًا على أرصفة المدارس ونواصي الشوارع ومحطات الأتوبيس، ليس لأكثرهم حديث سوى تلك الفتاة التي نظرت له أمس، أو ذلك الفتى الذي يلح عليها في الحصول على رَقْمِ هاتفها، حتى بدا أن المرحلة الثانوية كما قيل لي هي أفسد مراحل المراهقة والشباب معًا.

كنت للمرة الأولى التي أستمع فيها إلى الأغاني مجبرًا غير مختار، فالميكروباصات والمواصلات الخاصة تدوي في أرجائها تلك الإذاعة الجديدة التي تصدّح على مدار أربع وعشرين ساعة بالأغاني الشبابية، كانت (نجوم إف إم) ساعتها شيئًا جديدًا يجعل الجميع يسمع دون عناء شراء الأشرطة المتنوعة، كانت الكلمات تهتك أستار سمعي بعنف، معجمها الغنائي لا يتجاوز (عشق - حب - حضن - عيون - شفايف) بكل مشتقاتها، لم تكن

تحتوي هذه الأغاني على أيِّ قضية أخرى في الحياة، ولم يكن من بينها أي كلمة من معاجم الأناشيد التي تربيت عليها. كنت أرى الجميع وهم يستمعون بلا امتعاضٍ ولا تَمَعُّرٍ لِلْوَجْهِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وأتذكر الحديث: «سيأتي زمان على أمتي القابض على دينه كالقابض على الجمر» فكنت أقبض على يدي وتستمر الأغنية:

عودوني علموني عليك أحبك عودوني.. عودوني وعلموني هواك..

أتذكر أنَّ ألبومًا لتامر وشيرين بدأ يأخذ شعبية كبيرة بين جيلنا في بدايات تلك الفترة.. وبعد مدة وجيزة انطلق تامر في أكثر من ألبوم منفردًا حتى حَصَلَ على لقب (نجم الجيل) دون مقدمات طويلة، وأصبح ذلك الشاب متواضع الإمكانات الصوتية (بالنسبة لتقييمي) سمج الحركات التمثيلية، وحتى هيئته لم تكن تلك التي تسحر ويجتمع على وسامتها الناس -أصبح بقدرة قادر هو نجم جيلنا!

وواكبته على الناحية الأخرى بعد عام تقريبًا «روبي» بألبومها الأول الذي اعتبره الشباب ساعتها أول فيلم إثارة لا يحتاجون إلى «سي دي» ومكان مغلق ليشاهدوه خُلْسَةً، بل يكفي أن يتربعوا أمام شاشة إحدى قنوات «الفيديو كليب» الجديدة أيضًا، ليروه يُعَادُ كُلَّ رُبْعِ ساعةٍ تقريبًا!

استأت أيَّما استياء من تلك الحالة، ومن هذا المجتمع الذي يطلق شبابه على مثل تامر حسني نجم الجيل، ولكنني أخذت ألوم نفسي، ما يعرف هؤلاء عن النجوم الإسلاميين؟ وهل يسعى المتميزون في الإسلاميين للنجومية أصلاً؟ من يعرف «الأنشودة الإسلامية»؟ لم لا نجد «فيديو كليبات» للمنشدين؟ صدمت أنني شخصيًا لا أحفظ كثيرًا من أسمائهم، وفي الغالب لا أعرف من الأنشودة سوى الكلمات!

بعد تفكير اهتديت إلى وجوب أخذ زمام مبادرة ما كي يعرف هؤلاءِ أنَّ هناك نجومًا آخرين، ولا بأس إن كان أقصى اهتمام هؤلاء هو الغناء، فلأدخلْ لهم من هذا الباب!

كانت الإذاعة المدرسية في الثانوية شيئًا هامشيًّا للغاية، لم يَكُنْ يَحْضُرُ الطابورَ سوى طلابِ الصف الأول الثانويِّ بِشِقِّ الأنفس، عرضت على المدرسِ المشرف عليها أن نقوم بتطويرها، وإضافة فقرَةِ «الأنشودة» إليها، تمهيدًا لِبَدْءِ نشاط «الإذاعة الخارجية»، وكنت قد سمعت عنه في الإعدادي ولم أقم به من قبل، وهو أن تتبادل المدارس الإذاعات، فيذهب فريق إذاعتنا إلى المدارس الأخرى ليقدم عرضه في الصباح، وترد لنا الزيارة من تلك المدارس في وقت لاحق.

كان حوش المدرسة هائجًا ومائجًا كعادته كل صباح في فقرة الإذاعة بالذات، وقفت خلف المقدم حيث قال بارتباك: والآن مع فقرة الأنشودة والطالب: أحمد أبو خليل، أمسكت بالميكروفون وتجاهلت نظرات الجميع وشرعت في كلمات الأنشودة:

عطشـــان العـــالم بعد الظلـــم وبعـــد الخـــوف

لقلـــوب شـــفافة.. فيها الحـــب يدفـــى ألـــوف

عطشـــان العالم للإســـلام والقلب العمران بالإيمان

وضمير المسلم فى الإنسان.. اللى يسارع يغيث الملهوف

أخذت نفسًا ورفعت عيني لأجد الجميع ساكنًا ومترقبًا، ضربت بقوة وأنا أدفع بالكوبليه الثاني:

إنســـان الألفية التالتة رايـــح على فـــين مش عـــارفين

ســـايرين فى ركابه والغلطة إن احنا نعيش مش فاهـــمين

كـفايانا كـلاااام ملينا سمااااع: حق الإنسان والحـــرية

عايزين تصريح وبدون تلميح حضارتكم صارت همجية

حضارتكم صارت همجية يااااه..

وانطلق التصفيق والتصفير إما سخرية واستكمالاً للمشهد العجيب، وإما إيمانًا بأن ما سمعوه يطرق آذانهم للمرة الأولى، وأقبل المدرسون بعد الطابور يُهَنِّئُونَنِي على صوتي ويسألونني عن اسم الأغنية وصاحبها.

أخذت فترة لا بأس بها حتى أفهم من حولي أن ما شدوت به ليست أغنية وإنما اسمها «أنشودة»، واكتشفت ساعتها أن الاسم ليس غريبًا عنهم، كانوا يقولون لي: تقصد «إنشاد ديني»، فأقول: لا إنها «أنشودة إسلامية»، فالأول هو فن المدائح على الربابات وفي الموالد وغيرها، أما الثاني فهو يتناول موضوعات من وجهة نظر إسلامية، وفي الغالب لا تصاحبه أي آلات موسيقية، كانوا يقفون فترة غير قادرين على الاستيعاب ثم يتجاوزون الأمر طالبين المزيد في صباح اليوم التالي.

لم تكن هذه إلا الخطوة الأولى للوصول إلى الإذاعات الخارجية، الانتشار.. أن يعرف الجميع أن هناك صوتًا آخر.. كلمات أخرى.. عالماً آخر غير عالمهم هذا، كان قرارًا عجيبًا عندما أخبرت أستاذي برغبتي في أن تكون زياراتنا في المدارس الخارجية «للبنات فَقَطْ».. نظر إليَّ: يا شيخ أحمد، مدارس بنات!

كان عليَّ ساعتها أن أتقمص دور «الصايع» الذي لا يمانع فيه الأستاذ بل قد يرحب به أكثر من غيره، وبالفعل تحمس الرجل، وبالطبع تحمس كل الطلبة في فريق الإذاعة، وأصبح التقرُّب إليَّ وسيلة إلى نيل الرضا والالتحاق بهذا الفريق الذي يدخل مدارس البنات من باب المدرسة الرئيس، في الوقت الذي يكون آخر طموح أكثر «الصايعين» تهورًا أن يقفز من الباب الخلفي!

في اليوم الأول من التجربة، وقفت أحكم ربطة عنق داكنة الزرقة، وَأُرَجِّلُ شعري الذي بدا لي صنيعي فيه أفضل بكثير من صنيع ذلك الفتى تامر،

أخذت أجدد نية لا تكاد تنصلح في أنني أود أن أريهم كيف يكون الشاب المسلم حسنَ الصورة والصوت؛ ليس بالضرورة يعني أنه ليس إسلاميًّا.
كانت أكبر مدرسة للبنات في المنطقة بأسرها، توسطنا الطابور في دهشة عارمة من الفتيات، كنت أنظر في الأرض غالب الوقت، يابس الجبين، حاد النظرات، أشعر بنظراتهن جميعًا من حولي وأبتسم سرًّا، الآن سيصدمون..
بعد المقدمة الإذاعية كانت الفقرة الأولى من نصيبي، قرآن البداية.. دون مصحف أقرأ منه، أمسكت بمذياع المدرسة وتلوت.. آيات سورة النور.. آيات العفة والطهر.. تراجعت النظرات وخفتت الابتسامات من حولي، وزاد تبسمي سرًّا، جاءت الفقرة الثانية المرتقبة: الأنشودة، كانت عن القدس.. الصوت يرجُّ جنبات مدرسة التجريبية الموحدة للبنات.

من الخليل والقدس بنادى.. من الخليل بصرخ يا بلادى

شـــبح مخيف فوق التـــلال رافـــع رايات التتـــر..

صـــوت الضعيف زلزل جـــبال.. حنن قلوب الحـــجر..

وانتو قلوبكـــــم ما لها إيه اللى فـــيها انكســــــر..

الطفل فينا شـــــاب.. من فـــرقة الأحـــباب..

حس بألم وعـــذاب.. غـير ملامـــحه القـــدر..

وهو فى بطـــن أمه حـــاسس بالكـــون وهـــمه

ويـــوم ما اتـــولد مالاقـــاش اللى يضـــمه

حمـــــل ســـلاحه غـــيَّر ملامـــحه القـدر..

وانتوا قلوبكـم ما لها إيه اللى فيها انكســـر!

علا الهتاف واشرأبّت الأعناق أكثر وأكثر.. انتظمت الفقرات حتى أسند إليَّ الختام مرة أخرى، كان الدعاء بنبرة مشاري راشد أخذت أدعو لأنفسنا.. لهذا الجيل.. للأمة.. للأقصى.. ثم ختمت وأدمعي توشك على الانفلات.

كانت التجربةُ الأولى مثاليةً حكت لي أختي (التي كانت في المدرسة نفسها) حكاياتٍ وحكاياتٍ من زميلاتها الملتزمات وغيرهن على السواء، سعدت بالأثر في الفريقين، سألتني إثر تلك السعادة التي رأيتها مرتسمة على قسماتي: هل هذا هو هدفك!

لا إطلاقًا، هدفي بسيط للغاية، كلهنَّ بعد أشهر لن يتذكرن اسم ذلك الفتى الذي أنشد يومًا بحوش مدرستهن، لكن أثرًا خفيفًا قد يعلق بإحداهن أفضل عندي من كل هذا، أن تشعر الواحدة منهن في قرارة نفسها أن شابًّا به مقوماتُ المظهر الذي يتعلقن به قد يكون أيضًا ملتزمًا، حافظًا للقرآن محترمًا، فيشرق في نفسها أمل أن يكون شريك حياتها في مستقبل الأيام شابًّا مثل هذا، فقد رأيت أن جيلي لم يعد يرى للملتزمين أيَّ وجاهة تُذكر، وأن هذا الجيل من الفتيات ربما لا يباغته في أحلام يقظته سوى المنحلين، فلم لا أمهد لشباب الدعوة (المقفلين الرجعيين) موطئ قدم ولو كان في أحلامهن!

لم تمرَّ السنة حتى أصبحت مدارس البنات جميعًا في منطقتنا التعليمية تعرف من هو أحمد أبو خليل، ولم تمرَّ سنةٌ أخرى حتى كان ذكري ممحوًا إلا فيما ندر، وكنت كثيرًا ما أحاول استنطاق ذلك الأثر الذي قصدت أن أتركه خفيفًا في قلوبهنَّ.. ولم يسلمِ الأمرُ من بعض الغرور الذي بدأ يداخلني وبعض النياتِ المتقلبة، وبعض الأمنيات أن تكون تلك الفتاة ذات الخمار الأبيض والعين الملونة في شمس طابور الصباح، نعم تلك الواقفة في الطابور الثالث على اليمين، أن تكون مثلها زوجتي في يوم ما، ربما كانت

تقف هناك تنظر إليَّ بعين دامعة وتحاول أن تتركَ في نفسي الأثر نفسه الذي أحاول غرسه بدوري.. أحلم وتستمر الأنشودة الصباحية:

يا أمة المـــلياااار ... هيشـــق الليل نهاااار

ويعيد لنااا أرضنا ... ويرجـــع اللى انـــهاااار

يا أمة الملياااار ... مش عايزين اعـــــتذاااار

عايزين نرفع سلاحنا ... عايزين نعيش أحراااار

لسه الأمل موجوووود ... والحق ما له حـدوووود

لازم فى يوم هنعووود ... مهما ســقونا مــراااار

رغم الويل والجراااح ... راجع نور الصـــبااااح

يمسح دمع اليتاااامى ... ويعيد لينا اللى رااااح

نور شمسنا الربااانى ... لو غاب عــــنا ثوااانى

راجع صلاااح مننا ... يعيد الأقصى تااانى

يعيد الأقصى تااانى

كان «أمة المليار» هو النسخة الإسلامية من «الحلم العربي»، منشدون من كل أقطار الوطن العربي في «أوبريت واحد» يغنون للأقصى والعراق ويردون على الغرب والشرق.

مش إرهــابى اللى قاااال.. لأ فـ وش الضـلاااال

الإرهــابى الحـــقيقى.. جيـــــوش الاحـتلاااال

بيوت الله بتتهدم.. آلاف بين الرصاص والنـــار

وممنوع إنى أتكلم.. ولا أصرخ وانا بانهـــــار

عايزين صوت البارووود.. يمحيهم م الوجــووود
ده لكل صبر حدووود.. والليل بعديه نهــااار

والنجم إذا هوى

كان فجرًا يعقب إحدى الليالي الصيفية، صوت إقامة الصلاة بدأ يتناهى إلى سمعي قبل خطوات من المسجد أنهيت الدعاء سريعًا: «واجعل في قبري نورًا، واجعلني نورًا، واجعل لي نورًا، وزدني نورًا على نورٍ».. دخلت إلى المسجد مسرعًا، فجأة.. وجدت الأنظار تلتفت إليَّ، لم يكن من بينهم أي إمام من المعهودين في صلاة الفجر، استحسن أحدهم وأشار إلي، استحسن الآخر وفعل كأخيه، وفجأة وجدت نفسي في المحراب أقول: استقيموا يرحمكم الله!

أخذت أتذكر سنواتي الخمسَ عَشْرَةَ ورحلتي مع كتاب الله، أخذت أنتقي أفضل السور وأحبها، فلم أجد أكثر من النجم قربًا إلى نفسي، شرعت اقرأ: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)» أخذت أتذكر بكاء شيخي من سورة البروج عندما كنت أقرؤها وأنا ابن خمس سنين، وكنت أعجب، وَأَنْقُلُ الموقف إلى والدتي فتربت على كتفي دون أن تفسر لي، عندما كبرت بخمس سنين أخرى كنت أتخذ هذه المهارة حيلة في مسابقات القرآن الكريم حتى أمر بأقل عدد مرات من الاختبار في أكثر من سورة، وما زلت أتذكر تلك الموجِّهَةَ التي جلست لتختبرني في عَشَرَةِ أجزاءٍ فاستفتحتني بسورة الأعلى، فلم آتِ على نهايتها إلا وقد انهمرت الدموع من عينيها، وأجازتني قبل اكتمال الاختبار في بقية الأجزاء!

كنت أشعر كم أنَّ صوتي هبة من الله ليس لي فيه شيء، وكم كنت أشعر بأنني مقصر في شكر هذه النعمة أَيَّمَا تقصير في الحفظ والمراجعة والمداومة، وكم كنت أشعر أيضًا بأنَّ أصدقائي وزملائي ومجتمعي كله محروم من نعمة القرب من القرآن!

دار بذهني كل ذلك في أول ركعتين لي إمامًا، أخطأتُ مَرَّتَيْنِ في القراءة ولكنَّ ذلكَ لم يمنعْ مِنِ اعتمادِي إمامًا ثالثًا في المسجد بعد الإمام الراتب ووالدي، وحتى والدي أخذ يقدمني بعد فترة على نفسه، لكن لم يكن تقديم تفضيل بقدر ما هو تقديم دفع لمضرة عنه، فقد كان دائم التحذير لي من الإمامة ومن مهالكها: أحمد، إن أخطأت فستحمل وزر كل من خلفك! فلم الإقدام في موضع حقه الإحجام.. فِرَّ من الإمامة فرارك من الأسد.

لكن سيطرة نظرية «النجومية» عليَّ كانت تمنعني من اقتفاء أثر تلك النصائح، فأنا أريد الانطلاق بكل ما منحني الله به من قدرات حتى أثبت للجميع أن «الحالة الإسلامية» ليست في لحية السلفيين ولا تظاهرات الإخوان وفَقَطْ!

كان أترابي ساعتها يتفاخرون بإنجازتهم مثلي، فأحدهم قد استطاع أن يقنع فتاة بخروجة معه في دار «الدفاع الجوي»، والآخر قد استطاع أن يتقن رقصة «العقرب» التي يَتَفَنَّنُ فيها مايكل جاكسون، وكنت أحاول ساعتها أنْ أنْقُلَ لَهُمْ حُبُورِي بِكَونِي وقفتُ إمامًا أمسِ وقرأتُ حتى: «أفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)»

الإرهـابي

يا قدس يا شرف العرب	يوم الخلاص قد اقترب
تلك انتفاضة مارد	والأرض يملؤها الغضب
غضب يؤججه الشهيد	غضب جرى بدم الوليد
غضب تفجَّر فى الصبيّ	فبات ذا عزم شديد
الغضبة الكبرى بدت	هلت بشائرها ابتدت
والنار ألهبت المشاعر	والقلوب توقدت

كانت هذه أبيات من أول قصيدة ألقيها أمام الجميع في حياتي، بتاريخ (٣٠/ ٣/ ٢٠٠١) انتزعتها معلمتي من جريدة الأخبار، وأتت بها إليَّ لأقرأها في الإذاعة بعدما استحسنت قراءتي للنصوص الأدبية في حصة اللغة العربية، كانت الانتفاضة الثانية على أشدها، ومشاهد أطفال الحجارة في نشرات الأخبار، ومشهد استشهاد الطفل محمد الدرة قبل أشهر ليس عنا ببعيد.

ومن يومها وأصبحت المسابقات الشعرية التي تجريها الإدارة التعليمية طقسًا سنويًّا أحتفي به كما أحتفي بكل الأنشطة خارج المدرسة مِنِ اجْتِمَاعَاتِ رُؤَسَاءِ اتحاداتِ الطلبةِ والأنشطة المختلفة؛ حيث أَعُدُّ كل

خروج من المدرسة قبل جرس «المِرواح» بورقة رسمية هو كسر لحاجز التقوقع والعزلة الذي تفرضه المدرسة عليَّ، حيث تحصر جو المنافسة والطموح داخل تلك الأسوار الجامدة!

وعندما انتقلت للثانوية كانت «موضة» الانتفاضة ما زالت سارية في مسابقات الشعر والإلقاء، إلا أنني كنت قد ضجرت من التشدُّق بالقدس والمسرى، والشباب هنا ضائع لا يحمل القضية، ولا يعرف أبعادها من قريب أو بعيد.

مسرح كبير، ومقاعد وثيرة ذات قطائف حمراء تنطوي بمجرد قيامك عنها، شباب وبنات من كل المدارس حولك يتبخترون كأنه يوم الزينة لا يوم مسابقة الإلقاء، لاحظ المدرس المشرف توتري فاقترب مني: ماذا بك لم تحفظ القصيدة بعد!

بل حفظتها، لكنني لن أُلقِيَهَا!

لن تلقيها! لماذا؟ إنَّ أداءك لها رائع!

كفى كلامًا عن القدس والحجر، كل هؤلاء سيتكلمون عن تلك البضاعة الرائجة، يتحدثون عما ليس تحته عمل، أما أنا فسوف أحدثهم عما يعري نفوسهم، ويكشف زيف حناجرهم تلك.

كانت البداية عادية ومريحة:

صبح تنفس بالضياء وأشرقا ... والصحوة الكبرى تهز البيرقا

وشبيبة الإسلام هذا فيلق ... فى ساحة الأمجاد يتبع فيلقا

ثم أخذت كلمات العشماوي تمد في تلك الصحوة الإسلامية:

هى نخلة طاب الثرى فنما لها ... جذع قوى فى التراب وأعذقا

هى في رياض قلوبنا زيتونة | فى جذعها غصن الكرامة أورقا
فجر تدفق من سيحبس نوره | أرنى يدًا سدت علينا المشرقا

ثم يأخذ في الضرب يمنة ويسرة:

قالوا تطرَّف جيلنا لما سما | قدرًا وأعطى للطهارة موثقا
ورموه بالإرهاب حين أبى الخنا | ومضى على درب الكرامة وارتقى
أوَكان إرهابًا جهادُ نبينا | أم كان حقًّا بالكتاب مصدقا
أتطرفٌ إيماننا بالله فى | عصر تطرَّف فى الهوى وتزندقا
إن التطرف ما نرى من غفلة | ملك العدوُّ بها الزمام وأطبقا
إن التطرف ما نرى من ظالم | أودى بأحلام الشعوب وأرهقا

أخذت أصدح بتلك الأبيات (التي حفظتها من خطبة للشيخ محمد حسان في شريط عن الخلوة والاختلاط) كأنني أقذف باللهب، حتى إذاً انتهيت أحسست أنني أزحت عن صدري غمًّا هو أعظم من القدس ومحمد الدرة.

لم يمضِ شهرٌ إلا وكنا على موعد في رحلة تابعة للإدارة، ترددت كثيرًا قبل الاشتراك فيها، مؤكِّدًا أنها ستكون مختلطة، كيف يمكنني إذن الاشتراك فيها، ربما لم يدفعني ساعتها سوى أن «أجرب»، فإذا كنت لم أجرب السجائر أو التسكع مع الفتيات في أحد المولات الجديدة التي فتحت فلأجرِّبِ الاشتراك في رحلة مختلطة، ربما كان هذا قراراً بلا أي نوع من النية، كنت أعرف أنه محض هوى!

كان جميع من في الحافلة يرقص ويصفق على أغنية لمطرب جديد يُدعى بهاء سلطان:

أنا أقوله حبيبي (ما يردش) أقوله يا سيدي (ما يردش) أقوله يا عمي (ما يردش) أعمله إيه إيه!

وقفت إحداهن لترقص أيضًا، لم تكن طالبة، بل كانت مشرفة ولكنها شابة حديثة تخرج، امتقع وجهي من الغضب حتى بدأ الجميع يلحظ، بادرتني إحداهن بالسؤال عن سبب تجهمي ونحن في «رحلة»! فأخبرتها بكل بساطة عن خطورة ما يفعلون من اختلاط مستهتر وخلاعة ومجون.. بدت الكلمات والألفاظ غريبة على مسامعها تمامًا فطفقت تقول: هو أنت إرهابي!

كان سؤالاً بريئًا منها، دون أي سخرية، بل كانت مندهشة ربما أنها قابلت أحد الإرهابيين أخيرًا الذين تراهم في التلفاز، أو الأغلب الذين تراهم في شخصيات عادل إمام وهو يقطب جبينه ويتحدث بالفصحى: خسئت.. ثكلتك أمك..

فكرت في أبيات العشماوي: أوَكَانَ إرهابًا جهاد نبينا.. أتطرف إيماننا بالله!

وجاوبت فورًا: نعم بالطبع أنا إرهابي وأفتخر!

كانتِ الْحَلْقَة قد اتسعت وانتبه الجميع، وتوقف الرقص قليلاً، انتبهت المشرفة وأخذت تهذى بعبارات تحاول أن تفهم الطلبة أن الإرهاب ضد الدين أصلاً.

قاطعتها: أنا إرهابي لأن الله أمرني بذلك في القرآن:

انتبه الجميع وانتظروا الدليل.

«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ» فالمسلم هو إرهابي لأمريكا وإرهابي لإسرائيل، وهذا فخر لنا، ويجب أن يرتهب من يعادي الله ويجاهره بالمعاصي؛ لأنه على خطر عظيم!

لم أكن ربطت بين الآية ومعنى الإرهاب قبل هذا الموقف، كانت أحداث (١١ سبتمبر) قريبة عهد بنا، والملتزمون على اختلاف أنواعهم، الذين يعترضون على أي مخالفة شرعية هم في نظر هؤلاء إرهابيون، فجروا برجي التجارة وسفكوا دماء الآمنين، بالتأكيد لم يصل لأحد هؤلاء شعوري وأنا أشاهد البرجين يحترقان على الهواء ساعتها وبالخط الأحمر مكتوب في شريط عنوان (السي إن إن): "America under attack".

كانت كلمة "الإرهاب" في حد ذاتها إرهاباً لكل من يأتي بقول أو فعل لا يتناسب مع هوى الأنظمة، من أقلِ دولة في المنطقة إلى أعظم دولة في العالم، وكانت سلاحاً مصلتاً يُشهر من خلال أبواقهم الإعلامية، فتنتقل عدواه إلى ملايين البشر الذين يتابعون هذه الأبواق، ويتم تلقينهم من خلالها، وكان هذا الاختراع (كلمة الإرهاب) ناجحاً وفعالاً إلى الدرجة التي جعلت الكثير من المحللين السياسيين يتوقَّعون أن تتورَّط الدول والمنظمات الكبرى في العمليات المسلَّحة أو تنظمها لتكون غطاءً لأهداف كبرى تسعى لها وتُبرّرها باسم الإرهاب، ولم يكن هذا التحليل ببعيد حتى عن أحداث ١١ سبتمبر، التي شكَّك الكثيريون في استحالة وقوعها دون علم بعض الأطراف الاستخباراتية التي أرادت من خلال تمريرها أن تضاعف من مكاسبها أضعاف ما يمكن أن تحصل عليه من كشف مجموعة إرهابية كانت تنتوي تفجير البرجين .

أخذت رؤيتي وتنظيراتي هذه تتسع حتى استطعت أن أكوّن خطبة كاملة في نهاية المرحلة الثانوية في مسابقة الخطابة والتحدث بالفصحى كان موضوعها الذي فرض علينا من الإدارة هو «ثورة المعلومات والتكنولوجيا»، لكنني استطعت أن أجعلها تُصَاغُ على وَفْقِ رؤية للمنظومة الإسلامية، واستطعت أن أحصل بها على المركز الثالث في الخطابة على مستوى الجمهورية، لكن المركز لم يكن أهم ما في المشهد، حيث وقف المحكمون

بعد نهاية الخطبة وانتقل أحدهم من المِنَصَّةِ وجاء ليحتضنني، الحقيقة أنه كان يحتضن كلمات الغزالي التي ختمت بها خطبتي مع بعض تصرف بسيط جعلها تنطبق على استقبال تلك التكنولوجيا في عالمنا لا استقبال القرن الخامس عشر الهجري؛ كما كانت عبارات الغزالي تتحدث عنه:

«إن استقبالنا لمثل هَذِهِ التِقْنِيَّاتِ على منظومة الإسلام سيأتي بالخير لنا جميعًا، أما أن نستقبلها بحكم فردي متسلط يخنق الحرية ويبيح الحرمات، أو نستقبلها بقوانينَ تملكُ المالَ ولا تملك العدالة والرحمة، أو نستقبلها بِبِطَالَةِ عَقْلِيَّةٍ تُهْمِلُ العملَ وَالْفِكْرَ وَتَحْقِرُ نتائجها وتؤخر العباقرة وتقدِّم التافهين، أو نستقبلها بعوائلَ هَمُّهَا المتعةُ لا التربية، والفوضى الاجتماعية لا الأخلاق الدقيقة والتقاليد الذكية.. إن استقبالنا لها على هذا النحو هو خزيُ الأبدِ، فما عشنا مسلمين حقًّا».

ولم أنسَ المقولةَ الأثيرةَ لديَّ تذييلاً لهذه العبارات التي ما خلت خطبةٌ ولا درسٌ لي بعدها ولا قبلها منها مذ أن عَرَفْتُهَا، مقولة فاروق الأمة: «نحن قوم أعزَّنا الله بالإسلام.. فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله».

الشيخ عبد الستار

كان الوحيد الذي بدأ يتعرف إلى بِجِدِّيَّةٍ بعدَ قِصَّةِ «الإذاعات الخارجية»، ولم يكن له غرض في الالتحاق بفريق الإذاعة، عرفت بعد أول لقائين بيني وبينه في الفسحة أن له صلة بالإخوان، ولم يمض أسبوعٌ حتى طلب مني أن نقابل شخصًا أكبر مني يريد أن يتعرف إليَّ بعد ما سمع منه عني.

لم أشكَّ في لحظةٍ أنني مُقْبِلٌ على تَجْرِبَةِ «دعوة فردية» جديدة، ليست معه فربما هو في مرحلتي نفسها، ولكن بالطبع من الشخص الجديد الذي سنقابله، وبالفعل قابلنا الدكتور مصطفى الذي كان يدرس في السنة النهائيَّةِ بِكُلِّيَّةِ طب الأسنان، وَعَرَفْتُ مباشرةً تلك السحنة الإخوانية التي لا يخيب ظني بها.

كانت الأمور أهدأ قليلاً في هذه البداية الثانية، أخبرت الرجل بِتَجْرِبَتِي السابقة مع محمد أسامة ووعدني بعدم تَكْرَارِهَا، أخبرته بدوري بأنني لا أرغب في الالتحاق بالجماعة لكنني لا أرغب أيضًا بأن أعيش وحدي إسلاميًّا في هذه المرحلة من الحياة؛ فليس لي أي صحبة إسلامية من أترابي، وفي الغالب لا يوجد أصلاً خارج الجماعة هذه الصحبة، تجاوز كلامي وأكمل مهمته معي.

كانت البيئة الإخوانية الكبرى التي أكون فيها أسبوعيًّا هي خُطْبَةُ الجمعةِ في زاوية الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، كان الشيخ من الرعيل الأول للجماعة، مهيب الصوت، ضخم الجثة، تظهر علامات التعذيب الناصرية

على عينه اليمنى، تعرفنا على زاويته بعد أن أمم أمن الدولة مسجد الإيمان، وأوقف جميع خطبائه. ذلك المسجد الرحب الذي كان يجمع السلفيين والإخوان على خطباء مفوهين أمثال عبد الرحمن يعقوب، وأحمد حلمي ومحمود هاشم، ووحيد عبد السلام بالي، حيث كانت ترتعد فرائص المنبر من خطب يعقوب اللاذعة عن الحكم بما أنزل الله، في الوقت الذي يكاد يحترق بنار الشيخ حلمي الهادئة عندما يداخل نفسك ويكشفها أمامك متجردة عن الدنيا!

وكان الشيخ عبد الستار خير خلف لهذه المسيرة، بل خير مطور ومفعل لهذا الخطاب، فالرجل كان يَخْطُبُ في زاويته تحت بيته الذي يملكه، وتقريبًا قد يئس الأمن منه فترك له هَذِهِ المِسَاحَةَ الصغيرةَ يقول فيها ما يشاء، فكانت خطبته بمنزلة تعليق على أحداث الأسبوع أو أبرز حدث فيها على الأقل، فهو يبدأ دائمًا بالقصة من أولها في كل مرة، يبدأ بقصة الخلق وإرسال الرسل وإنزال الكتب، ثم كفر من كفر وإيمان من آمن، ثم يدخل في القضية التي يقصدها فكأنك تولد على يديه من جديد في كل مرة.

وكان من الطَّبِيعِيِّ جدًّا أَنْ تَسْمَعَهُ مِنْ على المنبر يقول عن عبد الناصر: «الطاغية الذي أذله الله»، وعن مبارك: «الحاكم الجائر»، وعن الحكام العرب جملة: «طواغيت وحكام بغي»، وعن المجتمع: «يعيش في جاهلية جهلاء»، وعن شيوخ الأزهر: «علماء السلاطين»، وعن أم كلثوم: «العجوز المتصابية».. ثم يردف قائلاً:

أرأيت نجمًا فى المجرة كلها ترك المجرة واستخف المقصدا

لو حاد عن أمر الإله عظيمها لهوى من العليا ودُكَّ وبُدِّدَا

ولشاط فى جو السماء محرَّقا ومحذِّرًا من قد عصاه وعاندا

فُطرت حياتُك للحنيفة سمحة ومدار أمرك بالشريعة حُدِّدَا

أيكون عهدك فى الوجود عجيبة وتروح وحدك فاجرًا أو مُلحدا

وكانت الشخصيات العامة الإسلامية تحضر له كثيرًا. وتشعرني أنني في «الأوسكار»، أقابل كل جمعة مشاهير الدعاة والقادة الإسلاميين. فخيرت الشاطر ضيفًا رئيسًا كل جمعة، والمرشد أحيانًا يحضر، وأحيانًا تجد الشيخ نشأت أحمد بعد أن خرج من المعتقل مصابًا في بدنه من كثرة التعذيب، أو تجد فوزي السعيد، أو محمد عبد المقصود، أو محمود عزت أو البلتاجي، أو حسن مالك، أو عبد الرحمن سعودي، أو خالد أبو شادي.. أسماء إخوانية وسلفية لامعة يتحلق الإخوة حولها بعد كل صلاة، وتجدهم جميعًا يسلمون على الشيخ في إجلال شديد.

كنت أستمتع للغاية بتلك الأجواء الإسلامية الخالصة وأتمنى لو أن كل ما حولي تحول لزاوية «الشيخ عبد الستار»؛ حتى أقراني الذين أتعرف إليهم في هذه الزاوية كانوا محببين إلى نفسي، معظمهم «دعوة فردية» على ما أظن، وتتقارب بيننا المسافات مع تعدد الجمعات، حتى زميلي الذي تعرف إلي في المدرسة ومسؤولي الجديد أصبحا مواظبين على صلاة الجمعة في الزاوية..

تمر الأيام والشيخ يَخْطُبُ ويردد أبيات محمود غنيم الأثيرة في خطبته:

أَنَّى اتجهت إلى الإسلام في بلدٍ تَجِدْهُ كالطير مقصوصًا جناحاه

ويح العروبة كان الكون مسرحها فأصبحت تتوارى في زواياه

كم صَرَّفَتْنَا يَدٌ كنا نُصَرِّفُهَا وباتَ يَحْكُمُنَا شَعْبٌ مَلَكْنَاهُ

اعتكاف «الحسن»

كان أول رمضان يأتي عليَّ وأنا مع هذه الصحبة الجديدة من زاوية الشيخ عبد الستار، وفي الجمعة الأولى من الشهر المبارك أخبرني أحدهم أن اعتكاف إخوة المِنْطَقَةِ هذا العام في مسجد الحسن، وأن الدكتور خالد أبو شادي سيكون معتكفًا معنا وسيصلي بنا القيام والتهجد أيضًا.

لم أكن اعتكفت قبل ذلك في مسجد غير ذلك القريب من بيتي، وكنت في الصف الثاني الثانوي حيث الاعتكاف عَشَرَةُ أيام بعيدًا عن البيت غير مأمون العواقف من ناحية التفريطْ في المذاكرة وعدم المواظبة على الدروس، لكن المفاجأة أن والدي وافق دونَ نقاش، وأوصلني بنفسه إلى المسجد حيث كان معي أغطية النوم وحقيبة الملابس وكتبي أيضًا، كنت سعيدًا لأقصى درجة، قبلت يديه وانطلقت.

المسجد لم يكن كبيرًا، ولكن حوله مساحة كبيرة مخضرة، وكان مكان الاعتكاف نفسه صغيرًا، مُصَلَّى سيدات بالدور العلوي لا يتسع لأكثر من عشرين معتكفاً، وبقدرة قادر وجدنا أنفسنا في الليلة الأولى أكثر من خمسين أخًا ينامُ الواحدُ مِنَّا على شِقِّهِ الأيمنِ كي تتسعَ المساحةُ لجميع إخوانه.

كنت كمن يعتكف للمرة الأولى بحياته، أو بالأحرى كمن يذوق طعم الاعتكاف لأول مرة، كان النوم ثلاثَ ساعاتٍ بالليل ومثلها بعد شروق الشمس إن كنت محظوظًا، وليس وراءك عملٌ أو مدرسةٌ، أو ساعتين بعد العصر عندما تعود من عملك، الصلاة في سكون الليل بجزء في القيام وجزأين في

التهجد، القرآن بعد الفجر وإلى أن تغزوَ أشعة الشمس شبابيك المسجد، وبعد العصر إلى أن تنتشر تلك الأشعة الحمراء المُؤْذِنَةُ برحيل يوم رمضانيٍّ آخرَ. الدعاء بين الأذان والإقامة وفي وهدة السحر إلى الفجر.. كنا نتبارى ونستبق للأذان أو نستهم، وكنا نتبارى للصف الأول وللختمة الثانية، وللوقوف الطويل في الليلة الوترية.

كان الفتى منا يتغنى بالآية في أول سلم المسجد المؤدي إلى المعتكف: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً»، فيرد من في آخره بأحسن منه ويكمل الترتيل: «يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً»، فيكمل ثالثٌ ورابعٌ: «قَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً» فكأنما جوقة قرآنية قد انفتحت بأصوات هؤلاءِ الفتية من السماء.

كان أفضل ما يمكن لشباب ثانوي أن يدعوَ به في هذه الأيام أن ينجيهم الله من الشهوات ما ظهر منها وما بطن، لم يكن الكثير منا هناك يعبأ بنتيجة الثانوية العامة، ولا بأي كلية يذهب مَا دام سيظل يخدم دعوته ودينه، كنا نخاف من أن نخرج من «الحسن» ونعود لحياتنا الأولى، ننام عن الفجر أحيانًا، نطلق لأعيننا العِنَانَ أحيانًا، ننسى القرآن أيامًا وأيامًا.. لقد وقفتُ في القبلة قبل آخر مغرب في «الحسن» أمسك بتمرة، أرفعها أمام ناظري وأدعو الله: اللهم، كما حرمت عليَّ هذه التمرة فاجعل الشهوات محرمة عليَّ، واجعل ما بيني وبين لقاء خليلتي كما بيني وبين مغرب هذا اليوم.

الأســـرة

لم أكن أتخيل أن الانتظام في «أسرة» يكون بهذه السلاسة، ودون أن تشعرَ حتى، فاللقاء الذي كان أسبوعيًّا أو شبه أسبوعي في درس ما أو ندوة أو مباراة كرة أصبح أكثر ثباتًا وتحديدًا، وأصبح معنا كتاب بعنوان «مبادئ الإسلام» لعلي لبن، ولم أكتشف أني أخيرًا انتظمت في أسرة تربوية إلا بعد شهر تقريبًا، عندها أحسست بسعادة غامرة أني استطعت أخيرًا الدخول فعليًّا إلى هذا العالم.

نبدأ بالقرآن، كلٌّ منَّا يقرأ صفحة في الغالب، ثم يحاول كلٌّ منَّا أن يفيد بخواطر حول هذه القراءة، ثم فقرة «أخبارنا» التي يذكر كل واحد فينا أخباره على المستوى الشخصي والعائلي ومستوى الدراسة والأصدقاء خلال الأسبوع الماضي، ثم نتدارس كتاب المبادئ نتعاقب عليه بالشرح والتحضير في كل مرة، وفي النهاية نسلم الأوراد: وِرد الصلوات، ووِرد القرآن، والنوافل، وبر الوالدين.. إلخ.

كانت الأسرة متقطعة لتخللها الامتحانات والإجازات وأحيانًا لتغير المسؤول، ولكنها على كل حال كانت نموذجًا رائعًا للتربية، أن تجلس وسط أصدقاء لك تتدارسون القرآن، وتُتَابعون ما أنجزتم وتتحدثون عما تريدون أن تنجزوا، شيء يجعلك طوال الأسبوع تفكر فيما يمكن أن تقوله لهم، يجعلك تفكر في أن أي تقصير قد يقعدك عن ركب من يسبقونك.

كان ما يكدر صفوي في الأسرة هو بعض نزعاتي السلفية، لِم لا نحفظُ القرآن ونسمع منه بدلاً من أن نقتصر على قراءة صفحة كل مرة، ولِم لا يكون مسؤولي أمهر مني في التجويد حتى يعلمه لأخي الذي لا يجيده، ولِمَ هذا الكتاب الذي بين أيدينا ضعيف المحتوى العلمي، وليس به قدر كبير من «العلم الشرعي»، ولِمَ نردد أذكار المساء (لو كان المغرب قريب منا في الموعد) جماعة؟ ولَمْ يَرِدْ أنَّ النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) جمع الصحابة وقرأ أحدهم الأذكار بصوت عال! لِمَ نجدِّدُ ونعدِّد النيات في كل مرة ونتلفظ بها ومحلها القلب، وفي كل مرة أتفنن في الإتيان بنيات جديدة لا لأن قلبي ينعقد عليها بالفعل، ولكن كي أجد الاستحسان في عيون الآخرين وهمهماتهم حتى أصبحت النية بهذا التجديد والتعديد على عكس مرادها!

على كلٍّ... لم تكن هذه المنغصات بالشيء الكبير الذي يعطل استمتاعي بنظام الأسرة، ولم تكن هناك أي تكليفات بعد تُعْطَى لنا، فكما كنت أعرف أن شباب ثانوي في الغالب هم مفعول به وليس فاعلاً، وأن بداية العمل الحقيقي تكون في الجامعة، إلا إذا كنت أحد أبناء الإخوان فالأمر قد يختلف قليلاً!

مجتمعنا

لم يكن أفضل ما نُدعى إليه في الإخوان الأسرة أو مباريات الكرة؛ كان أفضل ما نُدعى إليه الأفراح والفعاليات الكبيرة، كنا نشعر بذواتنا ونتذوق طرفًا من حلاوة فكرة المجتمع الإسلامي التي يضعها البنا واسطة العقد بعد الأسرة والفرد المسلمين، وقبل الدولة وأستاذية العالم.

كانت الأفراح أغلبها في المساجد، أو في قاعات منفصلة بنوادٍ بسيطة، كانت الفرق الإنشادية تحيي الليلة بالدفوف، فِرَقًا للرجال وأخرى للنساء، كنت أسترجع معهم أناشيد الندى التي ناغشت أسماعي صغيرًا، وأضيف عليها ما جد في عالم أناشيد الأفراح.

الفرْحُ هلَّ بوادينا ... وأضاءت منه ليالينا

والله المولى أكرمنا ... ورسول الله هادينا

كان الصخب يرتفع عندما ننشد: «يا جمالو يا جمالو يا جمالو وعريسنا ما بين أحبابه» أو «غني غني يا عريسنا وقول.. إسلامنا عالي عالي.. عالي عالي على طول» أو «أفراح وورود والكل بيضحك للعرسان والفرحة مالها حدود.. والكل يقول يا سلام ع الفرح مع الإسلام».. كنا نتحلق حول العريس وندور بشكل منتظم يتناسب مع الإيقاع الذي ينتظم.

من السهل أن تتعرف على المجتمع الإسلامي، أسماء الأطفال من الذكور في الغالب لن تخرج عن: مصعب.. حذيفة.. أنس.. معاذ.. صهيب.. عمار.. أسامة.. براء، وأسماء الفتيات في الغالب: سمية.. وخديجة.. رفيدة..

عائشة.. صفية.. وما شابه ذلك من أسماءِ الصحابياتِ وزوجاتِ وبناتِ النبيّ (صلى الله عليه وسلم)، ما عدا أم كلثوم. فالإخوة يسمون أبناءهم تيمنًا بالصحابة والصالحين، كي تحيى سيرتهم في الأمة مرة ثانية، ولن يكون أحدهم سعيدًا عندما يُذكر اسم ابنته «أم كلثوم» فيطرب المستمعون: «الله يرحمك يا ست».

من السهل أن تتعرف على نساء المجتمع الإسلامي ذوات الخمر الساحرة، غضيضات الطرف، تشعر بحمرة تتفتح ورودًا في وجناتهن إذا مررن فَقَطْ بجمع من الإخوة في مناسبة ما من المناسبات. كنت أخبر زملائي (من خارج هذا المجتمع) أن طرفًا غضيضًا من إحداهن أَوْقَعُ في قلبي من عشراتِ النظراتِ السافرة من غَيْرِهِنَّ.

كان الشباب يتندرون على تلك العلاقة شديدة العذرية بين الإخوة والأخوات. فمثلاً يقول أحدهم في اللقاءات العامة: طرحة الأخت ترفّ يمين.. قلب الأخ يرفّ يمين.. طرحة الأخت ترفّ شمال قلب الأخ يرفّ شمال!

كانوا بارعين حتى في تخيل شكل المعاكسات بين الإخوة والأخوات. ترى لو أراد أخ أن يغازل إحداهن ماذا يفعل، من الممكن أن يقول: البنا بيمسي يا جميل.. ده احنا ولاد دعوة واحدة يا عسل.. أو القدس في القلب وأنت جنب القدس على طول يا جميل.. كانت نكاتًا كاشفة عن حلاوة روح هذا المجتمع الذي ربما يراه الآخرون قاسيًا صلْبًا لا يَسبر أغوارَ الحياةِ، ولا يقفُ عند مباهجها.

فِعْلِيًّا كان أقصى ما يمكن لأخ أن يعاكسَ به أختًا وَجَدَهَا مثلاً تركب معه في مواصلة ما، أن يُخْرِجَ مصحفه الصغير من جيبه ويقرأ بصوت شبه مسموع، كان هذا بمنزلة مغازلة صريحة تجعلها تتورَّد حياءً!

ولم يكن المزاح يقف عند هذه النكات الاجتماعية، بل إن أعتى الثوابت في الجماعة من الممكن أن يتندر الشباب عليه وينالوا منه؛ للدرجة التي تشتهر

فيها نكتة تقول: إن الإمام البنا وضع في أركان البيعة العشرة "الفَهْمَ" ليستثني «الصعايدة» وأصل "التضحية" ليستثني «المنايفة»!

كانت عائلة والدتي أيضًا تمثل لي تجليًا آخر من تجليات المجتمع الإسلامي، كنا نجتمع في الأعياد والجمع والأفراح أيضًا، لم تكن الأفراح الإسلامية في الشرقية تختلف عن مثيلتها في القاهرة في كثير، وكانت لقاءاتنا في الأعياد أكثر حيوية.

فخالي الأكبر كان أخًا معروفًا في مركز ههيا وما حولها من القرى، وكذلك زوج خالتي وأبناؤهما، وكذلك خالي الأصغر الذي انتقل إلى الإسكندرية وربى أولاده تربية إخوانية حتى النخاع، كانوا جميعًا يلتقون في دار جدنا القديمة بحوض ناجيح كل عيد، يقرؤون جريدة «آفاق عربية» التي تصدر أسبوعيًّا عن الجماعة، ويتناقشون حول الأوضاع السياسية والاقتصادية للبلد.

جدتي التي مات عنها زوجها منذ سنوات إثر الأمراض التي غزت جسده الواهن من التعذيب في غياهب عبد الناصر أحد عشر عامًا كانت أمية ولا تعي الكثير عن الحالة الإسلامية، ورغم ذلك تجدها تحكي عن الإخوان وحرب اليهود بلهجتها القروية الصافية، تردد أذكار الصباح والمساء التي حفَّظها لها جدي.. وتخرج سهم الإخوان من معاشه قبل أن تصرف منه مليمًا واحدًا.. كانت تعتقد أن هذا حق «فِلَسْطِين» في مالها.

معسكر العريش

انتهت آخر امتحانات للثانوية العامة، تنفستُ الصُّعَدَاءَ، فقد كانتا رغم كل شيء أسوأ سنتين مررت بهما في حياتي قياسًا بما قبلهما، فقد قل فيهما كل شيء من العبادات والقراءات والإنجازات؛ لأن الجملة المجتمعية الشهيرة تقول: «شغلتك حاليًا هي المذاكرة».. خاصةً إذا كنت في الثانوية العامة.

فور انتهاء الامتحانات علمت من «إخواني» في الأسرة أن هناك معسكرًا كبيرًا لمدة أربعة أيام في مدينة العريش، وأنه حدث مهم لا يتاح في كل عام، تشوقت للأمر جدًّا، إلا أنني في الوقت نفسه عندما عرض على مسؤولي الأمر سألته بشكل مباشر: هل يشترط أن يكون المشتركون في هذا المعسكر في «الصف» أو ينوي الانتظام في الجماعة، فتلطف معي وأخبرني أنه لا يشترط ذلك، وكنت مترددًا هل هذا رد دبلوماسي أم أنها الحقيقة بالفعل!

السادسة فجرًا، الشارع خالٍ من المارّة، والسيارات تمرق كالبرق الخاطف بسرعة جنونية، أوقفت سيارة أجرة، وانطلقت إلى مكان تجمع الحافلات، في الطريق لمحت شابًّا يجلس على الرصيف بزي رياضي وينتظر مواصلة، قلت في نفسي مؤكد ذاهب معنا إلى المعسكر، كنت لا أخطئ السمت، وبالفعل وجدته هناك في اليوم التالي.

بعد اكتمال العدد بدأت الحافلات في التحرك، «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون» دعاء السفر كاملاً بصيغه الثلاث.

ثم فقرة تعديد النيات، ثم تبدأ الأناشيد ولا تنتهي طَوَالَ أربع ساعاتٍ من الطريقِ إلى سيناء:

نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا

نحن الذين بايعوا على الهدى نحن دعاة الله أبطال الفدا

إنا إذا ما شئت مصباح الهدى أو إننا نار على كل العدا

أخذت الأرض تتبدل أمام ناظري من الخضرة الإسماعيلية إلى الصفرة السيناوية بمجرد الانتقال عبر كوبري السلام الجديد، كانت الزرقة الفاصلة بينهما والممتدة شريطًا فاصلاً متخمًا بحكايات ما بين الضفتين، أخذ قائد المعسكر ذو الوجه المائل للسمرة يحكي لنا عن عبور القناة، عن سيناء وعن اليهود وعن الحرب، استرجعت كل ذكرياتي، أحمد الشراقي والإنجليز في حرب القناة، أو محمود ياسين واليهود في «الرصاصة لا تزال في جيبي»، كل ما علق في ذاكرتي من هذه الأرض أحسسته يجتاحني مع اجتياح تلك الرياح الصحراوية حواف الطريق الممتدة بين الكثبان.. وما زالت كلمات الأناشيد تُدَندَنُ:

رددى يا جبال رددى يا سهول أننا بالفعال نقتدى بالرسول

رددى أننا من أُباة الأسود أسعدوا العالم وأضاؤوا الوجود

يا شباب الهدى.. زمجروا كالرعود حرروا المسجد من طغاة اليهود

وصلنا قبيل الظهر، كان المعسكر بيتًا للشباب على بعد ميلين تقريبًا من المدينة في قلب الصَّحْرَاءِ، ساحة كبيرة تتوسطها سارية علم خاوية، وعلى جوانبها ثلاثة مبانٍ متواضعة، مطبخ كبير ومبنى للحمامات وآخر مفتوح كقاعة كبرى ليس بها مقاعد، تسع مِائَتَيْ شخصٍ أو أكثر.

علمت من أصدقائي أن هذا المعسكر يطلق عليه «معسكر جهادي»، وأن ذلك سيظهر في طريقة النوم والأكل والمجهود البدني، أنفرج ثغري عَنِ ابتسامةٍ هَازِئَةٍ بالصعاب، فلطالما حَلَمْتُ بمثل هذا.

انقضى شطر اليوم الأول في تجهيز الخيام، وفرشها بالمراتب التي لم تكن تختلف عن الأرض كثيرًا، حُدد لنا ساعتانْ فَقَطْ للراحة، وبعدها جمعونا وقسمونا إلى وحدات وسرايا، وَجُمِعَتِ الهواتفُ المحمولةُ ممن معه هواتف، وأغلقت جميعًا ووضعت في خيمة قائد المعسكر.

كنا نربو على المِائَتَينِ تقريبًا، ربما كل قطاعات القاهرة هنا، هكذا ظننت، مدينة نصر ومِصر الجديدة أعرف معظم وجوههم، لكن هناك المطرية، وشبرا، وعابدين، والمرج، والجيزة، ومناطق كثيرة لم أُحْصِهَا.

كانت الأوامر صارمةً وَمُرَمَّزَةً بعدد معين من الصافرات، وإذا لم نبدأ في تنفيذ الأمر مع انتهاء الصافرة يعزَّرُ الأخ المتأخر، وكان التعزير الأشهر الزحف على الرمال مقيد اليدين من الخلف وعاري البطن، وكانت الأرض غير مستوية والرمال مخبئة بالأشواك التي تجرح الجسد العاري بعد مترين فَقَطْ من الزحف، وفي الغالب كان هذا النوع من التعزير لقادة السرايا ممن هم أكبر مِنَّا سِنًّا في مرحلة الجامعة وما بعدها.

كان الغداء جبن أبيض وعسل أسود ورغيف خبز سَيِّئ، والعشاء جبن أبيض وعسل أسود ورغيف خبز سَيِّئ، أما الإفطار فكان أيضًا جبن أبيض وعسل أسود ورغيف خبز سَيِّئ، إلا أن مسؤول التغذية أتانا في اليوم التالي على

الغداء بصينية بطاطس فكانت فرجًا تكرر مرتين فَقَطْ بعد ذلك من أصل اثنتي عَشْرَةَ وجبةً «جهادية».

نمنا بعد العشاء بساعة ربما، واستيقظنا بعد ثلاث ساعات، ثلاث صافرات تعني «اجمع» لكل المعسكر، تجعلك تنتفض من نومك وتخرج من الخيمة ولو حافيًا أو عاريًا حتى لا تتعرض للتعزير، أمرنا بالوضوء والاستعداد لصلاة القيام، استدعيتُ للإمامة في عدد من الركعات، كانت المرة الأولى التي يصلي خلفي كل هذه الأعداد، أحسست برهبة ومذاق خاص، تلك الآيات التي أرددها.. أغلب من خلفي يحفظونها، بل ربما جلسوا في أسرتهم وتناوبوا على معانيها، أو فتحوا كتبًا في التفسير أو مرت عليهم في مبادئ الإسلام، أضغط على المعنى وأعيده فأشعر بأنفاسهم تعلو مع العذاب وتهبط عند النعيم.. أدعو سرًّا وجهرًا: يا الله، اجعلنا جيل النصر المنشود!

لم نرقد بعد الفجر، أمرنا بالتحرك، سوف نسير حتى رفح، بعضنا صُدِمَ واعتبر هذا خيالاً، وبعضنا لم يكن يعلم المسافة بالضبط، وبعضنا تحمس ونصب قامته مستعدًا للحظة البَدْءِ.

انطلقنا صفوفًا في كل صف أربعة نجرى بشكل منتظم، بهيئةٍ ما بين المشي والعدو، قطعنا مئاتِ الأمتارِ في قيظ شمس أغسطس، بلا ظل ولا ماء، سراب وصحراء ومركبات تمر ما بين الفينة والأخرى فَحَسْبُ، كانت الحماسة مثيرة، العرق قد أغرق الهامات، والعروق قد نفرت من السواعد، والأقدام تَدِبُّ على الأرض دبًّا، وقادة السرايا كلما أحسوا بتعبنا ألهبونا بالأناشيد ونحن نردد بحلوق جافة.

استيقظى يا أمتى ... من قبل أن تتخبطى

من قبل أن تترددى ... فى ظلمة الدرب الشقى

فَلْتَنْظُرِى.. فَلْتَنْظُرِى.. كل الشعوب توحدت إلا أنا

كل الجهود تكاتفت إلا أنا

أنا الذى أُدمى أنا آه آه آآه

أنا الذى أُسبى أنا آه آه آآه.. يا يا يا أمتى

ودائمًا نقول كـــــنا.. ودائمًا نقول كـــــنا

يا أمتى نريد أن نكون.. نريد أن نكـــــون..

انطلقت الصافرة أخيرًا، لم نصل حتى للشيخ زويد، كان علينا أن نعود الآن بالسرعة نفسها، بعضنا تحمَّس، وبعضنا أخذ يجرُّ رجليه جرًّا بمشي بطئ إلى المعسكر، ربما ست ساعات قضيناها في هذه التَّجْرِبَةِ، وما شعر أحدنا بنفسه، وعندما وصلنا إلى المعسكر انقلب كل واحد منَّا على فرشة خميته من التعب.

إلا أن ثلاث صافرات انطلقت بعد ربع ساعة تقريبًا، هرولنا بأجسادنا الواهنة، ووقفنا مفككي المفاصل من الإرهاق، أصدر القائد أمرًا توقعته: سنخرج للسير مرة أخرى الآن إلى أول المدينة ونعود، أخذت بخبث أراقب وجوه الإخوة، وأراقب أصواتهم التي بدأت تعلو، ونظرات القائد الثاقبة لردود فعل الجميع.. وكما توقعت بعد دقائق من مفعول سريان الخبر، أبطله القائد وذكر لهم حكمة ما فعل، كان يريد أن يختبر فينا إحساس الصحابة العائدين من غزوة أحد، عندما نادى منادي الجهاد قبل أن يريحوا: يا خيل الله اركبي، وكانت غزوة «حمراء الأسد».

أما حكمة اليوم من بابه فقد وقف في وسط المعسكر يزعق بصوته الجهوري: إن جيشنا المصري هلك نصفه في الصحراء؛ لأنه ما تدرب على السير مسافات طويلة وسطها، وإنني اليوم كنت أختبر صبركم لو هاجم العدو ولم يكن معكم غطاء طيران هل تصبرون على قطع الصحراء في مسافات طويلة أم لا!

لم يكن هناك استثناءات لأحد، كانت رسالة الإخوان واضحة في هذه الرحلة، نحن أمامنا طريق شاقَّةٌ وطويلَةٌ وكلنا يجب أن يضحيَ، حاول أن يوصل القائد لنا هذا المعنى بالوسائل شتَّى في طابور طالت مدته كثيرًا، أخذ أحد زملائنا وكان أصغر منا بثلاث سنواتٍ تقريبًا في التململ، وأخذ ينظر في ساعته ويعبس بجبينه، نادى عليه القائد بصوت عالٍ: سعد خيرت الشاطر احضر هنا، مشى سعد إليه بالخطوة البطيئة مستهينًا، فكَّ الساعة من ساعده وألقى بها في الأرض وأمره بالعودة إلى صفه، رفض سعد الأوامر، عزَّره القائد بأن يذهب للحمامات فيمسحها، رفض سعد أيضًا، أصدر القائد أمره بالترحيل المباشر وألا يجلس في المعسكر ساعة واحدة بعد الآن.

انحبست أنفاس الجميع وهم يرون وساطات من قادة أصغر حتى يستمر سعد في المعسكر، كان القائد يعلم أن الجميع يعرف من هو خيرت الشاطر وكيف يعاملون أبناءه، أخذ يترقب سريان الموقف بيننا حتى اطمأن إلى انطلائه علينا، ثم أفرج عن ابتسامة عريضة من بين ثغره وضم سعد إلى صدره وقال لنا: كانت هذه تمثيلية اتفقت عليها مع سعد، ولا تظنون أبدًا أن هناك في دعوتنا من يردُّ الأمر مهما علت أسهمه، ولا تظنون أيضًا أننا سنحابي من يردُّ أمرًا!

كان كل ما يحدث في المعسكر «الجهادي» ضربٌ مِنَ الأحلامِ، عالم مثالي، ومدينة فاضلة عشنا بها أيامًا ولياليَ معدوداتٍ، صلاة القيام في جوف الليل، اللقيمات التي تقيم أودنا، الشمس الغاربة والشارقة في قلب الصحراء، الأعشاب الجافة والأسلاك الشائكة، البدو الرحل تأتينا خيالاتهم من خلف الكثبان.. المجهود المبذول في التمارين اليومية، كل تمارين معسكرات الجيش التي نشاهدها في الأفلام، القفز من فوق تلة عالية، القفز وسط حلقة من نار، الزحف تحت أسلاك شائكة قريبة من الأرض، لم يكن ينقصها سوى «ضرب النار» حتى يكون تدريبًا جهاديًّا شاملاً.

كانت العيون تترقرق بالدمع إثر غروب كل يوم ونحن نجلس في دوائر كبيرة تشرف أشعة الشمس الغاربة علينا من بين الكثبان نردد ورد الرابطة بإحساس ربما لم نذقه من قبل.

"اللهم إنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على محبتك، والتقت على طاعتك، وتوحدت على دعوتك، وتعاهدت على نصرة شريعتك؛ فوحد اللهم رابطتها، وأدم وُدَّهَا، واهدها سبلها، واملأها بنورك الذي لا يخبو، واشرح صدروها بفيض الإيمان بك، وجميل التوكل عليك، وأحيها بمعرفتك".. وعندما نصل إلى: "وأمِتْها على الشهادة في سبيلك"، تجد الدمع قد سال من أجفان البعض شوقًا إلى الشَّهَادَةِ.

وعندما يَجِنُّ الليلُ ويغزو أجسادنا التعبُ والكلل، النواصي مترِبة من السجود في الرمال، والأبشار قد أكسبتها الشمس الحارقة سمرة عابرة، يستخفنا الطرب، نشعل النار، وننظر للسماء الموشاة بمئات النجوم وننشد:

أتتنى فى سكون الليل أطياف لماضينا
وراحت تنثر الأشواق والذكرى أفانينا
أما كنا بجوف الليل رهبانًا مُصَلِّينَا
وفرسانًا إذا ما قد دعا للموتِ دَاعِينا

تغزو الأصوات الرخيمة الخيام، يخرج إلينا الإخوة تتسع الدائرة وينضم قادة المعسكر يعلو النشيد:

فمن للأمة الغَرْقَى إذا كنا الغَرِيقِينَا

ومن للغاية الكُبْرَى إذا ضَمُرَتْ أَمَانِيِنَا

ومن للحق يجلوه إذا كلّت.. إذا كلّت.. إذا كلّت أيادينـــا

في اليوم الأخير كانت شعبتا مدينة نصر ومِصر الجديدة دونًا عن غيرهما منشغلتان بأمر مهم لا يعرف عنه الآخرون شيئًا، كان الحفل الختامي للمعسكر الذي أُوكِلَ لنا، فقرات إنشادية بالطبع، ولكن الأهم هو المسرحيات القصيرة أو ما يطلق عليها «الإسكتشات» وكان الإعداد لها على قَدَمٍ وَسَاقٍ طَوالَ اليومِ من مجموعتنا، سنقوم بتمثيل شخصيات بارزة من المعسكر، ونقوم بمحاكاة مواقف معروفة للجميع أيضًا.. كانت السخرية لاذعة والجميع راضون، والضحك ملء الأشداق كأن تعبًا لم يصبنا طَوَالَ الأيامِ السابقةِ.

قبل أن نصعد للحافلات، خلع القائد رداءه وارتمى بجسده أمام باب الحافلة ووجهه للرمال، قال بصوت أجش: كلٌّ سيمر بقدميه من على ظهري، ومن كانت له مظلمة عندي فليقتصَّ مني وليضغط بحذائه على جسدي.. لقد كان القائد شاهين مثالاً للتربية العسكرية «الإسلامية» التي لو كان لبعض قيادات جيوشنا معشارها لأصبحنا قوى عظمى في المِنْطَقَةِ منذُ أَمَدٍ!

على أعتاب الجامعة

كانت النتيجة قد ظهرت ونحن في المعسكر، لم يكن المجموع الذي حَصَلْتُ عليه كافيًا لدخولي كلية الهندسة كما كان يخطط أبي، لم تكن ميولي ولا اهماماتي رياضية مطلقًا، سعدت بأن مجموعي لن يؤهلني لأي كلية عملية، لكن المشكلة أنني لا أعرف أي الكليات الأدبية التي أختارها حتى أستغل قدراتي ومواهبي جيدًا، كنت في حَيْرَةٍ شديدة من أمري وكانت الأجواء مهيئة لظهور مرشد آخر في حياتي يكمل مسيرة ما بدأه الشيخ أحمد سعد والذي لم يَسُدَّ مكانه أيُّ مسؤولٍ إخْوَانِيٍّ آخر.

اقترح والدي أن أذهب معه للمهندس سيد، وكنت أسمع عنه دائمًا من والدي، كان هو الشخص الذي أدخله الجماعة هو ورفاقه والشخص ذاته الذي أقنعه بالخروج منها، كنت قد قابلته أكثر من مرة وأكبرت منه حكمةً ونظرةً ثاقبةً للأمور.

كانت زيارة فريدة، كأننا نتعرف إلى بعضنا من جديد، أخذت أحكي له عن مسار حياتي وطموحي وأفكاري، وأخذ يحكي لي عن بعض تاريخه وأفكاره وطموحه أيضًا، تبدَّى لي عالمٌ مختلفٌ كنت أبحث عنه منذ فترة، فريق ثالث أستطيع الانضمام إليه بكل أريحية، ما بين الإخوان والسلفيين، هم فريق لكنهم فُرَادَى، ويُطلق عليهم تمييزًا من غيرهم: الإسلاميون المستقلون.

نصحني بأن أدخل كلية دار العلوم، لم أكن قد سمعت بها من قبل، ذكرني بأن حسن البنا وسيد قُطب قد تخرجا في هذه الكلية التي كانت تسمى

«مدرسة دار العلوم» على أيامهم، تذكرت الاسم بالفعل، وبدا لي هذا الخيار مريحًا، ومفاجئًا، وفي وقته تمامًا.

كانت نصائح المهندس سيد في باب الإخوان قاسية وصارمة عندما سألته عن رأيه في الجماعة وأخبرته أنني حتى الآن لم أنتظم في الصف، ولكنني لم أقطع بشكل نهائي، نظر إلى متأملاً وقال بثبات:

تُرى لو كان هناك تُرْسٌ نريد أن نركبه في آلة كي تستمر في العمل، لكن الترس أكبر من المكان الذي يجب أن يوضع فيه، تخيل لو تم تركيبه ما النتائج المترتبة على هذا!

- ينكسر التُّرْسُ!
- أو تنكسر بعض أسنان التروس الأكبر والأصغر التي حوله.
- إذن تقصد أنا الترس؟

نعم، والجماعة هي الآلة، ومن حقها أن تضعك في الموضع الذي تراه، لكن صدقني إما أن تنكسر أنت فيقلُّ عَزْمُكَ، ويتجمدُ تفكيرُكَ، وتحاولِ أن تتأقلم على مكانك، وإما أن تعافر وتأخذ في الإصلاح من الداخل، وتدخل هذه المتاهات التي لن تؤديَ في النهاية إلا إلى تكسير بعض التروس التي حولك وتعطيل هذا الجزء من الآلة.

كان المهندس واثقًا جدًّا من كلامه، يجزم لي أن انضمامي للإخوان معناه أنني أحرم الأمة من الخير الذي يمكن أن أقدمه لها، فالإخوان يضمون الشُّباب لهم، يربونهم ويُثقفون سِنانهم، ثم يضعونهم أكوامًا في كناناتِ الجماعة لا يخرج سهم منهم إلى صدر عدو.. إن الإخوان إذا دخل الأمريكان مِصر ربما لو كنت في صفهم لحرمت من الجهاد.. نعم حدث ذلك في العراق مثلاً، إن ثلاثة كيانات في مِصر تعمل لصالحها فَقَطْ: الحزب الوطني، والكنيسة، والإخوان، إن مصلحة الجماعة هي أعلى من مصلحة الأمة والدين والوطن.. إن..!

كفى.. توسلت إليه أن يكفَّ، لا أريد أن أسمع أكثر، لو صح ما تقول فأنْ أنتحرَ أهونُ لي من أن أعيشَ على هَذِهِ البسيطةِ وأكبر فريق إسلاميٍّ فيها كما تصف، وإن أخطأ ظنك فلا أريد أن أشعر يومًا ما أني كنت أظلمهم، وأتهمهم بتلك الفِرَى العُظمى.. لا أريد يومًا أن أكون إخوانيًّا؛ فأنا مُتَيَّمٌ بما فعله البنا.. وحسن الاقتداء أن أفعل مثله.. هو أسس جماعة خدمت الأمة فلم لا أكون كذلك بعيدًا عن خطئهم وصوابهم!

كنت أعلم أن المهندس خاض تَجْرِبَةً مريرة في الجماعة، مثله مثل أيّ أخٍ خَرَجَ مِنَ الصَّفِّ، قد يصل الأمر إلى حصار اجتماعي واقتصادي حتى تعود من قريب، وإن عدت فإن قرارًا بعدم تصعيد أي من الذين خرجوا عن الجماعة ولو مرة واحدة إلى مواقع مهمة في انتظارك، كانت هذه وحدها كفيلة بإشعاره (وَمَنْ هُمْ عَلَى شَاكِلَتِهِ) أن الجماعة صنم كبير يُعبد من دون الله، من أجله تقطع الأوصال والوشائج لمجرد امتناع أحدهم عن تقديم القرابين له ذات صباح!

منحني مكتب التنسيق بالفعل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، قبيل الدراسة زرت الجامعة مستكشفًا: حسنًا يا أقدم جامعة في مِصر أريني ما لديك، كان الطلاب والطالبات الجدد يلبسون أزياء عجيبة كأنهم في يوم العيد، تذكرت نصيحة أبي بخصوص بنات الجامعة: من الطبيعي أن تلفت انتباهك إحداهن، لكن ثق أنه طيف عابر، لا يلبث أن يزول وتحل أخرى وهكذا.. لا تعبأ للأمر كثيرًا.

لكن أبي لم يكن يعلم أن نصيحته جاءت عليَّ تَجْرِبَةٌ حادثة بالفعل، لا نبوءة لما سوف يحدث، فقد لفتت نظري بالفعل إحداهن وأنا في الثانوية العامة، كان الدرس الخصوصي الوحيد المختلط، كانت فتاة فائقة الجمال ومحجبة بحجاب عادي، أقصد غير مختمرة، ولا تنطبق عليه شروط: لا يصف، ولا يشف، وليس زينة في نفسه، أو لباس شهرة، تلك الشروط

«السلفية» الشهيرة، والمطبقة إخوانيًّا أيضًا، ولم أتعلق بها إلا بعد أن لمست رغبة فيها للالتزام أكثر، ورغم ذلك قلت في نفسي سينقضي العام وكل يذهب إلى حال سبيله، ولن أراها ثانية، وهنا سأختبر نظرية البعيد عن العين.

كانت الأمور شبه واضحة، أنا أهوى لأنني أنظر وأختلط، وفي الوقت الذي ينتفي فيه هذا فإني لن أفكر في الموضوع من الأساس، لكن السنتين وربما الثلاث سنين المُعْقِبَة للثانوية العامة أثبتت لي بما لا يدع للشك مجالاً أن ما فهمته لم يكن صحيحًا بالمرة، فأنا أهوى لأنني تعلقت، حتى لو لم أسمع منها حرفًا أو أرى منها نظرة طَوَالَ أشهرٍ وأعوامٍ، لقد كنت أجدها في نفسي كل صباح وأتمثل بيتًا «غير إسلامي» لأول مرة:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

العمل الجامعي

كان الوسط في دار العلوم إسلاميًّا بامتياز، ربما السمت الريفي الذي يَغْلِبُ على معظم منتسبيها يجعلك تشعر بوضوح الأمر، فشباب الإخوان منهم لا يزالون محتفظين بالطاعة التامة، والجزئيَّةِ في التنفيذِ والحركة، وشباب السلفيين منهم لا يزالون محتفظين بالفكر المنضبط بمنهجهم، وبكل تفصيلة في مظهرهم، لكن الغريب أن من ليسوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء أغلبهم ملتزمون أيضًا، فالفتيات الريفيات معظمهن مختمرات، والشباب الريفيون معظمهم محافظ على الصلوات بمسجد الكلية، غير مدخن، ولا يحاول الاقتراب من الطالبات تحت الظروف العادية.

التقاني واحدٌ مِمَّنْ قابلتهم في معسكر العريش قدرًا في أول أسبوع لي في الجامعة، سلمت عليه بحرارة شديدة، واكتشفت أنه معي أيضًا في الكلية نَفْسِهَا، وبعد حديثٍ مقتضبٍ سألني مباشرةً:

- سلمت نفسك لإخواننا، أم ليس بعد!

- لا لم أسلم، ولن أفعل، صحيح أنك قابلتني في المعسكر، لكنني لستُ إخوانيًّا.

بدت علامات الدهشة عليه، أخذت أشرح له الوضع، وفي الغالب لم يفهم ما عَنَيْتُهُ بالضبط، لكنه على كل حال لم يوافقني فيما انتهجته وحذرني من خطورة ما أفعل على نفسي وعلى الأمة.

كان طلبةُ الإخوانِ بِكليتي خاصة حالةً يُرْثَى لها، يستفتحون يومك في المدرجات بِفِقْرَةٍ شِبْهِ إِذَاعِيَّةٍ، قرآن كريم، ثم حديث، ثم أنشودة أو قصيدة،

ثم مسابقة توزع فيها جوائز أشرطة كاسيت لبعض خطب راغب السرجاني عن الأندلس!

حتى إذا مرت الأسابيع الأولى من الدراسة ولاح موسم الانتخابات إحتدمت المعركة بينهم وبين طلاب الأنشطة، أو طلاب رعاية الشباب كما يُسَمَّوْنَ، فتجد المعارك والملاسنات في بهو الكلية، الإخوان من موقع إسلامي ينطلقون، وشباب الأنشطة من موقع ديني ينافحون، كان الفرق يشبه ما بين خطيب الأوقاف المعين، وأي خطيب إسلامي آخر، كلاهما يصعد على المنبر ويقول: قال الله وقال الرسول، هذا دين بمفهوم ومرجعية الدولة، وذاك دين بمفهوم ومرجعية الأمة.

لم يعجبني أداء شباب الإخوان مطلقًا، كانو يشتركون كل مرة في الانتخابات ويخوضون غِمَارَهَا وهم يعلمون أنهم سيشطبون منها قطعًا، وكانوا يقومون بكل الأنشطة وهم يعلمون أنه لن يَحْضُرَهَا إلا الدعوة الفردية أو الربط العام الكثير، وَمِنْ ثَمَّ قَطَعَتْ رأيي بشكل نهائيٍ في عدم التعاون معهم في الجامعة بشكل مطلق، وبدأت أنشط في الفعاليات التي تقع بين الفريقين على أكون تيارًا ثالثًا داخل الكلية.

الملتزمون الجدد

سمعت بعمرو خالد للمرة الأولى إثر دخولي للثانوية العامة، وأعتقد أن أول شريط سمعته له وأثر في كان بعنوان «كيف نستقبل رمضان؟»، وفي مَعْرِضِ الكتاب بدأت ألحظ صورة ذلك الشاب الحليق ذا الشارب الخفيف والشعر الآخذ في الانحسار عن مقدمة رأسه بربطة عنق أنيقة وابتسامة لا تفارقه على أغلفة الأقراص المدمجة تُبَاعُ جنبًا إلى جنب مع أقراص مشاهير مشايخ السلفية.

كنت متفائلاً بخروج النمط الإسلامي للمجتمع بهذا الشكل الجديد، كان يلبي رغبة ملحة عندي بأن يعرف الشباب عنا أكثر، لكنني في الوقت نفسه كنت متوجسًا أن يخرج عليهم بغير الوجه الذي نؤمن به، وأول ذلك أن يكون حليقًا.

لم أر أثر عمرو خالد بشكل حقيقيّ إلا بعد دخولي الجامعة. آلاف الفتيات لبسن الحجاب بسبب دروسه، لكن حجابهن لم يكن خمارًا إخوانيًّا أو نقابًا سلفيًّا، بل كان إيشاربًا قصيرًا مُلَوَّنًا، له عشرات الأشكال والربطات والتقليعات، وتحته يمكن ارتداء الجينز بكل سهولة ولا تعارض، وآلاف الشباب أصبحوا يصلون؛ ولكن تحرير الأقصى، والجهاد، والخلافة، ونهضة الأمة: لم تدخل بعد في معجم طموحاتهم.

وتفاقمت الظاهرة وأصبحت ما سماه المهندس سيد لي «إسلامٌ منزوعُ الدسم»، عندما أردف قائلاً: أمريكا لن تمانع بإرسال طائراتها تلقي على

المسلمين المسابح والطرح وسجاجيد الصلاة، طالما أن صلاتهم وحجابهم هذا لن يمليَ عليهم أيَّ سلوكٍ حقيقيٍّ يغير في معادلات القوة، أو يتحرك إلى مساحة الفعل على أرض الواقع!

الفصل الإخواني الأخير

كنت ما زلت مستمرًّا في لقاءِ الأُسْرَةِ. بعدَ الثانويَّةِ أصبح مسؤولي المباشر هو الدكتور خالد أبو شادي، كنت أنتظر موعدنا الأسبوعي بشغف، وكنا ننبه على الآخرين بأن مسؤولنا هو الدكتور خالد.. وبدأنا نجلس في جلساتٍ أوسع للمِنْطَقَةِ وَيَحْضُرُ معنا مسؤولون أكبر. وأتذكر أن المرة الأولى التي قابلت فيها الدكتور مصطفى النجار كانت في إحدى تلك الجلسات؛ حيث أخبرونا بأنه أخ مُهِمٌّ ويريدُ التحدثَ معنا حولَ الحالةِ السياسيةِ المقبلةِ عليها البلاد.

في أول عطلة نصف عام بالكلية كنا على موعد مع معسكر آخر، لكنه لم يكن جهاديًّا هذه المرة، كنا في قرية شبه سياحية بها حمام سباحة واسع، وغرف شبه فندقية، فور وصولنا كان قدم علينا أحد المسؤولين في قسم الجامعة على ما أظن وفي الجلسة التي عقدناها في أول ليلة بدأنا بالفِقْرَاتِ المعتادةِ وعندَ فِقْرَةِ أخبارنا بدأتُ أَسْرُدُ ما يَخُصُّنِي، نظر إليَّ باستغراب قائلاً:

- ما أخبارك مع إخواننا في الجامعة؟

- لستُ مع إخواننا في الجامعة.

- ماذا تقصد، هل شغل «المنطقة» يشغلك عن شغل الجامعة؟

- لا، لست أعمل في المِنْطَقَةِ ولا في الجامعة.

- إذن لماذا أنت هنا؟!

- يبدو أن حضرتك لا تعرف وضعي، أنا فَقَطْ أود أن أكون قريبًا من أجوائكم التربوية، ولست في الصف، وقد أخبرت مسؤولي بهذا مرارًا!

- لم أعرف بهذا من قبل. ولكن دعني أعرف الآن ما الذي قمت به وحدك. ما العمل الذي أورثه فيك جلسات الدكتور خالد أو غيره.

- سيدي مع أن هذا الكلام مكرر لكنني سأخبرك. بالنسبة للمِنْطَقَةِ أنا أشرف على مجموعات تحفيظ القرآن في مسجدي، وأنظم للأطفال الرحلاتِ والمسابقاتِ وكل ما يمكن أن يقدَّم في نشاط الأشبال، أقوم به مع مجموعة من المتطوعين ليسوا جميعًا من الإخوان بعد أن رفض إمام المسجد أي وجود للإخوة بالمسجد. فكفيتكم هذا الأمر. ولو لم أكن في موقعي هذا خارج الصف لوقع منا هذا المسجد نهائيًا!

أما في الجامعة فالأمن حائر فيَّ حتى الآن. فأنا من جلدة الإسلاميين وأتكلم بألسنتهم لكني حتى الآن لم أحضر مسيرة ولا علقت لافتة. ورغم ذلك اشتركت في العديد من الأنشطة. وأخذت مواقع متقدمة في برلمان شباب الجامعة عن مقاعد دار العلوم منافسة مع أمين اتحاد الكلية نفسه. وفي الفصل القادم سيستمر نشاطي في عدد من اللجان. وهذا هو المقصد أن يكون لنا نشاطٌ إسلاميٌّ بغض النظر عن اللافتة. ويكفي أننا أقمنا مهرجانًا للأنشودة في الفصل الأول تحت مظلة الاتحاد وكانت الأناشيد الجهادية تصدح في المدرج الكبير بكليتنا، في الوقت الذي ينشد فيه طلاب الإخوان في بهو الكلية أو بخيمة خارجها!

لم أستطع قياس درجة اقتناع المسؤول يومها. إلا أنه بدا غير مقتنع. وشعور دَاخَلَني أن الدكتور خالد هو من يستبقيني، وأنه سيكون آخر مسؤول لي في هذه التَّجْرِبَةِ الإخوانية القصيرة.

كانت آخر رحلة لي مع الإخوة في العطلة الصيفية بعد أول عام جامعي، كنا في قرية بالساحل الشمالي، كانت القرية محجوزة تقريبًا بأكلمها لأسر منطقتنا، لكن كان علينا ألا نسلم على بعضنا بعضًا إذا تقابلنا كي لا يشك الأمن فينا. فكل مجموعة كأنها وحدها وغير مرتبطة بالآخرين نهائيًا.

كانت رمال الساحل الشمالي البيضاء مختلفة عن تلك العريشية الخشنة، أحسست بشعور مختلف هذه المرة ونحن ندندن نشيد ختام الرحلة.. كأنه لحن الوداع الأخير لهذا الدرب القصير..

وتخطــت فرحة اللقيا كبرق ... وســمانا أظلمت بعد التماع

آهٍ لو تدرى بحزنى والتياعى ... حين قالوا أشرقت شمس الوداع

فلنعاهد ربنا عهدا وثيقــاً ... أن نلبيَ إن دعـــا داعى اللقاء

يا أخى اليوم سنمضى وعزائى ... أن شمس البَيْنِ تُطوى باللقــاء

بعد الرحلة لم يعد أحدٌ يخبرني بموعد اللقاء..

كلمة «اللقاء» وحدها كانت تعني لقاء الأسرة الدوري، عَرَفْتُ بعدها أن المسؤول قد تغيَّر، وأن تَجْرِبَتِي عُضْوًا «تربويًّا» غير منتظم قد انتهت، كنت أعرف منذ بدأت أن هذا اليوم قادم لا محالة.

لم تمضِ سنتان أو ثلاث إلا ومعظم من كانوا في أسرتي كانوا قد تركوا التنظيم، وخرجوا من الصف، ولم تمضِ خمسُ سنين أو ست حتى كان الكثير ممن كانوا في معسكر العريش نفسه خارج الجماعة أيضًا، وساعتها حمدت الله أنني لم أعش أيَّ تَجْرِبَةٍ تنظيميَّةٍ، ولم يأتِ عليَّ اليومُ الذي أقول فيه مثلهم «يومًا ما كنت إخوانيًّا»، فمعظم الذين خرجوا والذين يطلق عليهم بين جيلنا الآن «X إخوان» لديهم خصومات ومشاكل وهواجس مع الإخوان ومع أي فكرة أو منظومة أخرى ينتظمون فيها بسبب تَجْرِبَتِهِمْ في الجماعة.

وفي الوقت نفسه حمدت الله أيضًا أنني لم أُحْرَمْ بِشَكْلٍ كاملٍ من مصاحبتهم والانتفاع بتربيتهم وإرثهم الإسلامي الكبير، فالبعيدون عن الجماعة بشكل كامل لديهم أيضًا مشكلات في فَهْمِ طبيعةِ أعضائها وجوهر فكرتها

ومنطلقاتها، ولديهم حرمان من معايشة مجتمع إسلامي متماسك كالإخوان، وكل ذلك مهم لكل من يتصدر للعمل في الساحة الإسلامية مهما كان.. ولم يكن هذا الدرب الوسط إلا إيمانًا قُذِفَ في قلبي من أول يوم؛ ليس لي فيه أي فطنة أو ذكاء: أن دوري لن يكون في أي من المسارات الإسلامية المخطوطة بالفعل، ولكن في مسار جديد أَخْتَطُّهُ أنَا، أو يختطه أحدُ أبناءِ جيلي.

الحراك الخارجي

تعرفت في أثناء عامي الجامعي الأول على شاب من حزب العمل الإسلامي، ذلك الحزب الذي كان اشتراكيًّا ثم أصبح إسلاميًّا على يد أحد قادته الأستاذ عادل حسين، كان المسؤول عن نشاط الجامعة صريحًا معي من أول جلسة طلب أن أنضم للحزب، وبادلته الصراحة بأنني مستعد لخوضِ التَّجْرِبَةِ معهم لمدة عام بعدها أحدد الانضمام من عدمه. كان أكثر ما يجذبني للحزب هو ثوريته المنقطعة النظير، فمع أول لقاء مع أمينه العام مجدي أحمد حسين أهداني كتابه المعنون بـ«لا»، وكان عبارة عن تجميع لمقالاته التي ينتقد فيها رأس السلطة المِصرية: حسني مبارك.

كانت أدبيات الحزب تَعُدُّ أمريكا وإسرائيل عدوَّين استراتيجيَّين، وَتَعُدُّ الجهاد خيارًا استراتيجيًّا، وَتَعُدُّ حسني مبارك والحزب الوطني عملاء استراتيجيين أيضًا لهؤلاء الأعداء المذكورين، لكن أدبياته تلك لم يكن لها أيُّ قوة حركية على الأرض، وفي الأغلب هذا هو السبب الذي لم يجعل الجهاز الأمني يتعامل معهم بقسوة، فقد كان الحزب مجمدًا بمقاره وإمكاناته، ولم يكن يملك إلا مركزًا بحثيًّا بالمنيل يجتمع فيه أعضاؤه في اللقاءات والاجتماعات والندوات المختلفة.

كان حزب العمل بوابتي للخروج إلى عالم مختلف، فللمرة الأولى أجد إسلاميين على المستوى السياسي فَقَطْ، فقد رأيت الذين أخذوا من الجانب الإسلامي جزءًا من شعائره مجتزَئًا على يد الدعاة الجدد، لكن هؤلاء

(أعضاء حزب العمل) لديهم تصورات إسلامية قُحَّةٌ عن السياسة والدولة، ولكن على المستوى الاجتماعي تبقى ممارساتهم متواضعة للغاية، فمحذورات إسلامية بسيطة مثل الاستماع للأغاني أو التدخين تجدها عند بعضهم.

كان جانبهم الثوري يجعلهم في نظري أقرب للفَهْمِ الإسلامي من الإخوان، أقرب كثيرًا من طريقة الجماعة في المهادنة واللعب السياسي الذي ليس له هدف إلا إبقاء الوضع على ما هو عليه، الأمر الذي بدأ يشككني في أن وجود الجماعة في حجم معين هو مسار رئيسي لبقاء السلطة نفسها، ولكن كان جانبهم الاجتماعي يجعل الإخوان في نظري فريقًا إسلاميًّا لا بديل عنه.

لم تكن هذه هي الحالة الإسلامية الغريبة الوحيدة التي عرفتها خلال هذه الفترة، بل عرفت حالة إسلامية أغرب، حالة فكرية فَقَطْ، ليست اجتماعية ولا سياسية.

ففي إحدى ليالي شتاء ٢٠٠٥ ذهبت لأحضر ندوة لمفكر إسلامي سمعت عنه غير ذي مرة، كانت محاضراته تقام في جمعية يترأس مجلس إدارتها، وهي جمعية «مِصر للثقافة والحوار» شقة متوسطة المساحة في الدور الأرضي، تزدحم بها المقاعد البلاستيكية وتتوسطها منصة صغيرة تنتظر المحاضِر، بدا الحضور عاديًّا بالنسبة لمحاضرة فِكر إسلامي، بعض الحاضرات يضعن الإيشاربات الصغيرة على رؤوسهن وكثير منهن يظهرن شعيرات من تحت "التحجيبة"، وبعضهن يلبسن البناطيل، ويسلمن على الرجال، والرجال بدورهم نادرًا ما تجد منهم ذا لحية ولو خفيفة، والجميع منسجمون يتناقشون في أمور سياسية وفكرية إلى أن وصل الدكتور محمد سليم العوا، وسلم على الحاضرين والحاضرات، وبدأ محاضرته.

دهشت للمشهد الذي لم أعتد عليه ولم أره من قبل في مجتمعنا، العوا يتحدث عن التاريخ الإسلامى، العلم، والفقه، والعقيدة، والمذاهب والمدارس

والحركات الإسلامية، يتحدث بشكل باهر يصدر عن منظومة فكرية تبدو متسقة ومتناغمة، مضمون عميق ومعجم رصين، ومع كل ذلك تلك الأجواء التي حوله تفصلني عن المحاضرة وتأثيرها تمامًا، فكأنما هي تسير في اتجاه وكل ما حوله يسير في اتجاه آخر.

لم تكن آخر مرة أحضر فيها للعوا، أو أتردد فيها إلى الجمعية، بل كنت على موعد في الأسبوع الذي يليه بمحاضرة للدكتور عبد الوهاب المسيري الذي كان على موعد حفل سينمائي مع زوجته إثر المحاضرة مباشرة. وكان المستشار طارق البشري في المرة التي تليها يتحدث عن الحركة الوطنية، وعن سعد باشا زغلول، وعن محمد علي باحترام ووقار شديدين!

طريقة التعامل بينهم والمظهر وبعض الأفكار الغربية على فضائي الإسلامي، كل هذا جعلني أفقد اتزاني، وجعلني أعيد تعريف الحالة الإسلامية ومحدداتها، الإخوان بأناشيدهم وَخُمُرِهِنَّ.. السلفيون بعلمهم وَلِحَاهُمْ.. حزب العمل بثوريته وإسلامه السياسي.. الوسطيون بمفكريهم وأدواتهم.. كلٌّ لديه ما ليس لدى الآخر، وإن كان الإخوان لديهم أكثر من الجميع.. لديهم المحضن الذي تستطيع أن تحيا فيه وتتنفس، فقد تكون مستهدفاتك (إسلاميًّا) خارج دائرة السياسة أو العلم الشرعي أو الفكر؛ لكنها قطعًا لن تكون خارج الدائرة الإنسانية التي تحقق فيها ذاتك أولاً كإنسانٍ يحتاج إلى المجتمع الإسلامي.

لم يكن هذا كل ما يحويه العالم الخارجي، فقد كانت سنة ٢٠٠٥ هي ذروة نشاط حركي وسياسي في بر مِصر، فتح لي نافذة على أطياف أخرى في المجتمع لها فكر وحركة ورسالة ما لكنها غير إسلامية شكلاً ومضمونًا، تتقاطع مع أهداف إجرائية ومرحلية مثل محاربة الفساد، والتصدي للتسلط والديكتاتورية.

التحقت في صيف هذا العام بجريدة إلكترونية تُحْسَبُ على إسلاميين مستقلين، فأتيحت لي الفرصة لمتابعة فعاليات كل التيارات والحركات السياسية في هذه الفترة، واحتككت بالاشتراكيين، والليبراليين، والناصريين، والقوميين، وحتى الملحدين، فقد كانت تجمعات «كفاية» ومن بعدها «٦ إبريل» تجمع كل هذه الأطياف.

«يسقط يسقط حسني مبارك».. هتف أحد المندسين في وسط التظاهرة التي التزمت سلالم نقابة الصحفيين.. لم أصدق أذني.. نسيت مهمتي الصحفية ورحت أردد خلفه بأعلى ما أوتيت من صوت ومعي عشرات، لم يلبث أن كمم أفواههم المئات من حولنا، لقد كان مشهدًا فاصلاً لن يُمْحَى من ذاكرتي!

كانت تظاهرة إخوانية ولكن دُعي إليها رموز القوى الوطنية، للمرة الأولى التي يختفي فيها الأمن من أمام نقابة الصحفيين في وجود تظاهرة ضخمة مثلها، نشر هُتَافُ إسقاط حسني الذعر بين الإخوة، وقبضوا ألسنتهم وأيديهم وغيروا المسار في لحظات بهتاف محفوظ.. يا حرية فينك فينك أمن الدولة ما بينا وبينك!

كانت تظاهرات كفاية الأسبوعية الأربعائية معلنة الزمان والمكان تشعل الحماسة في شوارع وحواري القاهرة، وكان الحضور الإسلامي منسحقًا فضلاً عن المبادرة، كنت مذهولاً من قدرة الإسلاميين على التنظير لعدم مشاركة هؤلاء في تلك الحركة الاحتجاجية الآخذ مداها في الاتساع، كانت أحاديث «كلمة الحق لدى سلطان جائر».. وأناشيد «لبيك واجعل من جماجمنا لعزك سُلَّمًا» تتهاوى أمام عيني.. وأنا أتذكر مشهد الإخوة الذين يمتنعون عن قولتها، أخذ هُتَافُ كفاية يتصاعد وشاهدت تلك اللحظة التي أغلق المتظاهرون فيها ميدان التحرير وهم يهتفون الهتاف نفسه، لم يكن ذلك في ٢٥ يناير ٢٠١١، بل كان في ٧ سبتمبر ٢٠٠٥ حيث توقف الميدان

خَمْسَ عَشْرَةَ دقيقةً كاملة قبل أن يتحول الحشد إلى شارع محمد محمود الذي أصبح خاليًا من المركبات والمارة بطوله وعرضه، به زهاءُ ألفِ متظاهرٍ فَقَطْ، والهُتَافُ يَرُجُ الشارع.. يسقط يسقط حسني مبارك!

كنت أحاول إقناع بعض أصدقائي الإسلاميين من الإخوان والسلفيين أن نبادر بتأسيس حركة شبابية إسلامية ثورية، لكن الأمر باء بالفشل، فاقتصرت على مشاركة شباب حزب العمل في الفعاليات الدائمة والمستمرة طَوَالَ هذه الفترة.. الفعاليات تستمر، يعلو الهُتَافُ، ويضرب الأمن المركزي الكردون.. ترتفع العِصِيُّ وتتشابك الأيدي.. تنتهي التظاهرة بالنشيد الوطني الجديد: كفاية كفاية كفاية.. كل ظالم وليه نهاية.. مِصر يا أم البلاد.. لسه فيكي اضطهاد.. في السياسة والاقتصاد.. عايزه ثورة يا بلادي.. عايزة ثورة يا بلادي.

إخوان ٢٠٠٥

كانت بداية العام الجامعي في ٢٠٠٥ على موعد مع تغيير جِذْرِيٍّ في شكل الجماعة داخل الجامعة وطريقتها وأداء طلابها، حيث فُوجِئَ الجميع بطلاب الإخوان في أول يوم من أيام الدراسة يعلقون بطاقات على صدورهم وصدورهن مكتوب عليها بخط واضح «طلاب الإخوان المسلمين»، وكانت تحركاتهم قبل ذلك تحت أسماءِ أُسَرٍ طلابية مختلفة، أو تحت اسم «التيار الإسلامي»، وَزُيِّلَتْ كُلُّ اللافتات الدعوية والسياسية في الجامعة باسم وشعار الجماعة، أدركت أن الجماعة تستنفر كل طاقتها لخوض معركة الانتخابات البرلمانية المقبلة، وتريد أن تضرب بقوة بذراعها الجامعي.

كانت خطوة موفقة، فبغض النظر عن جوانبها الأمنية أو السياسية؛ فقد كنت مهتمًّا بجوانبها الاجتماعية أن أعلن عن كوني إخوانيًّا، بلا أي مقدمات، ويبدأ الآخر في مراقبتي وفهمي أكثر.

واكب خطوة الإشهار انفتاحًا على التيارات السياسية الأخرى في الجامعة وخارجها، ففي الجامعة دعا طلاب الإخوان إلى تشكيل جبهة سميناها لاحقًا بحركة «جامعتنا»، وكان موقعي بين طلاب حزب العمل (الذين يُعَدُّونَ على الأصابع) يسمح بأن أكون أحد ممثليهم في الاجتماعات التحضيرية لهذه الحركة الجديدة، حاولت أن أقنع القيادات الطلابية الإخوانية أن الأجدى هو تشكيل تكتل إسلامي، لكني لم أَكُنْ أُدْرِكُ أَنَّ الهدفَ من التكتل هو

الضغط على الرأي العام خارجيًّا وداخليًّا، وأن التكتل الإسلامي مهما كان تأثيره في الواقع فلن يصيبَ ذلك الهدف.

الإخوان، والاشتراكيون الثوريون، والناصريون، والقوميون، والمستقلون، وأحزاب العمل، والغد، والكرامة.. كان كل هؤلاء ممثلين في «جامعتنا»، مع ثاني الاجتماعات التحضيرية استقلت من حزب العمل وانضممت إلى المستقلين تثقيلاً لِكِفَّةِ الإسلاميين بشكل عامٍ في هذه الجبهة. الجلسات التحضيرية جعلتني أحتك بكل هذه التيارات على مستوى قياداتها الشبابية، وجعلني أقترب أكثر من العقلية التي تدير بها قيادات الجماعة الساحة الجامعية، واستطعت في نهاية التجربة أن أكونَ مقنعًا للجميع حتى نيطت بي مسؤولية صياغة البيان التأسيسي للحركة.

«إننا مجموعة من الطلاب المِصريين المنتمين إلى عدد من التيارات والحركات السياسية والناشطين المستقلين، طالعنا تاريخ الحركات الطلابية المِصرية ونضالها فوعيناه، ورأينا مآسي الواقع في جامعاتنا من فساد في مؤسساتها، وتقييد لحرية طلابها، وتقصير في مناهجها التعليمية، وتهميش لدورها في مجتمعها؛ فأنكرنا ذلك الواقع، وحلمنا بالتغيير.. حلمنا بجامعة مستقلة، ونضال وإبداع متحرر، ودور فعال في نهضة مجتمعنا؛ فقمنا نشق طريق حريتنا بأيدينا.. جبهة واحدة.. نحدد أهدافًا نصل من خلالها لغاياتنا».

وكانت الأهداف متعلقة باللائحة الطلابية، وطرد أمن الدولة من الجامعة، وخفض مصروفات الكتاب الجامعي، وتجديد بعض المناهج، وإثر إلقائي لهذا البيان التأسيسي في مؤتمر ضخم بنقابة الصحفيين كنت الوحيد على المنصة الذي لم يعلن عَنِ انتمائه، وفي اللحظة التي فرغنا فيها سألني أكثر من شخص عن هذا الانتماء، فوجدت نفسي أجيب عن سؤال يُسأل لي لأول مرة: إسلامي مستقل، وكانت الإجابة تطرق آذان الجميع لأول مرة أيضًا، حيث اشتهرت بها منذ ذلك الحين في التظاهرة الأولى لحركة «جامعتنا»،

حمل أحد الرفقاء الاشتراكيين رفيقته التي كانت تهتف بحماسة على كتفه وسار بها في مقدمة التظاهرة، امتنع الإخوة عن الهُتَافِ خلف صاحبة الجينز الضيق والشعر المنثور، وتفرقت التظاهرة، وكانت تلك الفعالية هى الأولى والأخيرة لحركة «جامعتنا» على الأرض، وعادت فكرة تجميع كل التيارات إلى منصات المؤتمرات والقاعات المكيفة وفَقَطْ!

ولم يكن هذا الإخفاق بالشيء الخطير أمام العمل الأكبر الذي كان الإعداد له على قدم وساق، حيث كانت جامعة القاهرة بعدها بأيام في انتظار حدث لم تشهد من قبله مثيلاً.

صباح العاشر من أكتوبر ٢٠٠٥، أبواب الجامعة مفتوحة على مِصْرَاعَيْهَا، ولا يوجد رجل أمن واحد يعترض طريق أي طالب، سويعات وكانت الحشود تتقاطر على أبواب الجامعة من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ. آلاف الطلاب من جامعات مِصر المترامية (من الإسكندرية وحتى أسْيُوط) انتظموا في مسيرة ضخمة من عشرين ألفَ طالبٍ إخواني، طافت أرجاء الجامعة، مسيرة جعلت الطلبة يقفون عند موضع ليروا نهايتها فتمر نصف ساعة كاملة قبل أن تدرك أبصارهم آخرها.

كان مشهد الطالب الأسمر صعيدي اللهجة وهو يهتف (والعرق يكلل هامته) في مجموعته التي سافرت سبع ساعات بالقطار لتصل في موعد التظاهرة: «حسن البنا يا شهيد.. جيلك راجع من جديد» يجعل قلبك يخفق خفقة لا يعرفها إلا من حلمه أن يرى:

هذى الجموع غدًا سَيُجْمَعُ شملها فى دولتى

ولســـوف تنهض كى تحطم باطلاً فى جـولتى

ولسوف تعلو فى الآفاق الشامخات بنـــودها

لبيك إسلام البطولة كـــلنا نفدى الحـــمى

انتهت المسيرة واكتمل توافد الحشود وتوسطت الشمس كبد السماء، لم يبق على ساحة جامعة القاهرة الرئيسية موضع لقدم، الغبار يسد الأفق من ضرب الأقدام، والهُتَّافُ يكاد يصدع مباني الجامعة العتيقة منتظمًا مع الضربات على الأرض: مجد الإسلام قادم.. من كل مكان قادم.. قادم قادم يا إسلام.. حاكم حاكم يا قرآن.. قادم.. قادم..

شعرت الحشود فجأة بقوتها واكتمال عُدَّتِهَا وعديدها فهتف الجميع بشكل هيستيري غير منتظم «الله أكبر ولله الحمد.. الله أكبر ولله الحمد.. الله أكبر ولله الحمد».. وكانت اللحظة التي لم أشعر بنفسي إلا ساجدًا على الأرض وسط الميدان أدعو الله أن يكون هذا الحشد في سبيله.

كنت على يقين أن هذه الحشود لو سارت في الشارع مِائَتَيِن من الأمتار فَقَطْ لأسقطت النظام، لكنني كنت أعلم أيضًا، أن المفاوضات مع الأمن كانت على التظاهر داخل أسوار الجامعة حتى الثالثة عصرًا، وأن أي خرق للاتفاق سيكون نتيجته اعتقال حَوَالَيْ أَلْفَي طالبٍ، كل شيء معد سلفًا، اللحظة التي تنفعل فيها وتظن أن المشهد بطولي تفيء منها سريعًا إلى عقلك: لتعرف أن المشهد مرسوم بإحكام ودقة، وأن أيَّ ارتجال مرفوض وغير متاح لِأَنْ تسمحَ لخيالك به أصلاً.

المرحلة الثالثة من القراءات

بّاب مدرج (٦) يكاد ينخلع مِن ازدحامِ الطلبةِ المحشورةِ أَجْسَادُهُمْ بين مفاصله رغبة في أسبقية الدخول وحجز مواقع متقدمة في المدرج، الأعداد تأخذ تدرجيًا في الانحسار، دقائق ما قبل المحاضرة فرغت هذه المرة من خطب الإخوان أو بيانات الاتحاد، منفردًا قمت أشغل الميكروفون وألقي على الطلبة بعض ما أهمني من تصرفات الاتحاد، وأحاول تشجيعهم على خوض غمار الأنشطة في الكلية وخارجها.. يستدعي الطلبة المجندون أمنيًا زملاءهم في الاتحاد، يدخلون مفزوعين من تجرأ؟ طالب ليس له صفة رسمية للتحدث في الميكروفون، بسط أحدهم يده ليأخذه فأعطيته إياه، بدأ يتحدث فَعَلَا الضجيجُ في المدرج بأكلمه، سكت لحظات، ثم صحت بصوتي عاليًا فسكن الجميع، تحديته بنبرة عالية: أي شرعية تتحدث عنها وأنا صوتي بلا ميكروفون أعلى من صوتك ومعك المايك.. الطلبة هم من يقررون لمن يستمعون، خرجوا تذمرًا وخجلاً من المدرج محمرة أوداجهم، والتصفيق والهتاف يعلو.. دخل الأستاذ مباشرة فسكن الجميع مرة ثانية.

شيخ ستيني ليس بلحيته ولا رأسه شعرة سوداء، هادئ الصوت بدأ يحدثنا عن منهج الفلسفة الإسلامية الذي سيدرس لنا مقدمة فيه، وأخذ يذكر الكتب والمصادر التي سيعتمد عليها في منهجه، وبالطبع لسنا مطالبين إلا بكتابه وفَقَطْ.

كانت المرحلة التي وصلت إليها بدخولي الجامعة تستدعي نقلة نوعية في المدخلات التي تبني على المراحل السابقة، فلم تعد الفكرة وحدها كافية، ولم تعد مهمة القراءة هي إفهامي معنى «الإسلامية» ذاتها، ولا مقتضياتها من حمل هم الأمة، والاستخلاف، وتوقيف نيات كل فعل وقول وحركة وسكون لله، ولكن أصبحت الأسئلة تدور حول المنهج والطريق والفهم الذي تطبق به هذه الأفكار وتلك المبادئ.

فبعد فترة توقف في أثناء سَنَتَيِ الثانوية العامة عن القراءة بحجة أنه لا يوجد في هذه الفترة «كلمتين ينفعوك» سوى في كتب وزارة التربية والتعليم كما يتواتر عن أفراد مجتمعي، ساق الله لي زمرة هذه المصنفات التي ذكرها أستاذ الفلسفة كأنما هي سلسلة تصدر عن كاتب واحد، أو مجموعة فكرية متسقة، أو حتى دار نشر واحدة.. كان بينها خيط رفيع ناظم عجيب.

فمن أول «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان، إلى «الإسلام بديلاً» لمراد هوفمان، إلى «الإسلام بين الشرق والغرب» لعلي عزت بيجوفيتش، و«الإسلام على مفترق الطرق» لمحمد أسد، و«الإسلام وأزمة الغرب» لروجيه جارودى، و«أزمة العالم المعاصر» لرينيه جينو أو عبد الواحد يحيى.. شكلت كل هذه المصنفات منظومة ما أضيف إليها نكهات خاصة من رحلة المسيري الفكرية وسلسلة طارق البشري: في المسألة الإسلامية المعاصرة.

تربعت هذه الكوكبة على عرش أفكاري، ورسمت لي مرة أخرى خريطة الأزمنة الثلاث ماضيها وواقعها وقابل أيامها بريشة هؤلاء الكتاب غير العرب، وحيد الدين خان الهندي الذي أخذني في جولة إيمانية شديدة العمق من مدخل علمي بحت، فكأنما فتح لي طاقة جديدة في السماء، علم كلام جديد بكل ما تحمل الكلمة من مَعَانٍ، ثم يطوف بي الألماني حديث الإسلام مراد هوفمان في المفاهيم الشائكة عند الغرب عن الإسلام وقضاياه الكبرى، ويطرح رؤاه للسوق والاقتصاد والمرأة والحجاب، والقوانين وحقوق

الإنسان، يكشف لك كنوزًا منثورة خافية عن الأنظار؛ حتى يُسلمك إلى ذروة هذه الثريا، وفارس تللك النخبة، إنه الرئيس المسلم علي عزت بيجوفتش، وكتابه العلم «الإسلام بين الشرق والغرب»، رؤية كونية جديدة للحياة عبر منظور إسلامي، ثنائيات بيجوفيتش عبر مصنفه الفريد تجعل المفاضلة التي تربيت عليها تتضح أكثر بعينك، وتراها في كل شيء حولك بين الطوبيا والدراما.. الريف والمدينة.. الفن والدين.. الجواني والبراني!

عظمة الكتَّاب أنفسهم وسيرهم كانت أكثر ما يجعلني أسير كتاباتهم، فهذا علي عزت الذي كلل كفاحه الطويل برئاسة البوسنة، وذاك محمد أسد النمساوي اليهودي الذي أسلم.. الكاتب الصحفي اللُّغوي الرحالة الدبلوماسي، النجم بكل ما أوتي ذلك المصطلح من وجاهة ورونق في عالمنا الحالي، وهذا الشيخ عبد الواحد يحيى، أو الفيلسوف الفرنسي رينيه جينو الذي أسلم وقدم إلى مِصر وتُوُفِّيَ بها بعد أن أحدث إسلامه هزة في أوساط أوربا.. كل الرِّحْلاتِ التي قطعها هؤلاء تجعل في كتاباتهم نكهات خاصة بين العلم والتجربة.. المعرفة والحركة، لا توجد في غيرها.

وإذا كانت إسلاميتي في الطفولة جاءت بالفطرة والبيئة التي فيها حييت، وفي المراهقة تأكدت بمدخلات الحركات والتيارات الإسلامية على الأرض؛ فإن هذه المرحلة الثالثة كانت بمنزلة إعلان جديد عن هذه الهوية التي أصبحت راسخة من نفسي رسوخ الأصابع من راحتي.

أخذت أعب من هذه الصفحات المشرقة، أقرأ وأدندن بكلمات محمد إقبال، شاعر الإسلام:

أضحى الإسلام لنا دينا   وجميع الكون لنا وطنا

توحيد الله لنا نورٌ   أعددنا الرُّوح له سكنا

الكون يزول ولا تُمحى   فى الدهر صحائف سؤددنا

أحبكِ

أحبكِ كالأيامِ إذ أنت مثلها   تذكِّين فى نفسى أعز مواهبى

وما هى إلا نظرة شاعرية   تعبر عما شئته من رغائبِ

فتسرى إلى نفسى مضاء وجُرأة   ووثبة حساس وعزمة راغب

وقف أستاذ الجامعة الكبير عند هذا البيت وأخذ يفتق ما فيه من معانٍ، ويمدح ما تضمن من بلاغات، كان يحكي بالغيب عن ناظمه قائلاً: قصد الشيخ سيد، أبدع الشيخ سيد، ترون ما ينظم الشيخ سيد، كنت غريبًا عن المحاضرة التي هي لطلاب الفرقة الرابعة، وأنا ما زلت في الأولى، ولكن الأبيات والكلمات شدتني من خلف باب المدرج فقررت أن أحضر، اكتشفت بعد نصف ساعة تقريبًا في آخر القصيدة أن الشيخ سيد هو.. سيد قُطب، رقص الدم في رأسي ساعتها نشوة وفرحًا.

لما كنت أسأل عن الحب في فترة البلوغ (عندما كنت شيخًا للمدرسة أسأل في كل شيء) كنت أقول لا وجود له، محض هراء ودعوة للرذيلة يسوغون بها ما ظهر من الفواحش، وما بطن في الأفلام، والمسلسلات، والأغاني، والقصص الرومانسية.. كنت محقًّا تمامًا، فلم أكن قد سمعت ساعتها كلمة «أحبك» في أي موقف إلا باعتبارها كلمة «مُحلِّلة» لكل إثم بعدها، كأنها

عقد المأذون، أو كلمة الله التي بها تستحل المرأة، فتجدها قد أسكرتها وأسلمت للممثل فورًا فاهها يستبيحه في وقاحة تمتد لبقية جسدها، كنت محقًّا تمامًا: لأني سمعتها مرارًا وَتَكْرَارًا في الأفلام وفَقَطْ، ولم أرَ أو أقرأ عن زوج وزوجة تقال بينهما!

عندما كبرتُ قليلاً وأصبحت في الثانوية سُئِلْتُ السؤال نفسه فأجبت: حتى الآن لا أعترف به، فهو شيء معنوي إذا ذقته عَرَفته، وإذا لم تذقه بعدُ أنكرته حتى يطرق قلبك.. كنت أيضًا محقًّا، فالنظرات البريئة من أعين الفتيات ذوات السمت الإسلامي كانت تشعرني بأن شيئًا ما يتحرك داخلي لم أَخْبُرْهُ بعد.

وعندما سمعت أبيات سيد قُطب وواكبتها عشرات الأبيات والقصص والأخبار عن سير الحب والمحبين الحميدة منها، والتي انتهت إلى كتاب ابن حزم الأندلسي الفريد «طوق الحمامة في الأُلْفَةِ والأُلَّافِ» أدركت الجريرة التي ارتكبتها الحالة الإسلامية باسم الطهارة والعفة، وباسم «درء المفسدة المقدم على جلب المصلحة»، وباسم غلبة الضر على النفع: فاستأصلوا معاني الحب قاطبة من مسارات الحياة، وتركوا «أعداء الأمة» يكملون مهمتهم ويلوثون ما بقي من معانيه، ويشوهونها في أعين أجيال كاملة.

كان زميلي الشاب الشاعر أنشأ قصيدة بعد انتهاء عامه الجامعي الأول وسماها: هي، كان مطلعها:

أحـببتها وعـلمت أن محبتي وقف على نظـراتي

فنعم، لتحبَّ كما شئت، ولكن هيهات أن يسمح لك مجتمعك إسلاميًّا كان أو غير إسلامي بأن تعلنها للملأ «أحب»، فهو في هذا الباب يحتكم لإله واحد، العرف والتقاليد، شَهادة التخرج، والوظيفة، الشقة والأثاث، وكل ما لم ينزل الله به من سلطان.

كان الأمر يعتصرني، كيف يقول أبو ذر الغفاري رضى الله عنه : عجبت لمن لم يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس بسيفه، ولا نجد من مشايخنا ولا كبار رجال دعوتنا اليوم من يقول : عجبت لمن يُحال بينه وبين العفاف كيف لا يخرج على أصنام المجتمع بسيفه!

كيف يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم سائراً ليلاً في طرقات المدينة يتلمّس حاجة المسلمين، فإذا به يسمع فتاة من خلف خبائها، لا تشتكي جوعاً ولا عطشاً، وإنما تشتكي حباً، وتنشد تلك الأبيات:

وهويته من قبل قطع تمائمى	متمايساً مثل القضيب الناعم
وكأن نور البدر سنة وجهه	ينمى ويصعد فى ذؤابة هاشم

فدقَّ الصديق عليها الباب فخرجت إليه، فقال: ويلك أحرَّة أنتِ أم مملوكة؟ فقالت: بل مملوكة يا خليفة رسول الله، قال: فمن هويت؟، فبكت ثم قالت: بحق الله إلا انصرفت عني، قال: لا أريم أو تعلميني، فقالت:

وأنا التي لعب الغرام بقلبها .. فبكت لحبِّ محمد بن القاسم

فصار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب، وقال: هؤلاء فتن الرجال، وكم قد مات بهن من كريم وعطب عليهن من سليم.

كيف بعد موقف كهذا أطالعه (وعشرات من أشباهه) في "روضة المحبين ونزهة المشتاقين" ولمن؟ لابن القيم الجوزية، أحد أعمدة المدِّ السلفي الحالي، كيف لا أكون حانقاً على فهم الإسلاميين وتعاملهم في هذا الباب!

لم يُخرجني -قليلاً- من حالة الحنق هذه التي بدأت تصيبني إلا بعد أن سمعت الكلمة لأول مرة في «أنشودة إسلامية»، كانت الألحان نفسها مختلفة والأدوات المستخدمة شبه موسيقية، دفوف على عزف خفيف خافت لا يكاد يُسمع، بدأت الأنشودة بتلك الكلمة السحرية بالفعل:

أحبكِ.. أحبك مثلما أنت.. أحبك كيفما كنت

ومهما كان مهـــما صـــار أنت حـــبيبتى أنـت

حـــلالى أنت لا أخـــشى عـذولاً همُّـــه مـقتى

لقد أذن الزمـــــان لنـــا بوصـــل غـير مـــنبتِّ

سقيت الحب فى قلبى بحسـن الفعل والســـمتِ

يغيب السعد إن غبتِ ويصفو العيش إن جئتِ

كان أحمد أبو خاطر المنشد الجديد، الذي أضاف لي مساحات جديدة في الإنشاد لطالما بحثت عنها وتمنيتها طويلاً، كانت كلماته شجية ومفعمة بالمعاني التي تؤدَّى دون صخب مفتعل، كانت كلمات لأول مرة لا تستطيع إنشادها جماعيًا في معسكر أو كتيبة، وإنما تصلح لأن تدندن بها ورأسك مائلة على زجاج المترو شارد الذهن في اللاشيء في أثناء ذَهَابِكَ وإيابك من الجامعة:

ما عاد يحيني سكوتى والبكا   أنا لست مجبولاً على الخِذْلان

أنا فى ضميرى الشمس تشرق عزة   وأنا الثريا همة وتفانى

أنا مسلم والمجد يقطر كالندى   والعزُّ كلُّ العزِّ فى إيمانى

أنا للحياة دواؤها ورواؤها   وأنا الشهاب إلى مدىً سترانى

أختتم الكلمات فينطلق الهُتَافُ بمدرج الأنشطة في الكلية.. تنتهي الفقرة وتبدأ أخرى، شاب يلهب حماسة الجمهور الدرعمي بقصيدة ابن دار العلوم هاشم الرفاعي الشهيرة «رسالة في ليلة التنفيذ»:

أبتاه ماذا قد يخط بنانى ... والحبل والجلاد منتظرانى

هذا الكتاب إليك من زنزانة ... مقرورة صخريةُ الجدران

لم تبق إلا ليلة أحيا بها ... وأحس أن ظلامها أكفانى

ستمرُّ يا أبتاه لست أشك فى ... هذا وتحمل بعدها جثمانى

أستأنف اعتلاء المنصة.. أنطلق بآخر ألوان الإنشاد جِدة، وآخر طفرة في مسيرة المنشدين، إنه سامي يوسف.. أنطلق بحذر ومحاولة لتلقيد اللكنة:

My Ummah.. My Ummah.. He will say Rasulullah on that day
Even though we`ve strayed from him and his way
My brothers, my sisters, in Islam.. Let`s struggle, work, and pray
If we are to bring back the glory of his way

بدأت الموسيقى تتضح أكثر وأكثر، وبدأ الشباب يتلعثم قليلاً عندما يخبرك عن إنتاج لمنشد جديد: سمعت آخر أغنية لسامي يوسف، أقصد آخر أنشودة! عفوًا لم يعد الفرق واضحًا كذي قبل.

لم أعد أقابل نظرات الفتيات على منصة الإنشاد بنفس الذي كنت أقابله في الثانوية؛ فالآن الوضع اختلف، الآن أخوض حروبًا من أجل حب إحداهن تعلقت بها منذ شهور، أفلحت في كسر حاجز العمل في أثناء الجامعة

والاعتماد على نفسي، لكنني لم أفلح في كسر أي من الحواجز الأخرى، كلّ مِعْولي وسقط فأسي وما زال هناك بقية من الأصنام لم تمسَّ بعد، لم أفقد الأمل ورحت أتحين فرصة للخروج من الجامعة بين أصابعي علامة النصر، خاتم فضي صغير في باطنه قد حُفر اسمها.

التــدوين

كان استخدام الإنترنت يقع في دائرة زيارة المواقع الرائدة مثل: إسلام أون لاين، وإسلام واي (طريق الإسلام)، والجزيرة نت، وكانت هذه المواقع إضافة إلى موقع إخوان ويب مسرحًا للنشاط الإخواني.. أو التفاعل بين مجموعات في المنتديات العامة والخاصة، وكانت منتديات مثل: منتدى أهل الحديث مسرحًا للنشاط السلفي العلمي.. أو التفاعل الشخصي على برامج الدردشة (الشات)، ولم يكن هناك مجالات أخرى ذات فاعلية.

دخلت المدونات عالمنا العربي وبدأ صيتها في الانتشار بعد أن أحدثت مدونة الناشط السياسي وائل عباس «الوعي المصري» ضجة غير مسبوقة في الصِّحَافَةِ والإعلام إثر نشرها مقاطع مرئية عن التعذيب في أقسام الشرطة، وتلاها عدد من التدونيات، وانضمت إليها مدونات كثيرة لشباب الناشطين من حركات كفاية و٦ إبريل، والاشتراكيين الثوريين وغيرهم.

وسرعان ما وجد شباب الإسلاميين ضالتهم في هذا العالم الجديد من التدوين، وبدؤوا في إنشاء مدوناتهم الخاصة، وبالطبع كان معظمهم من شباب الإخوان، وفي عدة أشهر أصبحت مدونات «أنا إخوان» و«مش هنبطل» و«يالا مش مهم» و«طرقة كيبورد» و«غريب» و«أنا كده» و«كراكيب فزلوكة» وغيرها -أصبحت ذات زخم في الفضاء الإلكتروني الإسلامي.

بدت الأفكار التي تطرح تغريدًا خارج السرب الإخواني نقدًا للجماعة وآلياتها في التعاطي مع المشهد السياسي للبلاد، وأسئلة حول مستقبل الحركة

الإسلامية وتصوراتها في مجالات الحكم والاقتصاد والفنون وغيرها، وكنا نشعر بالفخر أننا أحدثنا ضجة هائلة في صفوف الجماعة، وأصبحت هناك لجان كاملة مسؤولة عن متابعة نشاط التدوين للشباب على الإنترنت، ورفع تقارير انتشرت عنها الشائعات بأنها تذهب لخيرت الشاطر أولاً بأول.

كللت هذه المرحلة بمدونات جماعية مثل «انسى» التي كرست اهتمامها لقضية الإخوان المحالين للمحاكمة العسكرية، تنشر تفاصيل القضية خطوة بخطوة صوتًا وصورة، وتسرد قصصًا عن المعتقلين، وتروي على ألسنة ذويهم وأسرهم مواقف متنوعة. أما المدونة الجماعية الأخرى فكانت «أمواج التغيير» التي أشرف عليها طبيب الأسنان الشاب مصطفى النجار ونشر فيها عشرات الشباب مقالات مختلفة كلها تصب في بث روح جديدة، وضخ أفكار أرحب داخل هيكل الجماعة.

بعضها كان يعجبني خاصة ما يتعلق بتجديد الفكر الإسلامي، وتصعيد الصدام مع النظام، ووضع المرأة داخل الجماعة وداخل الحركة الإسلامية بشكل عام، وبعضها الذي يتعلق بشق التصورات السياسية؛ أشعر فيه بقدر كبير من الليبرالية التي لا أجدها تشترك مع الأرضية الإسلامية في كثير.

بدأت تجربتي الخاصة في التدوين في يونيو ٢٠٠٧، سميت مدونتي الأولى «البيارق»، وكانت تدوينتي الأولى «عندي عشرون» صرخة شاب إسلامي وصل سن العشرين من عمره ولم يجد في حياته من إنجاز يذكر أو يقاس بأسلافه من الذين بلغوا عمره وكان أثرهم أضعاف أضعاف ما وصل إليه.. كنت أصرخ في نهايتها.. «نعم عندي عشرون، وما عندي غيرها، عندي عشرون من السنين.. وما في كل من بلغ سني في هذا الزمان عشرون سيفًا من سيفك يا زبير.. ولا فيهم عشرون سهمًا من سهمك يا سعد (ابن أبي وقَّاص)، ولا يملكون عشرين بيتًا من بيتك يا أرقم، ولا حتى عشرين زوجة كزهرائك يا علي، ولا كأسمائك يا زبير، ولا بأيديهم عشرون قلمًا كقلمك يا

ابن سينا.. ولا يحكمون عشرين مترًا مما كنت تحكم يا محمد الفاتح.. نعم عندي عشرون وقد ضنَّ المجتمع على سني تلك بكل شيء، وحالوا بيني وبين كل إنجاز بأصنامهم تلك التي يدعونها تقاليد، فلتهبني ربي فأس إبراهيم أحطم بها هذه الأصنام التي لم أسجد لها في يوم من الأيام سجدة، ورغم ذلك حرمتني من كل شيء؛ حرمتني حتى من سكن ومودة.. نعم حرمتني حتى من حب امرأة تكون لي زوجة بلغت أنا عشرين عامًا، ولو رآني أحد من تاريخ أمجادي لخالني بلغت عشرين صفرًا».

كانت النزعة الغالبة على التدوينات التي أنشرها اجتماعية بحكم اهتماماتي في تلك الفترة، ربما كان السياسي منها يتحدث في قضية كبرى عن الأمة مثل حادثة اقتحام المسجد الأحمر بباكستان وبعض التحليلات التي اهتممت بها بعد حركة «الحسم» التي قامت بها حماس في غزة، أو عن كوسوفو بعد إعلانها الاستقلال من جانب واحد، لم أكن مؤمنًا بأن الشأن السياسي المِصري يستحق أن أفرد له مساحة كلام، فهو يحتاج لمساحة حرق لا غير.

كنت أتابع الحَرَاكَ الفكري للكثير من الشباب الإسلاميين غير الإخوان في مدونات مثل «المؤرخ» و«ربة السيف والقلم» و«أرض الحرب» و«وميض».

مدونات منتشرة يتحدث أصحابها في التاريخ، والاجتماع، والأدب الإسلامي، موضوعات جديدة لا أكاد أحصيها لكن أتذكر أن أكثرها غرابة كان رابطًا وضع في أحد المدونات لقصص جنسية إسلامية! قرأت منها ثلاث قصص تقريبًا واستمتعت بالتجربة التي كانت تناقش قضايا جنسية في المجتمع بشكل راقٍ للغاية وعميق في الوقت نفسه، ولا يمت لـ«أرخص ليال» (ليوسف إدريس) بأي صلة.

وصلتُ ذروة التدوين عندي بمدونة «الفراقد» التي بلورت فيها نظريتي القديمة عن «النجومية الإسلامية»؛ حيث أخذت أتتبع خيوطها من كل الاتجاهات، وشرعت في نثر هذه النجوم في سماء مدونتي الصغيرة، متفاجئًا

بأنهم تعايشوا في أزمان متقاربة للغاية، ولكنهم كانوا منتشرين على كل الرقعة الإسلامية.

ففي حقبة واحدة وهي مرحلة اليقظة استطعت أن أجد:

ولي الله الدهلوي في الهند (١٧٠٢ - ١٧٦٢م)، ومحمد بن عبد الوهاب في نجد (١٧٠٣ - ١٧٩١ م)، والشوكاني في اليمن (١٧٥٨ - ١٨٣٤)، والشهاب الألوسي في العراق (١٨٠٣ - ١٨٥٤)، ومحمد بن علي السنوسي في المغرب (١٧٨٧ - ١٨٥٩ م)، والإمام شامل في القوقاز (١٧٩٧ - ١٨٧١)، والأمير عبد القادر في الجزائر (١٨٠٧ - ١٨٨٣)، وجمال الدين الأفغاني في مِصر (١٨٣٨ - ١٨٩٧) ، ومحمد عبده في مِصر (١٨٤٩ - ١٩٠٥)، ومحمد بن أحمد المهدي في السودان (١٨٤٣ - ١٩٠٠)، وعمر المختار في ليبيا (١٨٦٢ - ١٩٣١)، ورشيد رضا في الشام (١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)، وعز الدين القسّام في فِلَسْطِين (١٨٨٢- ١٩٣٥م)، وعبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ - ١٩٤٠ م) في الجزائر، وبديع الزمان النورسي في تركيا (١٨٧٦ - ١٩٦٠ م)... أخذت أتتبع سير هؤلاء وأتخيل اليوم الذي أنتج لهم أفلامًا سينمائية أو حتى برامج تلفزيونية.. على الأقل مجموعة من الروايات العالمية.

إلا أن كل هذه الحركة التدوينية لم تؤت أكلها إلا بعد أن بدأ هؤلاء المدونون في اللقاء على الأرض عبر لقاءات المدونين، وبدأت أيضًا المجموعة الإخوانية منهم الترتيب لترجمة هذه الأفكار على الأرض من خلال مبادرة لها شق إصلاح داخلي في الجماعة مع شق عمل مجتمع مدني، حيث تجمع معظم هؤلاء الشباب في مبادرة قادها الدكتور مصطفى النجار استمرت مرحلتها التحضيرية عدة أشهر، لكنها لم تخرج للنور لأكثر من سبب؛ كان من ضمنها تهديد أعضائها بالفصل من الجماعة والتحقيق مع بعضهم بالفعل.

بيد أن هذه المجموعة أصبحت رائدة في الكثير من ساحات التغيير غير المرتبطة بالجماعة أو الإسلاميين عمومًا منذ ذلك الحين وإلى ما بعد قيام الثورة المصرية.

الإسلام الحضاري

صيف ٢٠٠٧، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، دورة التثيف الحضاري الثالثة.. غالبية الحضور طلاب عشرينيو العمر، هناك ثلة ثلاثينية أيضًا، الشباب أعرف بعضهم، أصحاب مدونات مشهورة أو معرفة قديمة في الإخوان، الفتيات مزيج بين ما نعهده من طالبات اقتصاد وعلوم سياسية.. حجاب غير تقليدي، غير ملتزم أحيانًا، وأيضًا ولأول مرة خمارٌ إخوانيٌّ خالص يرتديه عدد لا بأس به من الحاضرات.

مجموعة المحاضرين بدت أسماؤهم مألوفة لدي منذ أول يوم ترددت فيه على هذه الكلية في الأنشطة الجامعية المختلفة.. الأساتذة: سيف الدين عبد الفتاح، وهبة رؤوف، ونادية مصطفى، وإبراهيم البيومي غانم مع بعض الإضافات من هنا وهناك.. علي جمعة مفتي الديار، أو رفيق حبيب المسيحي الإخواني، نبيل علي مهندس اللغة، أو زينب الخضيري أستاذة الفلسفة، محمد عمارة المفكر الإسلامي أو طارق البشري الحكيم المؤرخ.

بدأت الدورة بمحاضرة الدكتور سيف عبد الفتاح، بدأ يتساءل من جديد، كما تساءل الندوي في أول طور فكري لي، في «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، وكما تساءل بيجوفتش في الطور الثاني، في «الإسلام بين الشرق والغرب».. تساءل الدكتور سيف من نحن؟ على أي أرض نقف، وفي أي سياق حضاري نسير؟

بدت إجاباته ترسم دائرة بها شيء من الجدة، لكنها محكمة أيضًا، علق في ذهني سباعيته المدخل القيمي: عقيدة دافعة، شرعة رافعة، قيم حاكمة، أمة جامعة، حضارة فاعلة، سنن ماضية، مقاصد حافظة.

توالت المحاضرات والمحاضرون من بعده، رفيق حبيب الإسلامي رغم مسيحيته، يمسك المسبحة ويستشهد بالآيات والأحاديث وشواهد التاريخ الإسلامي ويؤسس لـ«حضارة الوسط»، وعلي جمعة الشيخ الأزهري والمثقف الدارس في فرنسا، ذو الاطلاع الواسع على العلوم والفنون يتحدث عن العلوم البينية ومصادر المعرفة وعلم الخطاب الإسلامي. البشري القاضي الكبير والمفكر العميق، بصوته الهادىء يؤصل لـ«المواطنة»، ويشرح «الجماعة السياسية»، ويفكك «الدولة»، ويحكي عن المجتمع.. نبيل علي العالم في الهندسة والبارع في اللغة بخفة ظل يتهكم على دارسي الحضارة والتاريخ بنظارة الغرب، ويتحدث عن الحداثة والمجتمع وقواه الرمزية من: دين، وثقافة، وتربية، وفن، وإعلام. مصطفى الرزاز وهو يوقع النسق الذي تنسجه لنا تلك الكوكبة على العمارة، وحسن فتحي وتاريخ مشرق وحاضر مأزوم.

بدت ملامح «الإسلام الحضاري» الذي يعمل عليه «مركز الدراسات الحاضرية وحوار الثقافات» بارزة، وبدت «إسلامية المعرفة» التي يؤصل لها «مركز الدراسات المعرفية» منذ سنوات متجلية في هذا التيار، تيار يأخذ شذرات ما تلقيته لأول مرة في «جمعية مِصر للثقافة والحوار» من العوا والمسيري والبشري ويكمل عليه، لينتقل من «الإسلام الوسطي» إلى «الإسلام الحضاري»، المضمون متطور من الناحية الفلسفية، وليس ردة فعل بالمعنى الكامل كما كان الأول ردة فعل لجماعات الإرهاب وأفكار التشدد في العالم الإسلامي.

«ثقافات متنوعة في حضارة جامعة» كان هذا هو العنوان الذي انعقدت تحته الدورة في عاميها التاليين. في ٢٠٠٨ كانت هناك تجارب إدارة التنوع في خمس دول إسلامية كبرى: ماليزيا، وإندونيسيا، وباكستان، وتركيا وإيران، وفي ٢٠٠٩ كانت الخرائط والصور الذهنية تُرسم عن الإسلام وأُفقه الحضاري في القارة السمراء وآسيا الوسطى والبلقان (البوسنة - كوسوفو - ألبانيا)، وفي الشرق الآسيوي والغرب الأوروبي، وفي الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية.. وأخيرًا انتهى العرض برسم دوائر الانتماء والفاعلية (الوطن - الأمة - الإنسانية)، حيث أخذ الدكتور سيف يبشر باستراتيجية تثقيفية عن العالم الإسلامي.

كان التفاعل في الأوقات البينية بين الحضور يضفي على «الإسلاميين الحضاريين» طابعًا مختلفًا. من الناحية الاجتماعية لم يعد الاختلاط أو التبرج يثير حفيظة أحد. فقد تجد من تناقش في مسألة إسلامية خالصة فتاة متبرجة لكنه تبرج غير صارخ أو مبتذل، وفي الأغلب لن تجد الفتيات يتحدثن مع الشباب وأعينهن تلازم الأرض، ولا الشباب يُيَمِّمُون شطرهم بزاوية تبعد عن المخاطَبة ثلاثينَ درجةً مِئَوِيَّةً على الأقل، انزوت هذه التصرفات وأصبحت أقل في تلك الأوساط الحضارية.

لم أُخْفِ سَعَادَتِي بالأجواء الإسلامية الجديدة، بالتأكيد عندما أفكر في الارتباط بفتاة إخوانية فحبذا لو كانت تلك التي تحضر دورات التثقيف الحضاري في اقتصاد وعلوم سياسية وتتجادل مع الدكتورة هبة بعد المحاضرة عن الهويَّةِ والمجتمع، وعندما أفكر في إنسان يضاف لقائمة أصدقائي بالتأكيد ذلك الشاب الإخواني صاحب المدونة التي أتابعها، والذي يحضر أيضًا لأول مرة فعالية عامة دون أن يُدعى لها بـ «تكليف» من مسؤوله.

كان هذا شعوري تجاه شباب الإخوان الداخلين في هذا الوسط. أما الشباب الجدد الذين أتوا من خلفيات وبيئات غير إسلامية فقد توقفت عندهم، فهم فكريًا يتشكلون على خارطة إسلامية بامتياز، أما سلوكيًا فقد لا يلفت انتباه أحدهم حتى الآن أن السلام باليد بين الشباب والفتيات مثلاً غريب في «مجتمعنا» بغض النظر عن جدالاته الشرعية.

ولم تكن حالة «الإسلام الحضاري» متجلية فَقَطْ في بعض التنظيرات والمحاضرات والندوات الدورية، بل كانت أيضًا لهذا ذراع حركي طلابي تجلَّى في نماذج المحاكاة بجامعة القاهرة وتحديدًا نموذج منظمة المؤتمر الإسلامي «مويك»، حيث كان النشاط الجامعي الأول الذي يرفع لافتة إسلامية، دون أن يكون «إسلاميًّا» بالمعنى السياسي التقليدي، ودون أن يكون «إسلاميًّا» أشخاصه خلفيات وسلوكيات اجتماعية.

شباب يسيرون وفق المنظومة «القيمية» الجديدة، ويفعِّلون المشترك الإنساني، ويرفعون شعار «خطوة لإحياء أمة».. يناقشون في جدول أعمال مؤتمراتهم أحوال البلاد الإسلامية في الشرق والغرب، ومآلات أوضاعها السياسية والثقافية والاجتماعية، يقيمون حفلات الافتتاح والختام في القاعات الفخمة أو الفنادق الفاخرة، يتحدثون بلغة مخلطة بين العربية والإنجليزية غالب الوقت، لا يبدؤون قبل التعريف بأسمائهم بـ«أخوك في الله»، ولا يختمون اجتماعاتهم بـ«سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد ألا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك».

أعجبت بهذه الأنشطة أيَّما إعجاب، انضممت إليهم في آخر سنة لي بالكلية، وقررت في نفس العام نقل التجربة إلى كليتي عن طريق إقامة نموذج محاكاة لـ«مجمع اللغة العربية»، حاولت أن أنقل كل شيء هناك، غيرت العناوين والمضامين ونقلت الهيكل كما هو بحذافيره، كنت أحاول أن أقنع إسلاميي دار العلوم الذين يتم التحقيق معهم أمنيًّا لمجرد تعليق لوحة في ساحة

الكلية أن هناك من يجمع تبرعات لغزة علنًا في صناديق هائلة ويطوف بها في الجامعة دون أن ينبس الأمن ببنت شفة؛ فَقَطْ لأنهم يضعون لافتة «إسلامية حضارية» تسمى «مويك» وليسوا «إسلاميين أشرار» مثلنا!

لم أكن على وعي بما يحدث لي من تغيرات ساعتها، كنت ساخطًا على شكل المجتمع في كلية دار العلوم، السلفيون ذوو اللحى غير المشذبة والسراويل القصيرة، والمنتقبات اللاتي تغص بهن الكلية، كل في حاله يحضر المحاضرة ويصلي بالمسجد.. ينظر في الأرض ويمشي بجوار الحائط.. وساخطًا على الإخوان بأسلوبهم العقيم، وصدامهم المفرغ من مضمونه، وإصرارهم على السمع والطاعة وتعطيل الدماغ، وفصلهم التعسفي أيضًا بين الإخوة والأخوات كل في عالم وفي إدارة منفصلة لا تناسب ما عليه الجامعة مِن اختلاطٍ واقعي.

وفي الوقت نفسه كنت ساخطًا أيضًا على مجتمع الشباب في «مويك» وأمثاله، الشباب والفتيات يفترشون رَدَهَاتِ الكلية ويجلسون بالساعات يتناقشون وينجزون بعض المهام ويطلبون «ديليفري» من «ماك» أو «مؤمن»، يكثرون من المُزَاحِ إكثارهم من الجِدِّ، ويحرصون على كسر كل الحواجز حرصهم على الإنجاز والإبداع والتفكير، وربما لم تكن حواجز أصلاً عند البعض حتى يكسرها، يدمنون سماع الموسيقى بأنواعها في سماعات الأذن ولا يعرفون أناشيد «رددي يا جبال».. يتحدثون عن الأقصى ويحلمون بتحريره ولا تجدهم عندما يشكرونني يقولون: «جزاكم الله خيرًا»، قد يصل الأمر ببعضهم أحيانًا لأن يقول: «ميرسي أوي»!

كان علي أن أفكر ألف مرة، كيف أحافظ على «إسلاميتي» في الوقت الذي أتطور فيه وأنفتح وأجاري هؤلاء، بل أطلعهم أيضًا وأدعوهم إلى ما لا يعرفونه عن «الإسلامية» سوى المنظومة القيمية والتحدي الحضاري،

وكيف أنقل ما وصل إليه هؤلاء في الفكر والحركة إلى مجتمعنا الإسلامي الراكد منذ سنوات.

ولم تكن تلك الظاهرة تعمل على المستوى الفكري والاجتماعي فقط، بل كانت لها ملامح مختلفة حتى على مستوى مقاومة الظلم والفساد (أو ما عُرِف بعد ذلك بإرهاصات الثورة)، فقد كان المستشار طارق البشري يُقدِّم ندوة عن كتابه "أعدوكم إلى العصيان المدني" في نقابة الصحفيين، ويشرح للناس معنى العصيان، وكيف ينجح/ معنى "دولاب" الدولة الذي يُسيِّر الأمور في مصر، وسبيل تفكيكه بالتنظيمات السرية والعلنية في ضربة مشتركة، كل ذلك كان في ٢٠٠٧، في نفس الوقت الذي تجد فيه على الطرف الآخر دورات وإصدارات "أكاديمية التغيير" حول "حرب اللاعنف" و"زلزال العقول" وغيرها، تأخذ رواجاً كبيراً لدى شريحة الشباب الإسلاميين خارج التنظيمات، وتطرح تساؤلات عميقة حول منهج الإخوان خاصة في التغيير!

أخذت إرهاصات ظاهرة «الإسلام الحضاري» تتسع في محيطي حتى وصلت لذروة تجلياتها في مؤتمر «مستقبل الإصلاح في العالم العربي - خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية»، المؤتمر أقيم في قاعة «جامعة الدول العربية»، أنفقت عليه الحركة التركية الآخذ نجمها في الصعود بسخاء، ودعت له كل الرموز الإسلامية الفكرية والحركية في مِصر.

حضر المؤتمر حشد ضخم من الشباب الإسلاميين الذين بدأت أعدادهم في الزيادة وأفكارهم في الوضوح على تلك الساحة، كانت النقاشات واللقاءات خارج قاعة المؤتمر لا تقل أهمية عن تلك التي بداخلها، غصت أروقة المكان بالعشرات من الشباب والفتيات الذين ربما يتجمعون لأول مرة بهذا الكم وذلك الكيف، وبدا المؤتمر كنقطة انطلاق مهمة في هذا المسار الآخذ مداه في الاتساع، حيث امتد تأثير العلاقات والشبكات التي أقامها الشباب في هذين اليومين إلى كل المبادرات والأنشطة التي أقيمت بعده إلى أوائل ٢٠١١ تقريبًا.

وكانت حركة «فتح الله كولن» قد أوجدت على مدار عامين أو ثلاثة أعوام ربما قبل المؤتمر حَرَاكًا فِكْرِيًّا واسعًا على الساحة الإسلامية. وجدالاً حول مدى نجاح حركة «إسلامية» تفصل التربية والفكر عن السياسة، كما فصل حزب «العدالة والتنمية» السياسة عن الدعوة. فالحركة نجحت في إنشاء مئات المدارس وعشرات الجامعات في تركيا وحول العالم، وامتلكت عشرات الصحف والمجلات والقنوات الفضائية، وشكلت جماعات ضغط في الكثير من مفاصل الدولة التركية تستطيع به ترجيح الكِفَّةِ في أي انتخابات أو استفتاءات، الأمر الذي جعل الشباب الإسلاميين يتساءلون، هل يمكن أن نفكك «الحل الإسلامي» عبر مؤسسات وكيانات لا تحتكر العمل الإسلامي بكليته، يقف كل منها على ثغر ولا يؤتى من قبله!

وبالرغم من نجاح الحركة الباهر للجميع في العالم العربي، والذي عبر عنه كبار الأساتذة والمفكرين المِصريين في أثناء كلماتهم بقاعة المؤتمرات: إلا أن وعي الشباب خارج القاعة جعلهم يستطيعون في ذلك الوقت المبكر نقد الحركة من الداخل، وطرح الأسئلة حول تعاملها مع ملفات الأمة الشائكة السياسية، وبنية الحركة الاقتصادية، مما جعلني أُسَلِّمُ أن هذا الجيل سيأتي بما لم يستطعه من بداخل تلك القاعة.

أرض العزة

كانت أرض العزة في الفيلم الكارتوني الهوليودي الشهير «LionKing» هي تلك المملكة التي يحكمها «موفاسا»، والتي استعادها من بعده ابنه «سمبا» بعدما حاول عمه «سكار» السيطرة عليها في قصة «أطفال» تحاول أن تعالج اتصال السماء بالإنسان (بدلاً من الوحي) عن طريق خرافات النجوم وهُتَافِ الموتي، وتحاول أن تعالج الرسالات التي تصل منها (بدلاً من الرسل) عن طريق قرد عجوز. ربما أكون مبالغًا في تفسير قصص كارتونية، لكنني غير مبالغ في أن لدينا «أرض» عزة حقيقة نستطيع أن نصوغ منها عشرات الأفلام التي تلهب حماس الأطفال ولا تجعلهم يقفون أمام المرآة ويحاولون تقليد «سمبا» الشجاع.

في ٢٠٠٨ كنت على موعد مع هذه الأرض.. اتصل بي صديق قديم يقيم في العريش (كنا قد قضينا معًا طفولتنا مع الشيخ أحمد سعد) يخبرني بأن السور سيقع خلال نصف ساعة، وخلال ساعات ستصل الأفواج للمدينة.

حزمت حقائبي واستأذنت من والدي الذي لم يتردد، كان السفر إلى غزة بعد سماع خبر مثل هذا أمرًا بدهيًا، نحن الذين طالما هتفنا في المسيرات «يا حكام البلاد.. افتحوا باب الجهاد».. نحن الذين نصرخ في المؤتمرات: «والله لو فتحت الحدود لغرقت إسرائيل من أفواجنا».

ظننت أن الطريق إلى العريش سيكون مكتظًا بالراغبين في الذَّهَابِ إلى غزة، ربما الخبر لَمَّا ينتشرْ بعدُ، وصلت لمدينة العريش مساءَ ليلةِ جمعة، كنا في

فبراير ورغم ذلك كأن المدينة الساحلية في منتصف أغسطس حيث الشوارع والشاليهات تغص بالبشر، الفرق الوحيد أنهم فِلَسْطِينون.
في الصباح وجدنا من ينادي في وسط موقف الأجرة بالعريش: رفح غزة رفح.. خفق قلبي وفرت دمعة سخية من عيني، لم أكن طوال الليل أصدق أنني سأدخل غزة، بهذه السهولة في وسط السوق ينادي، كأنني كنت أَحْلُمُ.
الحُلْمُ تطايرت عصافيره إثر محادثة بين سيدتين فِلَسْطِينيتين قد ابتاعتا بعض الأغراض لهما من سوق العريش وفي طريق العودة إلى غزة معي في نفس الحافلة، كانا يشكيان غلاء الأسعار التي ضُربت في أضعافها استغلالاً من الإخوة المِصريين لأشقائهم الغزاوية المحاصرين منذ شهور عدة، عقبت إحداهما «حصار اليهود كان أرحم» ابتلعت الكلام كالحنظل قبل أن يأتيَ المحصلُ ليسألني الأجرة

- كام يا أسطى؟
- ٥ جنيه يا بيه.

خمسة جنيهات في المسافة بين العريش ورفح! تلك المسافة التي دفعت فيها منذ عامين خمسة وسبعين قرشًا فَقَطْ، الآن أدرك كم أكره تلك السياسة التي أفهمت الشعب أن غير المِصريين أيًّا كان جنسهم أجانب، سائحون، أموالهم غنيمة لنا، وبالأخص لو كانوا فِلَسْطِينيين باعوا أرضهم لإسرائيل!
عندما اقتربت من الحدود تذكرت تلك الدعوات التي دعوتها منذ آخر زيارة لي هنا، كان البرج الحديدي يعتليه العلم الإسرائيلي قابعًا هناك، دعوت أن أدخل تلك الأرض وألا أرى العلم مرة ثانية، عبرنا على الأسلاك الشائكة وعلى السور المتهاوي، عبرنا على كل الاتفاقيات والمواثيق والخطوط الدولية والأممية، عبرنا على كل السياسات والمناورات والمعاهدات العنصرية، التي تفرق بين رفح ورفح، فهذه مِصرية وتلك فِلَسْطِينية، عبرت وأخذت أتنفس الصُّعَدَاءَ، وكأنني زرت كوكبًا آخر.

الرجال هنا رجال، والنساء نساء، نعم إنها حقيقة مدهشة، الرجال يمشون في زهو بمحياهم الشامي، وسمت معظمهم الإسلامي، وأجسادهم المشوقة التي رضعت من لبن المعامع والمعارك، والنساء هنا نساء بخفرهن وعباءاتهن ذوات الأكتاف، والصغار الذين يلتفون حولهن مهما كانت الواحدة منهن كبيرة أو صغيرة.

كنا نمشي في شوارع غزة ونشعر بالأمان التام، فكرة «أمن الدولة» التي هي هاجس عند كل الإسلاميين في مِصر، والتي تجعلك تتوقع أن يتم توقيفك في أي خطوة وأي لحظة على أرضها تجعل من غزة مكانًا آمنًا تمامًا، فالسلطة هنا هي الأمّة أيضًا، ليس على الكوكب الغزاوي إلا حياة بعزة، أو موت بشهادة، فالشرطة الغزاوية في الشوارع لا يضع أحد منهم نظارات سوداء أو ينفث الدخان في وجوه البشر!

مررنا على المستوطنات المحررة، مررنا على موقع استشهاد محمد الدرة.. مررنا على البيارات وأشجار الزيتون.. رفح، وخان يونس، والمدينة القديمة، وجباليا.. تذكرت عندما وصلت جباليا أنني أعرف أحد أعلامها وأعلام غزة قاطبة هنا، الشيخ نزار ريان، القيادي البارز في حركة حماس، وكان قد زار القاهرة في أعقاب فوز الحركة بالانتخابات التشريعية، وكان مسؤولي عليه مهمة توصيله إلى بيته فأخذني معه، وتجاذبنا أطراف الحديث حتى أعطاني رقم هاتفه وهاتف ابنه قائلاً: عندما تزور غزة مر علينا!

قال الكلمة بيقين عجيب، وساعتها ظننته من باب: سندخل القدس، وستتحرر فِلَسْطِين من النهر إلى البحر، لكن ما أعجب الأيام ها أنا ذا أقف على بابهم في معسكر جباليا!

لم يكن الجهاد عند الإخوان مجرد شعار يهتف بعد: الله غياتنا، والرسول قدوتنا، والقرآن دستورنا، الجهاد سبيلنا.. ولم يكن «الموت في سبيل الله» أمنيّةً، بل أسمى أمانينا، ولم يكن عند السلفيين مجرد «الفريضة الغائبة»

التي إن فتح الحاكم المسلم الباب لها لأصبحت حاضرة ولغزونا العالم وفتحنا روما، لم يكن الأمر كذلك وفَقَطْ، بل كان حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «من لم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ نفسه بالغزو مات على شُعبة من شُعَبِ النفاق».. وكان قوله أيضًا: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»؛ أي كان أحد المقومات الرئيسة في تكوين أي إسلامي، وبه يعرف غيرهم من الملتزمين المتصوفة مثلاً أو الأزاهرة أو المحافظين الذين ليس لدى أغلبهم أي تصورات عن هذا الباب، الذي لا يلجون منه إلا ليسترجعوا أمجاد حرب ٧٣ وثأر الجيش المِصري من الإسرائيليين.

كانت صور عبد الله عزام وخطاب وشامل باسييف تملأ ملفات الصور لدى كل أجهزة الحاسوب الشخصية في بيوت معظمنا، جنبًا إلى جنب مع صور عز الدين القسَّام، وأحمد ياسين، والرنتيسي، وريم الرياشي، وأم نضال، وربما أضيف للقائمة أسامة بن لادن؛ الذي لم يكن عليه خلاف قبل أحداث ١١ سبتمبر لجهاده الطويل المعروف في أفغانستان، وكانت سلسلة «جحيم الروس» التي تبرز العمليات الجهادية الشيشانية ضد الكتائب الروسية هي الأشهر بإصداراتها المتوالية.

كانت هذه الصور تلهمنا ولو لم يكن هناك خلافٌ دائر بيننا حول التصوير لم يخفت إلا مؤخرًا، لكانت صورة خطاب بجدائله وقبعته العسكرية المصدرة بالشهادتين على الملابس وزجاج السيارات أشيع من صورة جيفارا الشهيرة.

دارت كل هذه المعاني برأسي عندما رأيت الكلاشنكوف لأول مرة بيد أحد مجاهدي القسَّام عن قرب، كانوا يصطحبوننا في جولة بمناطق الرباط، لاحظ الرجل عيني وهي تلتمع كأنني عطشُ الحلق أمام ماء بارد، ابتسم

ودفع بها إلي لأحملها، كأم فقدت الأمل أن يكون لها ولد، حملت الرشاش بين ذراعي والموسيقى تشتعل في رأسي:

وبين ذراعـنا الرشاش قد أرغـى وقد أزبد

لنمحـــو بؤس تاريخ تلفَّع بالأسـى الأسود

أمسك الرجل بذراعي يعلمني كيف أرفعه في موضع الإطلاق، سمع دقات قلبي المتسارعة، وقال بلهجة فِلَسْطِينية: «جاهز.. تضرب لك شي رصاصتين».

ضغطت على الزناد وتخيلت كل الأعداء أمامي قد جسَّدتهم تلك العبوة الفارغة القائمة فوق الصخرة أمامنا، تخيلت عصابات إسرائيل واليهود وما استُباحوا من أرضنا.. جيوش أمريكا وكتائب الروس وما سفكت من دمائنا.. الصرب وما هتكوا من أعراضنا.. تخيلت الإنجليز والفرنسيين وما شوهوا من مجتمعاتنا، تذكرت كل الأصنام التي تُعبد من دون الله من عادات وتقاليد وأعراف ما أنزل الله بها من سلطان.. أطلقت الرصاصة الأولى، ارتدَّت يداي وانتقض جسدي، أطلقت الثانية بعزم وثبات أكبر، وعندما جاءت الثالثة أصابت الهدف فطارت العلبة في الهواء.

عندما رجعت لأصدقائي كنت أخبرهم بأن الطلقة الأولى كانت أشبه بالقبلة الأولى في حياة كل منا، قالوا وكيف تشبه شيئًا معلومًا بمجهول، هل جرَّبت القبلة الأولى من قبل؟! تفاصحت: والعرب كانت تشبه بالغول ولم تره كقول امرئ القيس يصف سيفه: "وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أَغْوَال"، والقرآن قد شبه لنا طلع شجر الزقوم بمجهول وهو «رؤوس الشياطين»؛ كي يطلق لك العِنَانَ في الاستبشاع، وأنا أطلق العِنَانَ في الاستمتاع، ولا يمكن أن تكون تلك الطلقة الأولى أقل متعة من القبلة الأولى أبدًا.

كانت أناشيد الجهاد قائمة تشغيل مرتبة ومخزنة في أذني تصدح مع كل خطوة أخطوها في غزة في النهار بين البيارات، وعلى الشاطئ، وفي الأسواق، وبالليل عند الثغور وفي الرباط:

لأنى أحمل الإيمان والجرح الفِلَسْطِينى

لأن غمائم الأفيون لم تخمد براكينى

لأنى لم يكن إلا جهادًا داميًا دينى

أُشَرَّد فى منافى الأرض أُجلد فى الزنازين

لأن القدس لى دار وأسوار وآثار

أحب القدس إن الحب لى ثأر وإصرار

وصوت حبيبتى فى الأسر للأحرار إعصار

يردد أرجعوا مجدًا على ساحات حطين

كان الشيخ نزار بغير الوجه الذي رأيته في مِصر منذ ثلاث سنوات، فقد رأيته في القاهرة خطيبًا مفوهًا وسياسيًّا بارعًا، وهنا أرى بقية وجوهه التي تكاد تجمع كل خِصَالِ الإسلاميين قاطبةً على اختلاف مشاربهم، فهو عضو المكتب السياسي لحماس، وهو أيضًا العالم الحديثي صاحب التخاريج والتصانيف، وهو قائد معركة جباليا إبَّانَ معركة تحرير غزة ٢٠٠٥، مقاتل ميداني لا يشق له غبار.

كان يقطن في بيت من أربعة أدوار وَطَابَقٌ تحتَ الأرضِ أقام فيه مكتبته «العامرة» من أكبر مكتبات غزة وأثراها، مفتوحة للباحثين والقراء مزودة

بكل الإمكانات الحديثة من أجهزة الحاسوب وآلات النسخ والطباعة، ولها مولد خاص بها تنقطع الكهرباء عن البيت كله وتظل المكتبة ممدة بها.

قدمت عليه في أول ليلة فوجدته منكبًا على مكتبه بجثته المهيبة يفرك لحيته الكّثة بيديه متفكرًا في حديث ما، بين كتبه يعمل في مشروعه الضخم «شرح صحيح مسلم»، حتى إذا انقضى ثلث الليل الأول أتت له زوجته الأولى بطعام فافترش الأرض يتبلغ منه ودعانا جميعًا إليه، يرن صوته المجلجل في أرجاء المكان إذا مازحنا بخفة ظله التي تنساب بين حديثه الشائق، حتى إذا أصاب من الطعام قام يصلي فوقف طويلاً، يكاد يخفي صوته البكاء خشية أن نسمع همهماته فيكون ذلك من الرياء في شيء.. حتى إذا انقضى ثلثٌ آخر لبس لَأْمَتَهُ وخوذته وبدا متعملقًا.. قبض على «الكلاشينكوف»، ثم خرج إلى الرباط حتى الفجر.

فوق كل هذا كان له من الزوجات أربع، ومن البنين ستة ومن البنات مثلهن ومن الحفدة العدد الكثير، أكبرهم ابنه إبراهيم استشهد قبل أعوام وكان أحبهم إلى قلبه.. لقد كان الشيخ صحابيًّا بكل ما أوتيت الكلمة من معانٍ، ولو كان لي شفاعة من بعد النبي (صلى الله عليه وسلم) لتشفعت بأنني لقيته وجالسته ليلة.

قضيت أيامًا بين غزة والعريش، رأيت فيها نور الأمل طاقة تتفجر ثم تأخذ في الخفوت والذبول؛ حتى انتهى شعاعها في مشهد جنائزي كئيب، عندما أغلقت الحدود مرة ثانية، وصرح رويبضة مِصر ووزير خارجيتها آنذاك: أن من سيعبر سنكسر له رجله، عاد الفِلَسْطِينيون وقد حملوا ما استطاعوا من مُؤَنٍ يدخرونها لحصار لا يعلم مداه إلا الله، داري الأطفال بسمة علت ثغورهم أيامًا وربما ساعات معدودات وهم يتنزهون على شاطئ العريش الذي لا يختلف عنه في غزة إلا أن «فسحة مِصر» كانت بالنسبة لهم ذات

مذاق خاص، مذاق لا تعكره رؤية البوارج الإسرائيلية في عُرْضِ البحر، ولا سماع أزيز الطائرات في جو السماء.

لم يكن حدث كسر الحدود مثيرًا للكثير ممن أعرفهم كما كان مثيرًا لي، كان تعامل قواعد الإخوان مع الواقعة مخيبًا لآمالي، فكم من الإخوة أخبروني بعد عودتي أنهم استأذنوا مسؤوليهم للذَّهَابِ فلم يؤذن لهم، تذكرت بمرارة مقولة المهندس سيد: لو دخل الأمريكان مِصر لربما منعت من أن تجاهدهم لو كنت في الصف.. بددت هذا الهاجس الصعب من أمامي كالدُّخَانِ المزكم للأنوف، وتلمست لهم العلل والمحاذير التي تفرضها عليهم ظروف شاركوا في صناعتها بجبنهم عن محاولة كسرها!

ورغم ذلك فإنني كنت أقابل الكثير من الإسلاميين إخوانًا وغيرهم قد ذهبوا مثلي في تلك الفترة، ومنهم فتيات أيضًا، نجلس ونتبادل القصص والمواقف والحكايات الغزاوية، يتجدد الحنين فينا إلى تلك الأرض التي لم تطأ أقدام أحدنا أطهر منها بعد.

ولم يحل الحول حتى كانت أرض العزة تكتسي ثوب طهر جديد، وتتزين استعدادًا لقافلة جديدة من قوافل شهداء العزة حيث كانت حرب ٢٠٠٩ التي أقضت مضاجعنا زهاء شهر كامل.

لم أبكِ كما بكيت يوم تناهى إلى سمعي خبر استشهاد الشيخ نزار ريان.. قُصف البيت، بدلاً من الأدوار الأربعة كانت هناك حفرة في الأرض بعمق أربعة أدوار، اسْتُشْهِدَ الشيخُ وزوجاته الأربع وَأَحَدَ عَشَرَ ابنًا وبنتًا له، كنت أحترقُ ألمًا وجزعًا وعجزًا، كنت أخرج ذلك المصحف الذي أهداني إياه وعليه «خاتم المكتبة العامرة» أضمه إلى صدري وأنتحب، ترى ما حال ولديه اليوم ومن تبقى من عائلته، فالشهداء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أما الأحياء منهم فكيف بهم الصبر على كل هذا المصاب؟!

حشد الإخوان لتظاهرات متقطعة ومجمعة طيلة فترة العدوان، وكان التعامل الأمني قاسيًا وغير مُسَوَّغٍ، فالنظام وصل للنقطة التي يخاف فيها من أي تجمع بغض النظر عن فرض السيطرة المعهودة عليه والتي يعرف طرقها جيدًا، فلم يترك للجماعة ولا للناس أي مُتَنَفَّسٍ للتعبير عن غضبهم من الحرب الدائرة في غزة.

ففي إحدى الجُمَعِ التي دَعَا الإخوان للتظاهر فيها انطلاقًا من مسجد الفتح برمسيس، أغلق الأمن المسجد ومنع دخول أي من المصلين إلا بالبطاقة ومن يثبت أنه من غير أهل المنطقة يُعتقل أو يمنع من الدخول، وبدأت الأعداد تحتشد في مسجد الجمعية الشرعية القريب من المكان، فتوجهت حشود أمنية أخرى لمحاصرة المكان وأخذت تعتقل في الصفوف الخلفية من المصلين المفترشين الحصر في الشارع قبل انتهاء الخطبة نفسها، وبعد الخطبة كان مئات الجنود يضربون بعصيهم على رؤوس المتجمهرين في كل الاتجاهات حتى انفض الحشد واعتقل المئات في ذلك اليوم!

وعلى الرغم من ذلك كنت أرى أن الإسلاميين مقصرون أيّما تقصير مع غزة وأهلها، فالعشرات يُسْتَشْهَدُونَ يوميًا، ونحن هنا لا نشاك الشوكة، كنت دائمًا أتخيل.. ماذا لو قررنا الخروج بالآلاف نحو رفح، ماذا لو قتل منا عشرة أو مائة أو ألف في سبيل الله، وفي سبيل القضية الفِلَسْطِينية، لم لم يُرق منا أي دم تُجَاهَ القضية منذ حرب ٤٨، نعم فحتى حرب ٧٣ كانت لتحرير سيناء لا لتحرير فِلَسْطِين!

لا أنكر جهد الإخوان في دعم المقاومة المادي والمعنوي على طول الخط، الأمر الذي تأكدت منه بنفسي في زيارتي للقطاع، لكن في الوقت نفسه لا أكاد أصدق أن كل هذه الأدبيات الإسلامية من تنظيرات وكتب وأناشيد تربينا عليها لا تجعل من فِلَسْطِين قضية مركزية تخاطر الجماعة بوجودها من أجلها كما يخاطر أهلنا في غزة بوجودهم!

خطيب العيد

حاولت تنشيط مواهبي الدعوية التي خفتت بطول الانشغال عنها بالحركة والفكر، حيث ضاق وقتي منذ مدة عن تحفيظ الأطفال في المسجد، ثم بدأ يضيق عن حضور الدروس الدعوية التي لم أعد أرى فيها الشباب من عمري إلا نادرًا، ومع انفصالي عن سلك التربية في الإخوان أصبح الأمر أكثر قسوة، لا أدري كنت أشعر ساعتها بأن الكثير من الشباب أيضاً قد عزفوا عن الدعوة واتَّجهوا للحركة!

بدت الخطابة لي ساعتها موقعًا جديدًا أستطيع أن الزم نفسي إن انتظمت به استئناف القراءات الدعوية التي أتزود بها لخطب الجمعة، لكن الأمر لم يفلح، فالزوايا الصغيرة المتاحة لشباب لا يستطيعون استخراج تصريح خطابة بسبب تاريخهم الذي حتمًا يعرف الأمن عنه الكثير، ولا تفتح لهم أبواب المساجد الكبيرة التي يقف على أعواد منابرها الكثير من خطباء الأوقاف لا يقيمون جملة عربية -تلك الزوايا لم تستثر في نبراتي الخطابية التي كنت أتوقعها عندما أكبر يومًا واعتلي درجات المنبر.

اقترح عليَّ البعض أن أخطب في العيد، فراقتني الفكرة وأقنعت أهلي بأن نصلي العيد في القاهرة، وأخطب في الخلاء الذي نصلي فيه بمدينتنا، على كل حال كان العيد في الزقازيق أصبح بلا خيوط ولا ألوان، فالحزب الوطني سيطر سيطرة كاملة على الاستاد منذ سنوات، ولم يعد الأمن يسمح للإخوان بتعليق ميكروفون واحد، ولا رفع لافتة واحدة، وكانت الاعتقالات تعمل في

صفوف الإخوة كل ليلة عيد إن هم فكروا في ذلك، بل تنال أبناءهم حتى يكدروا عليهم العيد ولا يطلقون سراحهم إلا بعد انتهاء العيد بأيامه الثلاث.
وقفت أمام المرآة كما كنت أقف منذ عشرين عامًا، أحاول أن أختلق شكلاً مميزًا للعمامة، ليس سلفيًّا ولا تبليغيًّا، أخيرًا وصلت لما يرضيني، أحكمتها جيدًا وتعطرت متقلدًا خاتمي الفضي وانطلقت إلى المصلى.
كان مظهري محاولة لإخراج المصلين عن كل نمط يعرفونه، فالخطيب مجرد شخص ينتمي لثقافته الإسلامية ولبيئته العربية التليدة، ترددت في خاطري عشرات الأشرطة التي سمعتها لعشرات الخطباء والمشايخ المفوهين، ومئات الخطب الأسبوعية مذ أن وعيت على هذه الدنيا وانطلقت أتحدث عن معنى العزة في العيد، معنى أن تخرج الأمة (كلّ الأمة) إلى الساحات في مشهد مهيب ويهيج في الوقت نفسه، هتافات العيد نفسها التي لم تكن «سبحان الله» ولكن كانت «الله أكبر» بكل ما تحمل الصيحة من معانٍ:

الله أكبر فاضت من حناجرنا .. لتملأ الأرض من عبق الرياحين

الله أكبر كـم ذلت لها عنق ... باتت تذلل أعـــناق المـلايين

الله أكبر نفديها بأنفســنا ... حتى ترفـــرف فى كل الميادين

الله أكـبر رددها فإن لها ... وقعَ الصواعقِ فى أذن الشـــياطين

«الله أكبر يا غزة، عندما انتصرت لله، فنصرك وحقق على أرضك معنى العزة، فلا تجد في المدينة رغم الغوز يد متسول، ولا تجد في المدينة رغم الفاقة شاب بلا زوجة أو امرأة بلا بعل، وتجد شوارعها نظيفة رغم ضيقها، وبيوتها بسيطة رغم قصرها، تجده مجتمعًا قد ابتغى في دينه العزة.. فأعزه الله».
ختمت الخطبة ودعوت على من حاصرها وشارك في حصارها، وأمن الجمع.. أعطيت إشارتي إلى إخواني ممن ينظمون معي صلاة العيد بالمعنى الذي

أعهده صغيرًا، فقاموا بتوزيع الهدايا والحلوى التي ظللنا طوال الليل نعبئها في أكياس صغيرة للأطفال، ثم انطلق صوت أبي خاطر عبر المذياع ينشد للعيد:

وربما الزوجـــان قد عادا إلى العناق ... والمتخاصـــمان يرجـــعان للـــوفاق

وفرحة الأطفال كم تطير في الآفاق ... سعادة تغمرهم في البيت والأسواق

فهكذا الكبار والصغار في ســباق ... مبتهجين بالزي كالكحل في الأحداق

يا عيد يا هدية من ربنا الخـــلاق ... أنت الذي تبعث فينا نشـوة المشـــتاق

كنت أرى نظرات المصلين حولهم وتتناهى إلى أذني عباراتهم، لأول مرة يشعرون بطعم صلاة العيد، لأول مرة يعرفون أنها قد تكون أجمل وقت في العيد كله، خطبة، وحلوى، وغناء.. حمدت الإخوان في سري أن علمونا كيف نجعل الحياة من حولنا إسلامية.

ختم الجودة!

الساعة شارفت على الواحدة بعد منتصف الليل، والداي قد هجعا، ولم يبق إلا أنا وأخي، طرقات غريبة بالباب، أخي ينظر من عين الباب ويخبرني أنهم «أمن دولة» على ما يبدو، تأخذني المفاجأة رغم أني أنتظرهم، فتح الباب ودخل جنديان بكامل عتادهما، خوذ ورشاشات، ومعهم مخبران وضابط بزي ملكي.

دخل في الموضوع مباشرة:

- أحمد أليس كذلك؟ أين صورك في غزة يا أحمد؟

- قد رفعتها على مدونتي حينها.

- نبحث عن بقيتها، في الأغلب لم ترفعها كلها!

- بالطبع تفضّل هي بالداخل.

- أرني مكتبتك أيضًا.

قبل أن يبدأ الرجل بالتفتيش أخرجت له كل ما يمكن أن يبحث أو يسأل عنه، أخرجت القرص الذي كنت أحتفظ عليه بصوري في غزة، وقبل أن ينظر في المكتبة سلمته من مكان لا تصل إليه يد أحد بسهولة أربع نسخ من كتاب «كيف تنفذ العمليات الاستشهادية»، وكل كتب سيد قُطب، وطبعات جدي القديمة للرسائل وغيرها، ومقالات مجدي حسين النارية، ودراسات فكرية عن الإخوان، وأبحاث حقوقية عن التعذيب في مِصر.

أصابت الدهشة الضابط في البداية، كيف أسلمه كل هذا دون أن يبحث أصلاً، ظنّ أنني أخفي ما هو آخطر ففتش بنفسه ولم يخرج بكتاب واحد زائد على ما سلمته، البقية كلها في الأدب، والفن، واللغة، والشعر، والفقه. ترك لي الفرصة كي أبدل ملابسي، فور أن انتهيت كانت والدتي قد أعدت لي حقيبتي، كنا نُؤدّي المشهد بإتقان كما لو كنا نتدرب عليه منذ فترة طويلة. حملتها بخفة بيد واحدة فوق ظهري، وبدوت كمن يستعد للانطلاق في رحلة. سأله والدي عن اسمه حتى يسأل عني في المقر غدًا:

- عصام طه، الرائد عصام طه.

تبسمت بسمة خفيفة: محمد رفعت كان عندك بالأمس، وصديقي أنس كان ضيفك الشهر الماضي لمدة أسبوعين أليس كذلك!

ارتبك الرجل قليلاً: وماذا أيضًا؟

بثقة مصطنعة انطلت عليه: سأخبرك ماذا أيضًا، أمامنا ليلة طويلة نقضيها معًا، لكن الحق يقال بأن الرائد هشام.. ذلك الذي كان في موقعك وتركه منذ شهرين كان «غشيمًا»، هو الآن في المرج وتلاحقه قضية قتل معتقل على ما أتذكر، نعم في المرج.. أليس كذلك!

كنت أحاول التصرف بشكل يجعله يستبقيني عنده في فرع مدينة نصر، فخيارات «لاظوغلي» أو «السادس» المقرين الرئيسين: تبدو بالنسبة لي كارثية، أغلب ما يتلقونه من تدريبات تقول إن الجهاديين لا يتحدثون كثيرًا، ولا يتعاونون في أثناء القبض عليهم من الأساس، فلأقنعه بعكس ذلك فلا أسهل من الثرثرة فيما يظن أنه مفيد.

كانت السيارة التي تقلني مفتوحة النوافذ تسير بسرعة جنونية، تلتهم شوارع مدينة نصر كبرق خاطف يزيغ من أعين الناظرين، كنت بين جنديين مسلحين في آخر مقعد، تلفحني نسمات تلك الليلة الصيفية، أغمض عينيّ،

وأحمد الله أن وهبني ذلك الموقف، أن منحني فرصة لأكفر فيها عن ذنوب لا يغفرها إلا شوكة عظيمة كالاعتقال في قضية جهادية.

كانت الليلة الأولى عصيبة، اقتلع الخوف جذور قلبي، وإن بدوت لهم متماسكًا، لم أُستَجْوَبْ في فرع مدينة نصر، غُمِّيتُ ونُقلت إلى مبنىً آخر لم أشك أنه لاظوغلي، أُلْقِيَ بي في رَدْهَةٍ طويلة معصوب العينين، معلقة يمناي في قيد مثبت في الحائط، عليَّ الانتظار حتى الصباح في هذا الوضع، أصوات أبواب المكاتب المكيفة تفتح وتغلق بين الفينة والأخرى، وقع أقدامهم ذَهَابًا وإيابًا غير عابئين بذلك الجسد النحيل الملقى على الأرض، حاولت أن أطلب الذِّهَابَ إلى الحمام مرارًا لكنَّ أحدًا لم يجِب، كانت زجاجة فارغة بجانبي فتعاملت مجبرًا، وانتظرت الأسوأ!

جاء الصباح فاقتادني أحدهم للقبو، فُكَّت العصابة عن عيني وتُركت أتوضأ وأصلي الصبح قضاء، جلست على مقعد حديدي وأمامي زنزانة يطل من نافذتها الصغيرة شابٌّ طويل اللحية رث الهيئة يبدو أنه جهادي، رمقني بنظرات قصيرة، ثم اختفى قليلاً وأتى بنصف رغيف خبز به قطعة من جبن، مد يده وطلب من المخبر أن يعطيها لي، كان من الإفطارات المميزة التي لا أنساها في حياتي كلها.

أخذت أقضم الخبز الجاف في مهل وأنا أنظر إلى الممر الطويل أمام مقعدي الحديدي، كان به عشر زنازين متجاورة، تذكرت حكايات زملائي عن هذا المكان بالتحديد، زنازين القبو، تذكرت شباب هندسة عين شمس الذين اعتُقِلوا هنا، تذكرت كيف كانوا يحكون عن قذارتها واستحالة المكوث فيها ساعة دون أن يُغْمَى عليك من الرائحة والحشرات والقوارض، أغمضت عيني وملأت صدري بالهواء استعدادًا لما تخبئه لي الساعات القادمة.

عُصبت عيناي مرة أخرى وَأُخْرِجْتُ من المبنى، ابتسمت في سري، وحمدت الله أن نجاني من الاستجواب بلاظوغلي، عدت إلى فرع مدينة نصر مرة

ثانية، كان عصام طه في استقبالي حيث بدأ التحقيق، وأخبرني أنه من طلب استجوابي بنفسه.

- ها اتفضل احكي، من الأول، قل لي قصة التزامك في البداية.

- سأحكي بشكل أفضل لو نزعت العصابة من على عيني.

- اعذِرْني لا أستطيع، هذا مجرد إجراء احترازي.

- طيب أستأذنك.. شاي، سكر زيادة.

صمت الرجل قليلاً وكأنني أسمعه يضرب كفًّا على كف: حاضر.

وضعت رجلاً على رجل: وملت بجسدي حتى انفرد ظهري على المقعد بكامله وأخذت أحكي له عن كل شيء.

حكيت له عن كل شيء لم يطلبه، حكيت له عن كل شيء أتوقع أن يطلبه، عن تلك الأشياء التافهة، أسماء من أسمع لهم، من تربيت على يديهم، المساجد التي أتردد عليها، شباب الإخوان الذين أعرفهم، المسؤولين الذين مروا علي، كانت كلها أسماء محروقة، فلم يكن هناك اسم واحد منهم إلا ومر على هذا الفرع من قبلي، لكني أعلم أن ذاكرة الضباط ضعيفة، سيدوّن ما أقول ويرجع به إلى الملفات ليجدها مثبتة، المعلومة الوحيدة التي ستتأكد له ساعتها أنني صادق فيما أقوله، وهذا سيفيدني في مراحل متقدمة من التحقيق عندما تبدأ أسئلة غزة.

في المساء أُخِذْتُ إلى قسم مدينة نصر لأقضيَ به الليل وَيُسْتَكْمَلُ الاستجواب في الصباح، كان وقع أقدام الضباط يشق سكون الليل، توقفوا بي أخيرًا، فُتحت إحدى الزنازين ودُفِعْتُ داخلها، تحرك ذلك المتراس الغليظ فأحدث أصواتًا هزت السكون من حولنا، زغردت المفاتيح في الأقفال، وارتسمت ابتسامات الفرح على مُحَيَّاي.

كانت زنزانة انفرادية، طولها متران في متر تقريبًا، ليس بها إضاءة أو تهوية إلا نافذة لا يتجاوز محيطها كفيّ مجتمعتين، لا يكاد عودي يصلب على بلاطها

البارد إذا شئت الرقاد، لطالما حلمت بها، سمعت عن أوصافها من الشباب والكبار، قرأت عن تاريخ ذلك المكانَ في كل كتاب، طريق طويل اختُطَّ من لدن يوسف (عليه السلام) إلى المسلمين الأوائل، إلى الأئمة الأربعة وعلى رأسهم ابن حنبل، إلى ابن تَيْمِيَّةَ الذي مات هنا، إلى سيد قُطب الذي أخرج من ظلامه نور الظلال الذي فتح به قلوب وعقول الآلاف بل الملايين المسلمة عبر العالم، إلى جدي الذي قضى به ثلاثةَ عَشَرَ عامًا، إلى صديقي الذي خرج منه منذ عشرين يومًا فَقَطْ.

كان الاعتقال يعني «ختم الجودة».. علامة صحة الطريق، حيث استمرت الاستجوابات ثلاثة أيام أخرى.. في آخر يوم منها حاول الرجل أن يحرجني بسؤال أراوغ في إجابته وأخرج عن منهجي في ذلك الاستطراد المنهج.. قاطعني وأنا أحكي: ما رأيك في حسني مبارك؟

ضحكت في سري من السؤالِ الساذَجِ: حاكم متغلب، عميل وخائن، ستلاحقه لعنة دماء غزة إلى يوم الدين.

سمعت طقطقة الأريكة والضابط يرخي جسده عليها ويمط في حروفه: بالطبع، اشتم كما تريد، هنا آمَنُ مكان تستطيع أن تقول فيه كل ما تريده.

أرح نفسك أيها الضابط، ليس لديك ما يخيفني، وليس عندي ما أخفيه، ليس لديك قانون سوى محاكمة عسكرية وسجن خمس سنوات أخرج بعدها بطلاً بين من أنتمي إليهم، أختم القرآن، وأحضر الماجستير، وأستعد لحياة حافلة، وليس لديك غير ذلك إلا التعذيب الذي ستقدم لي به خدمة جليلة إذا أقدمت عليه: وهي التكفير عن ذنوبي حتى أخرج من هنا كيوم ولدتني أمي، أو الموت تحت سياطكم فهذا منتهى أملنا كما تعلم جيدًا.

لا تقلق لن تصلَ الأمور إلى هذا، كل ما هنالك أن صورك بالسلاح حتى الآن لا تقنع قياداتي أن الأمر يمكن أن يمر بسهولة، لا أخفيك سرًّا كنت أتوقع

أن أعثر على سلاح حقيقي وأنا أفتش البيت ولذا أحضرنا كل هذه القوة. لم فعلت ذلك؟

- سأخبرك، لو أن فِلَسْطِينيًّا زار مِصر، ألن يلتقط صورًا مع الأهرامات ويخوض تَجْرِبَةَ أكل الكشري.

- بالطبع.

- أنا زائر لفِلَسْطِينَ وبها سلاح وجهاد لا يوجد في مِصر، فمنطقي أن أنتهز الفرصة، وصدقني هذه الصورة التي سيفخر بها أبنائي وسأزيل بها بعض ما يعلق في ذهنهم من خور جيلنا وخِذْلانهم لإخوتهم في فِلَسْطِينَ، هذه الصورة تستحق أن أدفع فيها الكثير، أكثر مما تتوقع.

لست جهاديًّا كما ترى بالمعنى المتعارف عليه في التصنيف الأمني، لكني فَقَطْ أحاول أن أعيد للجهاد مركزيته في الفكرة الإسلامية، التي غلبت عليها الأفكار «المعتدلة» و«الوسطية» و«المقاصدية» التي لا يوجد للجهاد في زحامها متسع بقدر ما يوجد للتسامح، والتعايش، والمواطنة، ودوائر الإنسانية التي تجمعنا كلنا.. إذن من سيعيد القدس إذا خرج أبناؤنا وَتَرَبَّوا على هذا فَقَطْ!

ومن الذي يضمن لنا ألا ينتقل هذا الجهاد الذي تتحدث عنه داخل مِصر كما كان في التسعينيات، ألم نجد في مكتبتك أربع نسخ من كتيب عنوانه «كيف تنفذ العمليات الاستشهادية».. ما تسويغ هذا!

أولاً أنا لا أعتقد أن هناك أيَّ جهاد في مِصر ولا أي دولة عربية أو مسلمة ليس لها حدود مباشرة مع العدو، وحتى الأمريكان والإسرائيليين الذين في مِصر، هم مستأمنون من حاكم جائر، ليس عليَّ ذنبهم، ولا يجوز لي قتلهم.. أما الكتاب فلو قرأته ستجد فيه عين ما أتحدث عنه من إعادة مركزية الجهاد قضية كبرى للأمة، فما هو إلا مذكرات للأسير حسن سلامة الذي يقبع الآن في سجون الاحتلال بسبب عمليات الثأر التي نفذها بعد استشهاد مهندس المقاومة يحيى عياش، الكتيب يحكي قصصًا مثيرة جدًّا، حاول أن

تنظر لها كسلسلة أدهم صبري، لا يوجد مجتمع بلا أبطال ونجوم، وهؤلاء نجومنا، شئتم أم أبيتم!

يئس الرجل مني، كنت أتحاور معه كمفكر إسلامي أشركه في همي، وليس ضابط أمن دولة أحاول منحه أقل قدر من المعلومات حَسَبَ الحاجةِ والاضطرار.. أرسلني إلى مَخْبِسِي مرة أخيرة ولمدة أسبوعين ظلت التحريات حول ما أدليت به في التحقيقات، نقلت من زنزانتي الانفرادية إلى الحبس الجماعي، كان حبسًا جنائيًا فلم يكن هناك معتقل سياسي واحد عندما دخلته، وانضم عليَّ فيما بعد ثلاثة شباب سلفيين.

كان الجنائيون محبوسين على ذمة قضايا مختلفة: بلطجة، وتجارة مُخَدِّرات، وسلاح وسرقة بكل أنواعها، كان بالنسبة لهم أي معتقل سياسي شيخ و«بتاع ربنا»، يحترمونه ويقدموه عليهم في كل شيء، حاولت أن أمارس شيئًا من هواياتي الدعوية القديمة، كنت أصلي وأدعوهم، بعضهم يستجيب وبعضهم يسألني أولاً عن كيفية الوضوء!

صدمت من حجم الانحلال الذي وصل له قاع المجتمع، سمعت عشرات القصص المنحلة بأحط الألفاظ، وأفحش ما في معجم البشر من كلمات، قصص الشذوذ والجريمة والفساد، يحكون بلا ندم، بلا خوف، بلا شعور، لم يكن يخرجني من هذا الجو سوى الشباب السلفي الذي يأتي أحدهم كل يوم وقد بدت آثار تعذيب الكهرباء على ظهره «يحسبن» على عصام طه، كان الشاب السلفي مسكينًا، كل قضيته أنهم وجدوا على جهازه كالمعتاد صورًا وأفلامًا وأناشيد جهادية، كان الضابط يسأله عن عبد الله عزام، فيقسم الشاب أنه لم يقابل في حياته شخصًا بهذا الاسم.. لم يكن يعرفه بالفعل، فقد كانت معرفته بالرموز الإسلامية لا تتعدى أبا إسحاق من الأحياء، وابن تيمية من الأموات.. كنت أبتسم وأحاول أن أشرح له كيف تسير الأمور.

في اليومِ الثامنَ عَشَرَ سمعت اسمي من الشاويش في الصباح، تجهَّزت وودَّعت زملائي المجرمين، انطلقت للفرع وكان لقاءً سريعًا. شرح لي الضابط أن سبب الاعتقال كان الشك في اتصالي بخلايا جهادية ظهرت حديثًا في غزة ولها أنشطة في سيناء، وأن الأمور مرت على ما يرام. شكرته بكل برود وانطلقت من الفرع أوقف أول سيارة أجرة للبيت.

حمزة نمِرة

كانت الأجواء شاعرية للغاية، الأضواء خافتة والنجوم لامعة، والريح تلعب بسعف النخيل وأوراق الشجيرات الجافة، تغمض عينيك لتستمع جيدًا فيلفحك رذاذ الماء البارد من تلك النافورة العظيمة الفائرة بوسط البركة الصناعية في قلب حديقة الأزهر.. انطلقت كلمات الأنشودة.. عفوًا ربما كانت أغنية هذه المرة.. انطلقت كلمات الأغنية في حفل ختام أنشطة «زدني»، ذلك الفريق الشبابي الذي أصبح رائدًا في مجال التنمية البشرية في ثلاثة أعوام فَقَطْ، وأغلب القائمين عليه إسلاميون على هامش الإخوان أو خارجهم بمسافة ما:

احلم معايا ببكرة جاى.. ولو ماجاش إحنا نجيبه بنفسنا

نفضل نحاول فى الطريق.. كتر الخطاوى تدلنا على حلمنا

مهما نقع نقدر نقوم.. نشـق نتحدى الغيوم

نلاقى ليلـنا ألف يـوم.. بس احـنا نحـلم

بعدما عدت من الحفل أخذت أبحث عن كلمات الأغنية ولم أعثر عليها إلا بعد فترة، وعرفت أنها لشاب جديد اسمه «حمزة نَمِرَة»، اعتقدت أن حمزة نمرة جاء أخيرًا ليجدد عهد الأنشودة الإسلامية الذي خَبَتْ ككل الحالة الإسلامية من حولنا، صحيح أن الموسيقى أوضح من أي وقت مضى، لكن لا

بأس هذه «موضة» العصر. سامي يوسف أيضًا موسيقاه تتضح يوما بعد يوم، لكنني أدركت بعد فترة أن حمزة نمرة ليس منشدًا إسلاميًّا.. ما ينتجه هو فنٌّ راقٍ، وغناء هادف لا شك، ولكنه ليس أناشيد إسلامية على كل حال. كنت سعيدًا لأن دوائر المجتمع الأوسع أخيرًا تستطيع سماع كلمات من ألسنتها، وألحان من معزوفاتها، ولكنها غير ملوثة بالمعجم الغنائي الركيك، الذي لا يعرف سوى «الحبيبة» جمهورًا يخاطبه.

وأيضًا لأن هناك مساحات من حياتنا الشخصية ويومياتنا لم تكن تغطيها الأنشودة الإسلامية، وكنت أطمح لذلك يوما ما، ولكنني كنت مترقبًا لمن يجدد لي «أنشودتي الإسلامية» أيضًا، فليس معنى أن نهتم بالغناء لأحلام الناس، وأن ندندن على الأجواء التي يعيشونها، ألا يغني أحد لأحلامنا، لأحلامي أنا شخصيًّا! وألا يحاول أن تكون هي هي أحلام الناس أيضًا.

منذ أن ظهر حمزة نمرة ظنَّ الشباب الإسلاميون أن هذا هو التطور اللازم للأنشودة الإسلامية، وأننا لم نَعُدْ بحاجة إليها ربما، وربما لم يلحظوا اختفاءها، ربما خبت أحلامهم الإسلامية نفسها فانتفت معها الحاجة إلى الغناء لها.

لكنني ما زلت أحلم، وما زلت لا أجد بعدُ من يغني لأحلامي، ما زلت لا أجد من ينشد للأمة.. للجهاد.. لخيول الروع تسبقنا.. لمجتمعنا.. الإسلامي.. أبحث في الألبوم عن أنشودة واحدة تكون بالفصحى.. علَّ أخي في فِلَسْطِينَ ينشدها معي دون أن يشعر أنها بلهجتي ولا تخصه!

أنشودة واحدة نستطيع أن ننشدها معًا في معسكر أو رحلة ما.. أخذت أسترجع آخر تحديثات الأنشودة منذ أعوام؛ حيث كان أبو خاطر يدندن:

أشرق بنورك فى آفاق أمتنا   واهتف بأجيالها ينجاب داجيها

هد بى إلى دولة الإسلام إن لنا   فى العالمين رسالات نؤديها

فمن يزيل ستارًا عن بصيرتها   ويبعث النور يهديها ويجليها

ومن يجرد سيف الحق منتصرًا   لله يهتف تعظيمًا وتبجيلاً

تتباعد ما بين جيلنا وبينها من أيام، ويطرب الشباب بالكلمات الجديدة، التي لم أُخْفِ تتيمي بها أيضًا:

ياه لما النسيم بياخدنا لمرجيحة بتحضنّا

وياااه وبتعلى فوق سور بيتنا

تاخدنا لفوق وبتسعنا

قافلة

صيف ٢٠١٠، أربع حافلات كبيرة تقف على أحد أطراف ميدان مصطفى محمود، عشرات من الشباب يتوافدون ويراجعون أسماءهم في الكشوف قبل أن يصعد كل واحد منهم لحافلته، كميات كبيرة من العصائر والمثلجات والمعلبات، أدوات حفر وبناء خفيفة، الحقائب الشخصية، وأخيراً معدات التصوير التي وُكلت إليّ مهمتها.

صعد شاب أسمر نحيف إلى حافلتنا قبيل الانطلاق: السلام عليكم ورحمة الله، معاكم محمد ربيع مسئول قافلة الواحات، وأهلاً وسهلاً بكم في قوافل "رسالة" المهندسين، تقبّل الله منا ومنكم..

لم يكن شعوراً مختلفاً عما شهدته من قبل في معسكر "العريش" الإخواني قبل ست سنوات، ربما سمتُ الشباب مختلف قليلاً، هذا يرتدي "شورت" أو "بانتاكور" وآخر شعره طويل مشعّث أو محكوم بربطة صغيرة خلف رأسه، ولكن الأجواء متشابهة في أدعية السفر والخواطر التي ألقاها الكثيرون حول "رسالة" والعمل الخيري وإخلاصه لله حتى ينتفع به المرء، حديث لم ينقطع طوال الطريق.

وصلنا إلى نزل الشباب المعدة لنا في حدود الثانية صباحاً، وبعد مجهود تفريغ الحافلات وتوزيع الغرف آثرت أن أبقى تلك الساعة إلى الفجر، تطفّلت من بعيد على اجتماع لمسؤولي القافلة فلم أتبيّن أي فرق بينه وبين

اجتماع مسؤولي المعسكر في الأيام الخوالي. لكن كل هذا لم يمثل قمة دهشتي.

تهادى أذان الفجر في سكون الليل من جامع صغير قرب النزل. ولم تمرَّ دقائق بعد الأذان حتى كنت في قمة دهشتي فعلاً. القافلة عن بكرة أبيها نزلت زرافاتٍ ووحداناً تلبيةً للنداء. لم يوقظهم مسؤول القافلة. ولم يمنعهم تعب السفر والإرهاق. ولا قلة النوم (ساعة واحدة فقط) من أن يكونوا جميعاً في المسجد قبل إقامة الصلاة. الذى لم يتَّسع للجميع.

كاد قلبى أن يقفز فرحاً من المشهد. هذا ما تمنَّيته طويلاً. أن تخرج الحالة الإسلامية على الناس بالفعل. وتكون هناك عشرات المجموعات التي تتمثلها حتى تنداح في ثنايا المجتمع وتتغلل فيه. فيصير اقتلاعها ضرباً من العبث. وتكون محققة بالفعل لغاية إنشاء التنظيمات والحركات الإسلامية منذ البداية.

طلع النهار علينا. وانتشرت الجلبة في أرجاء المكان. عربات مكشوفة (ربع نقل ونصف نقل) تحمل الشباب والمعدات. مسؤولو القافلة يوزِّعون المهام. مجموعة "الأسقف" تحمل الأخشاب على العربات. مجموعة "توصيل المياه" تأخذ المواسير وأدوات الحفر من أماكنها. مجموعة "المعارض" تبدأ في فرز الملابس القديمة من أكياسها. مجموعة "تجهيز العرائس" ستنتظر إلى أن تحضر الأجهزة الكهربائية بعد العصر. مجموعة "شنط التموين" ستبدأ في تعبئة الزيت والسكر والأرز في حقائبها استعداداً للتوزيع غداً. أما القافلة الطبية فقد سبقتنا بالفعل إلى إحدى العيادات وأخذت أدواتها وعشرات من صناديق الأدوية معها .. القافلة البيطرية مكان عملها سيُجهَّز غداً.

كان الوضع أشبه بساحة حرب. وضعت حامل الكاميرا على كتفي، وفي يدي ثبَّتُ الـ"هاند كام" وأخذت أجول وأصول بين كل المجموعات، محاولاً تسجيل كل لحظة هنا.

هاتف مسؤول القافلة لا يتوقف لحظة، مجموعة ما لم تصل، أخرى تبحث عن دليل بعد اختفاء الدليل الذي اتفقنا معه على اصطحابنا إلى قرية ما، إحدى السيارات تعطَّلت، الوجبات بها نقص، أدوات الحفر ذهبت خطأ لمجموعة "الأسقف"، نحتاج إلى نجار في المكان الفلاني، سباك في المكان العلاني، فواتير من كل من يُدفع له مليم، فواتير ثم فواتير ثم فواتير تغطي كامل النصف مليون جنيه ميزانية القافلة بالكامل لمدة أربعة أيام!

لم يكن في القافلة شاب واحد أستطيع أن أتكهَّن أنه إخوان بشكل حالي، نسبة الإسلاميين بتنويعاتهم قد تكون ٢٠% ونسبة الملتزمين الجدد قد تمثل ٦٠%، وهناك نسبة ٢٠% شباب عاديون جداً، قد كان منهم الذي يدخِّن، لكنه امتنع عن التدخين في هذه الأيام (أمام الناس) احتراماً للمجموع، بلا أية توجيهات أو تعليمات تمنع ذلك، وحافظ أيضاً على الصلاة في المسجد والجماعات لنفس السبب، ولم أكن أتمنى من المجتمع الإسلامي ساعتها فوق هذا.

صحيح أن كل أعمال رسالة "منزوعة الدسم" كما قال لي المهندس سيد يوماً ما عن هذا الإسلام الذى يريده الغرب، توزِّع الصدقات، وتفعل الخير، تتمتَّع بالخير، وتمتنع عن السياسة، ولكن إن كنت أستطيع المشاركة في عملها هذا أسبوعاً أو شهراً، ثم أحضر أيضاً المؤتمرات السياسية مع فصيل إسلامي آخر، وأشارك في التظاهرات الاحتجاجية مع فصيل ثالث، فلا بأس بذلك عندي، بل إنه الخيار الأوفق الذي لا يجعل البيض كله في سلة واحدة، والذي لا يجعل الدعوي والخيري والتثقيفي يخدم فقط على المسار السياسي، كما هو الحاصل في التنظيمات الكبرى.

صحيح أن تلك القافلة كانت مجرَّد لقطة قصيرة، وأن تلك الحالة الاجتماعية التطوعية التي أعجبت بها قد تناهى إلى ما يشوِّه صورتها تماماً من عشرات القصص في العديد من الأعمال الخيرية الأخرى داخل وخارج رسالة، ولكنها على كل حال كانت إشارة جلية بأن مجتمعاً ما قد شارف على الصحوة من حيث لا ندري.

مؤتمر التحضير للثورة

كان المؤتمر يحمل اسمًا عاديًّا «مشاركة الشباب (مسارات وخبرات)»، وكان موعده في ١٨/ ١٢/ ٢٠١٠ أي قبل الثورة بأقل من أربعين يومًا، وفي الوقت الذي كانت الاحتجاجات التُّونُسِيَّةُ بدأت تظهر، دُعيت إليه وعدد كبير من النشطاء والمبادرين الشباب، مائدة مستديرية في فندق سفير بالزمالك، تتوسطها الدكتورة هبة رؤوف وعلى يسارها منسق المؤتمر الشاب عبد الرحمن منصور، وعلى يمينها يتناوب الشباب مشاركة خبراتهم وتقييم مساراتهم.

كان الحضور مدهشًا للغاية، شباب من كل التيارات والأفكار، ولأول مرة من بعض المحافظات المختلفة أيضًا إضافة للعاصمة، استطاعات هبة رؤوف أن تجمع كل ألوان الطيف تقريبًا في هذه الغرفة المغلقة، التي أتى أصحابها إليها دون أزياء رسمية أو رابطات عنق تليق بأجواء المؤتمرات، فَقَطْ «تي شيرت» خفيف، وبنطلون جينز، وحقيبة ظهر بها اللابتوب وبعض الأغراض الأخرى المبعثرة.

شعر الشباب بأنهم في أجواء حميمية فأصبح المؤتمر نقدًا للحركات والمبادرات الشبابية منذ الحَرَاكِ الكبير في ٢٠٠٥ وإلى الآن -أكثر منه مجرد عرض سطحي وجاف لبعض الإنجازات والإخفاقات هنا وهناك، أو كما قال مصطفى النجار الذي كان يعبر عن مرحلة جديدة في مسيرته بتنصيبه في

اليوم نفسه منسقًا جديدًا لحملة البرادعي؛ كما قال: إنها استراحة محارب يحاول أن يحصِيَ فيها الخسائر وَيَعُدَّ الغنائم.

تحدثت ٦ إبريل، تحدث أحمد ماهر، وتحدث محمد عادل أو كما يسمّي نفسه على مدونته "العميد ميت"، وباسم فتحي، تحدثوا عن الهيكل الداخلي وتطويره، والصراعات الأيديولوجية ومحاولة تجاوزها، والحَرَاكِ الهابطةِ أسْهُمُهُ باستمرار ويوحي بفقد الأمل.. تحدث شباب الأحزاب الجديدة، كان الغد حاضرًا وروى الشباب تجربتهم.. اتفقوا على إفلاس التجربة الحزبية في مِصر على كل حال.. تحدث أصحاب التجارب الفردية في الجماعات الكبيرة، تحدث أسامة درة عن تجربته مع الإخوان.. تحدث غير القاهريين.. تحدث الشباب عن تجربة عمال المحلة الكبرى القديمة المتجددة.. وتحدث إسماعيل الإسكندراني عن تجربة النشطاء في الإسكندرية، وتحدث شباب إعلاميون عن تجربة الحَرَاكِ الذي تحدثه قضية خالد سعيد، تحدث الشباب عن المبادرات الثقافية.. أحمد يونس يتحدث عن «مفكرون» و«دوائر المعرفة»، ومحمد الدخاخني يتحدث عن «صالون قرطبة».. تحدث النشطاء الكبار عن أزمات المناضلين بالكلية.. أزمة أخلاق المجال العام ناقشها الناشط اليساري محمد واكد والإسلامي عمرو عبد العزيز.. تحدثتُ بدوري في محور التجارب والمبادرات الإعلامية عن تجربتي في صناعة الأفلام الوثائقية.

تحدث الشباب في اليوم التالي عن المبادرات التعليمية والأنشطة الطلابية.. تحدثت نيرة ونسمة عن مدرسة «نماء» الصيفية.. وتحدث شريف عن تجربة «مويك» ذات الخمس سنوات، وتحدثت عن تجربة «أبجد» التي أُجْهِضَتْ أمنيًّا بعدَ عامٍ واحدٍ من نشأتها.. وتحدث عشرات الشباب عن عشرات التجارب والنماذج بالقاهرة، وعين شمس، والإسكندرية.

كان الحضور الإسلاميُّ خافتًا، وإن كان عدد لا بأس به منهم كان إسلاميًّا يومًا ما، كان منتظمًا في الإخوان على الأغلب، وعدد أكبر لم يكن كذلك، اطلع على الوجه السياسي للتجربة الإسلامية فَقَطْ، لدرجة أنه كان يستمع بدهشة إلى أسامة درة وهو يحكي عن تقاليد الكتيبة في الإخوان، بعض الحضور من شباب الإخوان ابتدروا بالتعليق عليه؛ لكنهم في بقية المداخلات كانوا مشدوهين من كثرة عدد هذه المبادرات التي ربما لم يقدروها حقَّ قدرها يومًا ما، فغالبهم لم يكن من القيادات الشبابية أتى للمؤتمر بلا دعوة، فشعر أنهم داخل الصف لا يكادون يرون سوى أنفسهم.

كان المؤتمر اللحظة التي رأى فيها الحَرَاكُ الشبابيُّ المِصريُّ الصورة كاملة، اللحظة التي أَعُدُّهَا الإرهاصَ الحقيقيَّ للثورةِ، اللحظة التي كانت الثورة فيها تُخَلَّقُ نطفة، ثم عَلَقَةً، ونحن عن هذا غافلون.

اللحظة التي أصبح الكفر بالإسلامية واقعًا مَعِيشًا.. فالإخوان بعد دخولهم انتخابات ٢٠١٠ وطردهم خارج اللعبة السياسية من النظام بالكامل أصبحوا أضحوكة الحركات السياسية والنضالية التي جثت على ركبتها تحاول إقناعهم أن الشارع هو الحل، فقد كانت السلطة كما يقول الدكتور محمد مورو: «ملقاة على قارعة الطريق منذ خمس سنوات تنتظر من يتلقفها»، أو كما سمعت من الدكتورة هبة رؤوف أو ربما الدكتور سيف عبد الفتاح: «خيال مآتة ضخم.. سيسقط وَحْدَهُ قريبًا.. ويجبُ أَنْ ننشغلَ من الآنَ في ماذا بعد سقوطه».

وبالطبع لم يكن السلفيون بأحسن حال منهم، فقد أُلْهُوا بـ«عظمة» القنوات الفضائية، فلم يعد أحدهم بحاجة إلى الذَّهَابِ للعزيز بالله كل جمعة، أو السفر لأبي إسحاق الحويني كل شهر، تقزَّمت الظاهرة داخل أضلاع الشاشات التلفزيونية، ولم يكن لغالبيتهم أي مشاركة في هذا الحَرَاكِ الكبير من قريب أو من بعيد، فالتظاهرات والمسيرات تُعَدُّ خروجًا على الحاكم فهي

حرام، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، وسلطان غشوم خير من فتنة تدوم.

لقد كانت الأجواء مناسبة لخروج العشرات من الحالة الإسلامية تنظيميًّا وفكريًّا، لكنهم على كل حال كانوا أصحاب همم ونفوس تواقة، فلم يخرج معظمهم إلا ليثري مساحات أخرى كانت أرحب وأقدر على الفعل والحركة داخل صفوف المجتمع.

الأخطر عندي كان خروج الشباب لأسباب تتخطى الأطر التنظيمية أو تكتيكات وألولويات الحركة على الأرض، فقد أصبح العداء مع الحركة الإسلامية يصل بالبعض للعداء مع الملة! فمعدل القراءات والاطلاع الآخذ في الازدياد، والمحروم منه تقريبًا كل أبناء الحركة الإسلامية بسبب حالة من الاكتفاء الفكري المتقوقع داخل مصادر المعرفة المعتمدة لدى هذا التيار أو تلك الحركة -تلك القراءات أحدثت هزة عنيفة للشباب، وتخيلوا أن الدين تمثله هذه الحركات، كما تمثله الكنيسة في أوروبا، ومن ثَمَّ أصبح الأمر معقدًا، وأصبح عدد الشباب الذين يسلكون طريق الإلحاد بعد ما كانوا إخوانًا مسلمين، أو الذين حلقوا لِحَاهُمْ ويدخنون الحشيش الآنَ على مقاهي وسط البلد وكانوا سلفيين وطلاب علم -أصبح عددهم في زيادة كل يوم ليكون ظاهرة!

الثـــورة

كنت مع أحد أصدقائى الإسلاميين ليلة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ يخفق قلبانا مما سيحدث فى صباح الغد، بثَّ عنده خوفًا من حملة اعتقالات تطال الناشطين استباقًا للاحتجاجات، في الصباح خرجت فى الموعد إلى «مصطفى محمود» حيث مكان التجمع، كنت على يقين أن هذا اليوم مختلف، فالدعوة قد طارت فى الآفاق، وتونس قد قدمت لنا مثالاً محلولاً للثورة، والقوى المنظمة وعلى رأسها الإخوان -بفضل الله- غائبة عن المشهد، فلن أرى ذلك المشهد اليوم، لن أرى ذلك العميد أو اللواء الذي يتفاوض مع رجل ببزة أنيقة ذى لحية خفيفة على إنهاء الوقفة وإلا يعتقل الأخ الفلاني والعلاني.

سيتجمع الشباب خارج الكردون الأمني وداخله، سيسيرون فى الشارع وبعد أول مِائَةِ مترٍ إما أن ينضمَّ لهم العشراتُ متلقفين الصيحة التي أطلقها ثوار تُونُسَ، أو يسيلَ الدم الأول على الأرض شرارًا يشعل هشيم أعواد الاحتجاجات المستمرة منذ ستة أعوام.

وبالفعل كان ما توقعنا، تجمع المئاتُ من الشبابِ، شباب لا يستطيع الأمن أن يميزهم، من كل الأشكال، ومن أعلى الطبقات، يهتفون من كل مكان حولهم فى ميدان مصطفى محمود، تتحرك المسيرة وتكسر أول مِائَةِ مترٍ، تهتف هُتَافَ كفاية الأثير، كأنها تخرج ميتًا من قبره وتنفض عنه التراب فإذا

بالحياة تَدِبُّ في أوصاله... "يسقط يسقط حسني مبارك.. يسقط يسقط حسني مبارك".

من يعرفون خطورة المشهد أخذوا يقفزون من الفرحة ويحضنون بعضهم بعنفٍ وبقوة، كُنَّا نَصِيحُ بأصواتٍ غيرِ مفهومةٍ كالمجانين، كانت هذه اللحظة التي يعلم فيها كل من ينزل الاحتجاجات عبر السنوات الماضية أن اليوم هو بداية النهاية.

كان بعض شباب الإخوان ذوو الرأي في الجماعة ممن نزلوا في أول ساعة، وخططوا مع بقية الشباب لليوم أن يتصلوا بكل أرقام القيادات على هواتفهم، وينصحوهم بتوجيه الأوامر على الفور بالنزول إلى الشارع في هذه اللحظة الحاسمة، كان الجميع يكتب على فيس بوك وتويتر، كان الأخ يصرخ ونحن في شارع البطل أحمد عبد العزيز فى مسؤول شعبة الدقي عبر الهاتف: إذا لم تنزل الآنَ وتعطي الأوامر لكل الإخوة فأنتم آثمون جميعًا.

كانت الأعداد تتزايد، وتحركات الأمن لا تخفى على الخبراء منا بالتنظيم للمسيرات والوقفات، كنا نوجه الطليعة بالتحرك لسدّ مساحات واسعة من الشارع وثغرات يستطيع الأمن أن ينظم صفوفه ويوقف الزحف عندها، كانت وجهتنا للتحرير بشكل لا إرادي، اقتنع الأمن المركزي بعدم جدوى التعرض لنا في وسط الشوارع، انتظر حتى نصل إلى كوبري الجلاء الذي كان قد سده بأربعة صفوف متتالية، عندما وصلت مقدمة المسيرة للحاجز نظروا للخلف إلى الجموع التي تفوق أعداد الأمن بمراحل، وصاحوا بجنون القوة في وجوههم في مشهد أسطوري، فتزعزع الصف قبل أن يصطدم به متظاهر واحد.

تحمَّلت أجسادنا الضربات الأولى، فُتح الحاجزُ الأول والثاني ولم يبقَ أَمَامَنَا سِوَى الحاجزِ الذي قبلَ الميدانِ مباشرةً حيثُ فتحناهُ صلحًا، فقد كانت الأعداد أكبر من أيِّ قوةٍ، وصلنا الميدان وسط الهتافات التي ترتج: حرية..

حرية.. حرية، وإذا بالرد يأتينا من جانب عربات الأمن المصفحة تُنْزِلُ العشرات في وسط الميدان، وعربات المطافي برشاشات المياه، ومئات الجنود غير المنظمين الذين دُفِعَ بهم إلى الميدان دفعًا، ولم تمرَّ عَشْرُ دقائقَ حتى تقهقر الجميع أمام الجموع التي وصلت من مسيرة القضاء العالي وماسبيرو وقصر العينى، رُجِمَتِ المصفحاتُ بالحجارة وفرَّت هاربة، وَكُسِرَت خراطيم المياه فوق عربات المطافي، وَنُزِعَتِ العِصِيُّ من الجنودِ ففروا خلف مدرعاتهم.

الكرُّ والفرُّ، والدُّخَانُ المُسَيِّلُ للدموع، والهُتافات، والتوافد الذي يزداد ساعة بعد ساعة، وغروب الشمس الذي ظهر معه هُتاف تُونُسَ أخيرًا: "الشعب يريد إسقاط النظام.. الشعب يريد إسقاط النظام"..

حَلَقَاتُ الثوار التي بدأت تتكوَّن ليلتها، نترقب هجومهم الأخير على الميدان، نعلم أنه لا يمكن السماح لنا بأن نبيت هنا، ننتظر «الضربة القاضية» بترقب، نحاول أن نرفع أصواتنا بالغناء كي يعلوَ على ضربات قلوبنا..

"السكة مش طويلة فاضل على حسني زقة.. وهنخلص منه في ليلة لو كلنا قلنا لأه.. لأ لأ لأ يا مبارك لأ ولأ".

السماء قد غطت بالقنابل المسيلة كالشهبِ، والجنود قد أُفْلِتُوا من عِقَالِهِمْ ككلاب ضالة فُكَّتْ من قيودها، ومئات الشظايا اخترقت أجساد الشباب الذين يكملون الجرى والفِرارَ رغم الدم النازف حتى يعينهم آخرون على الحركة والوصول لأماكن آمنة، لمْ يَنْفَضَّ الحشدُ، بل توزع بالتساوي على كل شوارع وسط البلد وسط لهيب من الهتاف.

لم أعد للبيت يومها إلا بعد أن أذَّن فجر اليوم التالي، ظللنا طوال الليل فى مطاردات الشرطة بشوارع وحواري القاهرة، من التحرير إلى وسط البلد ومن رمسيس إلى السبتية إلى بولاق إلى وكالة البلح إلى كورنيش إمبابة.. طلع الصبح علينا في روض الفرج.. كانت مشاهد السيارات المصفحة التي نرجمها

بالحجارة تذكرني بذات المشهد في الانتفاضة الفِلَسْطِينِيَّةِ، العربات التي تفر من أجساد الثوار العارية وأيديهم الفارغة إلا من الحجر.. المشاهد بدت أكثر سخونة عندما اقتربت الاشتباكات من المناطق الشعبية حيث كانت زجاجات «المولوتوف» في انتظارهم.

كنت في مجموعة من الشباب نصفهم إسلاميون أغلبهم لم يعد في الجماعة بعد، ومنهم من يزالون منتظمين، اتفقنا على الاستعداد لليومين التاليين، وكانت خُطَّتُنَا إرهاقَ الأمنِ حتى لا يلتقطَ أنفاسَهُ، فإذا كان يوم الجمعة تقاطرنا عليه من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ.

وبالفعل كَوَّنَّا مسيرةً صغيرةً ليلةَ الجمعةِ (جمعة الغضب)، وكان معظمها شبابٌ مِنَ الإخوانِ والسلفيينَ، وانضم إلينا شباب وفتيات آخرون. كانت المسيرة يخترق صداها بنايات مدينة نصر الشاهقة لأول مرة في تاريخها، خرج الناس من الشرفات مدهوشين، ظهر الأمن بعد نصف ساعة تقريبًا، رأينا عربات الأمن المركزي قَدِ اسْتُدْعِيَتْ لمسيرة قِوَامُهَا خمسونَ شابًّا فَقَطْ، مال علينا أحد الضباط ومعه ذلك اللاسلكي الأسود، من الأفضل أن تنتهوا الآنَ وإلا اعتقلناكم، سفهنا من أحلامه، وبدت لهجة خطابنا صادمةً بالنسبةِ له.

في اللحظة المناسبة أنهى الأمن المسيرة بعد أن اصطاد منا ثمانية شبابٍ واقتادهم إلى العربات التي كانت تنتظرهم.. كانت بسمة عصام طه من خلف نظارته فاترة، بها مزيج من التحدي والاستهزاء.. كان يقف على مَقْرُبَةٍ هو وبعض ضباط فرع أمن الدولة بمدينة نصر، ويشرفون على حفل ترحيب بالصيد الثمين قبل أن يصعدَ للسيارات، وكانت بقية التظاهرة قد أطلقت سيقانها للريح تعدو في كل اتجاه حتى غبنا وغابوا عن الأنظار.

قرر الإخوان النزول في يوم الجمعة، كان مسجد الإيمان هو نقطة التجمع، أطلقنا الإشاعات ليلتها من خلال صفحة دشناها باسم «الثورة في مدينة

نصر» أنَّ الانطلاق سيكون من رابعة العدوية ومسجد السلام، حتى يتشتت الأمن، وتكون هناك أكثر من مسيرة، كانت مدةُ الخُطْبَةِ عَشْر دقائقَ فَقَطْ، لم يعجب أحد الشباب كلام الخطيب عن أن ما يحدث فتنة ويجب تجنبها، فهتف ضده وعلا الهُتَافُ بالمسجدِ، وكان أول قيد يكسر.. وأول صنم يُجْدَعُ أنْفُهُ في ذلك اليوم.

انطلق الهُتَافُ بعد التسليمة الأولى: الشعب يريد إسقاط النظام، فور خروجنا من المسجد حاول أخ مكلف بهتافات اليوم أن يعتليَ كتف أحد الإخوة ويهتف بمكبره المحمول «يا حرية فينك فينك.. أمن الدولة ما بينا وبينك» كان الشباب قد تجاوز ذلك الهتاف تمامًا، فَعَدَدْنَاهُ ردة للوراء، أنزلنا الرجل على الفور، وأخذنا نهتف للناس في الشرفات: "انزل انزل خليك راجل.. حسني مبارك راحل راحل"..

كانت مسيرة مدينة نصر بها كل من أعرفه من إخوان مِنْطَقَتِنَا، كلهم قد خرجوا عن بَكْرَةِ أبيهم، حتى زوجة المهندس خيرت الشاطر وبناته كن يسرن معنا على الأقدام.. وصلنا إلى رمسيس حيث سُدَّ الأفقُ بالناس والدُّخَانِ والعربات المحترقة والدماء.. حاولنا الاختراق مرارًا ولكنَّ الدُّخَانَ كانَ عَامِيًا، رابطنا عند هذه النقطة لنرى ما يُسْفِرُ عنه الليلُ.. دمعت عيناي وأنا أرقب تلك المعركة من مكان مرتفع، الشمس تغرب والأذكار تتردد.. أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله.. لا إله إلا الله وحده لا شريك له له المُلْكُ وله الحمد يُحْيِي وَيُمِيتُ وهو على كل شيء قدير.. نعم أمسينا وأمسى الملك لله حقًا وصدقًا، فلا تدري نفس من يكون لحكم مِصر غدًا.

ثمانية عشر يومًا بالتحرير.. ثمانية عشر يومًا من الحماسة والترقب والأمل والخوف والرهبة، من الإيثار والتراص والبذل والتعاضد، من الكر والفر والخطف والضرب.. لم أَحْضُرْ ذِرْوَتَهَا يومَ «موقعة الجَمَلِ»، كنت متجهًا للبيتِ لآخذَ قِسْطًا من الراحة بعد مبيت ثلاثة أيام في العراء عندما كانت

الأحداث تبدأ، واعتقلت صباح اليوم التالي في أثناءِ محاولتي الوصولَ للميدانِ بِالْمُؤَنِ والدواءِ، لم أَشُكَّ في لحظةٍ في أَنَّ الإِخْوَةَ سيثبتون هناك، كان ما رأيته مِنِ انتظامِ الشعب وتقسيم الميدان بينهم يجعلني مؤمنًا أنهم لن يعودوا قبلَ أنْ ينتهيَ هذا النظام.

بدأت أرضى عن أداء الإسلاميين في الميدانِ منذُ معركةِ الجَمَلِ، صفوف الإخوان قَوِيَتْ أكثر، وأعداد السلفيين بدأت تزداد في الميدان يومًا بعد يوم، كان الوقت الأمثل لمعرفة ملامح الميدان وتنسم رُوحِهِ الثورية بُعَيْدَ صلاةِ العشاء إلى شروق شمس اليوم التالي.

يهجع غالب الإخوة إلى خيامهم مبكرًا، يظلُّ من عليهم نوبات الحراسة على البوابات متيقظين يتدفؤون بكوب شايٍ ساخنٍ من أحد الباعة الجائلين ويقرؤون بأصواتٍ رخيمةٍ في مَصَاحِفِهِمُ الصغيرةِ، عند المِنَصَّةِ أغنيَّة «حلوة يا بلدي» لا يَمَلُّ الثوار من تَكْرَارِهَا والرقص على أنغامها في حَلَقَاتٍ، قد يستخف الطرب بأحد شبابنا إلى الالتحام والرقص معهم أيضًا.. شباب «الإسلام الحضاري» يتحلقون حول هبة رؤوف تحت «مركز الحضارة» بالميدان قرب منتصف الليل، يحللون الخطاب الأخير لمبارك، ويتكهنون بردود الأفعال الخارجية، وينتقدون بعض التحركات السياسية المستجيبة لعمر سليمان.. عند تِمْثَالِ «عمر مكرم» هناك اجتماع لائتلاف شباب الثورة، ممثلو الإخوان يتناقشون مع القُوَى الأخرى على خيارات التصعيد ومساراتها.. متى سنذهب للقصر.. وهل نحاصر ماسبيرو؟ شباب المبادرات والعمل التطوُّعي والخيري ينتظمون في مجموعاتٍ تَجْمَعُ القُمَامَةَ أو تضمدُ المرضى أو توزع أرغفة الخبز وقطع الجبن المغلفة.

قرب الفجر تنتظم الصفوف أمام الخيام، ركعات من قيام الليل بماء وُضُوءٍ بارد وشحيح في تلك الأجواء القارسة.. تزداد الصفوف ويلحق بهم عدد أكبر من أهل الميدان في صلاة الفجر.. ندعو ككل صلاة ونبتهل أن يتقبل الله

ثورتنا وَيُذْهِبَ عدونا.. نفرغ وننتشر بحثًا عن بعض الدفءِ في قطعة بطاطا ساخنة على ورقة بيضاء نتشاركها ونمضي خارج الميدان قليلاً نردد أذكار الصباح على كوبري قصر النيل.. نعود لنجد الماراثون الصباحي قد بدأ والكل شيبًا وشبانًا يدورون حول الميدان متريضين وقد شارف شعاع الشمس الأول على خط يوم جديد بالميدان على ثورتنا..

في الليلة التي أُعْلِنَ فيها التنحي أخذتني الفرحة كما أخذت الجميع بعض الوقت، ثم انتبهت على الأمر العظيم الذي حلَّ بنا، لقد حُمِّلْنَا حِمْلاً ثَقِيلاً، لقد وُضِعْنَا في امتحان عسير، لقد أهلك الله عدونا وسينظر من اليوم كيف نفعل! لقد قصر الإسلاميون أيَّما تقصير حتى أتت تلك الثورة تحاول أن تمنحهم فرصة كي يحملوا إسلاميتهم بحقها.. لقد أتتهم على غير تقدير منهم ولا تدبير، فهل يبادورن اليوم بما قصروا عنه في سالف الأيام.. لقد قضيت تلك الليلة خائفًا فَزِعًا، خائفًا من أن تتحول كل الأفكار والأحلام أوهامًا، فنحن كمن كُشِفَ عنه غِطَاؤُهُ فَبَصَرُهُ اليومَ حَدِيد.. ونحن أعلم أن ما قدمناه بضاعة مُزْجَاةٌ فَأَنَّى لي أن أفرح!

كانت فرحتي الحقيقية عندما دقَّ هاتفي بعد خبر التنحي بساعة، رَقْمٌ دولي، صوت صديقى الفِلَسْطِينِيِّ ابن الشهيد نزار ريان يهنئني: "اليوم أول خُطوةٍ على طريق القدس أيها الأبطال".

فلو لم يكن من أثر في كل تلك المعركة إلا هذه الفرحة والبشر لأهلي في غزة لكفتني، فالآن يرقد الشهيد نزار والمئات من أبناء أرضه في سلام، ويساق من شارك في قتلهم وحاصر أرضهم إلى حتفه قريبًا.

غزوة أمن الدولة

كنا في محاضرة الدكتور محمد سليم العوا الأسبوعية كل سبت في قاعة مسجد رابعة العدوية، جاءتني رسالة على هاتفي «عاجل.. الإخوة يحاولون السيطرة على فرع أمن الدولة بمدينة نصر».. وصلتني ووصلت لعدد من الحضور الشباب، تركنا المحاضرة وتوجهنا فورًا وقلوبنا تسبق خطواتِنا نحو الفرع.

كان الباب الحديدي الأسود الضخم مكسورًا وعشرات الشباب يحاولون إحداث فُرْجَةٍ أكبر حتى نستطيع الدخول أفواجًا إلى المكان، المقر من الداخل يعبث فيه عشرات من الشباب، الملفات تتطاير في كل ناحية، والجميع يحاول اكتشاف الأقبية أو الغرف السرية علهم يحررون بعض الأسرى.

أخذت أستكشف المكان الذي قضيت فيه أربعة أيام من التحقيق معصوب العينين، لم أكن وحدي، بل كان العشرات بل المئات يتقافزون ويتصايحون ويحكون الحكايات لبعضهم عن كل شبر في هذا المكان، كان الصعق هنا، سالت الدماء هنا، انتُهِكت الأعراضُ هنا، انطفأت أعقاب السجائر في أقفية البشر هنا، سُبَّتِ المِلَلُ والنِّحَلُ والأديانُ هنا.. هُرِعْتُ وصديقي الذي عُذِّبَ يومًا ما في المكانِ إلى مكتبِ عصام طه، الأريكة الوثيرة نفسها التي كان يحاول أن ينتشر فيها بجسده النحيل، المكتبَ عينه الذي كان ينفث من

خلفه دخان سيجارته، المكان شبه محطم، الكثير من الإخوة يلتقطون الصور ويرفعون السبابة والوسطى بعلامة النصر.

كان الجميع يأتون على باب معين في المكان ولا يتمالكون أنفسهم من الضحك، ضحكت معهم حتى كدت أنقلب على ظهري عندما رأيته، كان بابًا عاديًّا، لكن هذه الغرفة بالذات كان الواحد منا عندما يدخلها تجد من يسوقه يخفض رأسه حتى منتصف الباب، وينصحك بألا تقف حتى لا تصدم رأسك، كانوا يحاولون إيهامنا بأننا ندخل أقبية تحت الأرض وغرفًا مصممة للفئران، وكنا ننقبض في هذا المكان كأنه قبر، وهنا نحن في غرفة «القبو» وما هي إلا غرفة عاديَّة جدًّا.

الطابق الثاني في المكان كان به آلاف الأشرطة المبعثرة والسيديهات والكتب، أخذت أبحث عن أشرطة مكتبة مسجدنا القديمة، أو كتب جدي التي أُخِذَتْ مِنِّي، كان الجميع يبحث عله يعثر على أغراض ربما فقدها منذ أشهر أو سنين عدة!

أخذت تأتينا الاتصالات أن الإخوة الذين يقتحمون المقر الرئيس لأمن الدولة في الحي السادس يحتاجون إلى دعم، انتشر الشباب في الطريق الطويل الواصل بين الفرع والمقر في مدينة نصر، كانت مسيرة كبيرة وصلت لتلتحم بآلاف الشباب الذين يحاصرون المقر.

كانت ساعة مهيبة، آلاف من الشباب السلفي والإخواني، صفان من الشباب الملتحي عند الباب الرئيس يحاولون تأمين خروج من يُعْثَرُ عليهم من ضباط أمن الدولة داخل المقر، لا يمكن أن أنسى نظرة الذعر في عين الضابط الذي يمسكون بتلابيبه، زائغ النظرات يمشي بين الصفين وأصابع الشباب كلها مرفوعة بالسبابة وحلوقهم تجهر بالتكبير في مشهد لم يزره في أسوء كوابيس حياته.

ـحت من البابُ الجانبي لأجد نفسي بعد خطوات في قلب المقر، تتوسط مبانيه الحصينة بتصميماتها الحادة حديقة واسعة يفترش البعض أرضها وسط المئات من البشر المقتحمين، وعشرات الجنود من الجيش والشرطة العسكرية التي تحاول السيطرة على المكان وتسلم الضباط والمرفقات المختلفة.

لمحت في أحد أطراف المكان أسرة صغيرة تستقر في المكان وادعة ساكنة وسط الصخب، أب وأم وأولادهما، إنها أسرة حسام أبو بكر مسؤول المكتب الإداري للإخوان بقطاع شرق القاهرة، إنها زوجته بجواره تلك السيدة التي لا تُحْصِي عدد المرات التي باتت فيها وزوجها قابع هنا في إحدى تلك الأقبية ينام على الأرض أو يتبلغ بطعام بارد، إنهم أولاده وبناته وأطفاله الذين يفزعون لكل طرقة بعد منتصف الليل، يعرفون أن وراءها غياب لوالدهم طال أو قصر.. أتت العائلة لتشهد تلك الساعة التي ربما هدهدتهم بها أمهم قبل النوم في إحدى الليالي التي باعد فيها أمن الدولة بينهم وبين أبيهم، ربما ذكرت لهم مرارًا أن الظلم ظلمات يوم القيامة، أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده.. يستسلم الأطفال للحُلْمِ والنوم وكلمات أنشودة شريط «درة الشهداء» تصدح في أرجاء البيت..

الظلم لو طال ليله للحق ألف نهار.. لو طال عذابه ويله لا بد يوم ينهار

ده الظلم يوم.. والحق كل يوم.. وازاى يطول ازاى ده الباقى هو الله

ابنى يا ظالم عَلِّى وعَمَّـــر.. واســتعمر على قد ما تقدر

بُكره الحق يشيل ويدمر.. ولا حد هينجيك من النار

إذا كانت جمعة الغضب أو موقعة الجمل أو جمعة التنحي أيام ذِروة الثورة لدى جموع الثائرين، فإن سبت اقتحام مقارّ أمن الدولة كان ذِروة الثورة

بالنسبة لكثير من الإسلاميين.. الثورة التي ربما لم يستمر مَدُّهَا ولا أنفاسها بعد ذلك اليوم كثيرًا..

عـــالمنا

زِنْـدِى مُجَـاهدى.. ديارِ شـاهِدانِمَا
مُوَفَّـقٌ زَمْبُوشـى.. خَلْقِ مُسَــلْمانيما
نحن بنو الفـاتحين صفوة هذا الوجـود
نقتدى بالرســول ونهتدى بالجـــدود
ذاك السباعى يُقال.. أسس جيل الدعاة
جـيل قوى متين.. تشهد بذاك حمـاة
صديق وفى العهود.. ثم الزمان طــواهْ
ما غــرَّهُ أن يـلينَ.. لا وربي أن يـراهْ
زِنْدِى مُجَـاهدى.. ديــارِ شـاهِدانِمَا
مُوَفَّقٌ زَمْبُوشــى.. خَـلْقِ مُسَلْمـانيما

تملأ حروف الأنشودة السورية ذات المطلع الأفغاني فضاء المحيط الهادي من حَنْجَرَةِ ذاك الفتى المغربي وهو يدندن بها وسط ثُلَّةٍ من الشباب على متن باخرة تستقلنا إلى إحدى جزر ماليزيا الساحرة، شباب من كل أنحاء الوطن العربي يرددون خلفه في حماسة، تسكرهم الكلمات مع انكسارات الأمواج

وهفهفة خُمُر الفتيات وتحليق الطيور ولألآت الأشعة المنعكسة على صفحات الماء الواسعة.

لم يكن المشهد أحد أحلامى بعد وجبة قراءات إسلامية دسمة، بل كان أحد أيامى بعد أنِ اخْتِيَرْتُ ضمنَ وفدِ «مِصْرَ» لأكاديمية إعداد القادة ٢٠١١ في ماليزيا، تلك الأكاديمية التي لها ثلاث من السنين تداعب أحلام المئات من الشباب الإسلامي كما يداعب «ستار أكاديمي» أو «ستار ميكر» أحلام الآلاف وربما الملايين من الشباب العادِيِّ في أرجاء الوطنِ العربيِّ شتى.

كان الدكتور طارق السويدان المدرب والمفكر الإخواني ذو الطراز المنفتح المتطور (كما تجربة الإخوانية في الكويت كلها) يقف مع زوجته بثينة الابراهيمى مديرة الأكاديمية يتابعان المشهد بحفاوة بالغة. فالأكاديمية بالنسبة لهما حُلْمٌ يكبر وينضج عامًا بعد الآخر، يتجمع لها صفوةُ شبابِ الإسلامِيّينَ من كُلِّ البلادِ. في تركيا أو ماليزيا أو أيِّ بلدٍ يختارونه في مستقبل الأيام، يقضون قُرَابَةَ الْعِشْرِينَ يومًا، ما بين المحاضرات المعرفية الفكرية.. والقيادية المهارية، ما بين ورش العمل ومجموعات المشاريع.. وحفلات السمر والإنشاد، ما بين الحوارات المستمرة على طاولات الطعام وبعد انتهاء المحاضرات.. واللقاءات الخاصة للقادة الشباب مع الدكتور طارق يعرضون عليه خُطَطَ حياتهم ويناقشونه في مشروعاتهم الخاصة للأمة ونهضة بلادهم، أو اللقاءات الخاصة مع الأستاذة بثينة يستشيرونها في خططهم الاجتماعية ومعايير اختيار شريك الحياة وبناء البيت المسلم.

وصلنا للجزيرة بعد ما خيم الليلُ وحلّ التعبُ من الإبحار، استقللنا عرباتٍ مكشوفةً تمشي بنا وسط الجبال وبين الأدغال حتى نصل للفندق في الجهة الأخرى من الجزيرة، استخف الطرب بالشباب الذين شعروا وكأنهم في سرية على أحد مدقات جبال قندهار.. أخذنا ننشد:

هو الحق يحشُدُ أجناده ويعتدُّ للموقف الفاصل

فصفُّوا الكتائب آساده ودكُّوا بها دولة الباطل

دعاة إلى الحق لسنا نرى له فدية دون بذل الدم

يعلو صوتنا بالإنشاد وتأخذ العربات في الصعود بنا أكثر نحو القمة، ثم تهوي أكثر نحو المحيط مرة أخرى، فنشرب خمرة الأناشيد ونعلي قدحها أكثر وأكثر..

شبابنا هيا إلى المعالى هيا اصعدوا شوامخ الجبالِ

هيا اهتفوا يا معشر الرجال قولوا لكل الناس لا نبالى

شبابنا قد آن أن تعودوا لواحة الإيمان كى تسودوا

غدًا بكم سيسعد الوجود ويسقط المستعبِد العنيدُ

شبابنا سيروا إلى الجهاد بقوة الإيمان والعتادِ

لتوقِفوا قوافل الفساد وتنشروا السلام فى البلادِ

كانت الأكاديمية نموذجًا مثاليًا من «مجتمعنا» في صورته العالمية، كان لبنة «أستاذية العالم» التي لو اطلع عليها شباب العالم لجالدونا على سعادتنا بها بالسيوف، كانت الصخرة التي تفتت عليها كل الحدود والأعلام التي حاولت

أن تقولبنا كل هذه السنين، كانت الحقيقة وعمرنا الذي قضيناه قبلها هو الخداع والزيف..

كنت أشعر بكل هذا وأنا أستمع لمحاضرات محمد أحمد الراشد الإخواني العراقي صاحب الكتابات المشهورة في البنية الفكرية والتنظيمية الصُّلْبَةِ للجماعة.. وأنا أتابع محاضرات صلاح سلطان الداعية الدرعمي صاحب النشاط الإسلامي الواسع في أمريكا والغرب.. وأنا متقد الذهن أتلقف كل كلمة يتفوه بها عدنان إبراهيم الفيزيائي والموسوعة المعرفية الإسلامية غير التقليدي الذي يذكرني بكتابات وحيد الدين خان وأقرانه.. كنا نضرب كل هذه الخلطة في رؤوسنا مع عشرات القواعد والنصائح القيادية والاستراتيجية والمهارية من محاضرات السويدان فيشعر البعض كأنما أُنْشِئَ خَلْقًا آخر.

وكان يتخللُ كل هذا كَمٌّ هائلٌ من النقاشات الفكرية بين الشباب في ثنايا المحاضراتِ عن الزواج والحب والحدود وفِلَسْطِينَ والثَّوْرَاتِ العربية والحركات الإسلامية والفكر الغربي وعادات شعوبنا واختلاف اللهجات والعلم والتمكين والثوابت والمتجددات.. كل هذا وأضعافه من حوارات لا تنتهي يأخذ بعضها بعناقيد بعض في الغرف والأروقة والقاعات والحافلات.. تتشابك وتتناغم كمعزوفة متقنة ندندن عليها أنشودة أثيرة يستغل أحد الشباب تأخر المحاضر فيمسك بالمايك ويصدح به في القاعة.. والجميع يردد المقطع الأخير من كل بيت فيها:

يا شباب العالم المحمدى.. يا شباب

ينقص الكون شباب مهتدى..مهتدى

فأروه دينكـــــم ليقتـدى.. ليقتدى

دين وعقـــل وضـــمير ويد.. ويدِ

يدخل المحاضر فلا يبدأ محاضرته قبل أن يسمعَ أنشودةً أخرى حتى يتحمس ويبدأ في إلقاء مادته، فيتبرع شباب المغرب بفقرتهم وينشدون بلهجتهم واضحة المعالم..

إسلام يا حاضرين دين ودولة مجْتِمْعِين.. قولها يا سامعين لدعاة العَلمانية
إسلام علم الناس الصدق والإخلاص.. والتربية الأساس لأجيال ربانية
واللي ما تيقن سولو الأبطال السابقين.. خالد بن الوليد وعمار وسومية

فقد الجميع انتماءهم في هذه الأيام إلا للأمة، رحبت بهذا الفقد الذي كنت أنظر له طويلاً وأحلم أن أختبره يومًا، لكن اليوم الذي اختبرته فيه شَهِدَ أيضًا مفاجأة عجيبة، ففي اليوم الذي خُصِّصَتْ فيه فِقْرَةٌ لـ«مَعْرِضِ الشُّعُوبِ» وجدتني لأول مرة أهتف بأغنيَّةٍ مِصْرِيَّةٍ صميمة، أَرْبِطُ الشال على رأسي بالطريقة المِصرية الصعيدية وأحاول أن أقلد إحدى لهجات الفلاحين في موطني.
لقد انضبطت المعادلة أخيرًا، فانعدل الميزان، لشعوبنا وبلادنا علينا حق، لكن أن نُحرَم من أمتنا وأرضنا الواسعة باسم هذا الحق فإنه يتحول لباطل وزيف، للهجات الخاصة والطباع والعادات المحلية مذاق خاص، ولكن بعد أن نكون قد حَلَّقْنَا في فضاءاتٍ، وتشاركنا مذاقات أرحب.. ترى ما يكون حال الذين يجادلون في إسلاميتنا لو أتوا إلى مثل هذه الأكاديمية، أي أحلام يتشاركون، وأي لحنٍ واحدٍ يعزفون، أي مستقبل يصوغون، وأي ماضٍ يتنسمون معًا وليس بينهم كل هذا!
مررنا على كل الشعوب في المَعْرِضِ، رقصنا بالسيوف في الخليج والسُّعُودِيَّةِ، وأكلنا الفستق الحلبي في سوريَّةَ.. أهدينا العباءات البيضاء الواسعة في

المغرب.. غنينا «إذا الشعبُ يومًا أراد الحياة» في تُونُسَ.. وحاولنا تقليد الدبكة على الدفوف في الأُرْدُنِّ وَلُبْنَانَ.. تعانقنا بالأيدى على الأكتاف على الطريقة السودانية وشربنا القهوة اليمينة.. تجمعت كل الأفواج ويمم الشباب وجوههم حيثُ فِلَسْطِينَ.. تلثم شبابها بالكوفية البيضاء ذات الشبكة السوداء الأثيرة.. وحملوا الأحجار في أيديهم.. هتفوا وهتف الجميع: "يا قدس إنا عائدون".. غنوا وغنى الجميع:

ربنا إياك ندعـــو ربنا.. آتنا النصـر الذى وعدتنا

إننا نبغى رضاك إننا.. ما ارتضينا غير ما ترضى لنا

أنفسًا طاهرة طهر الحرم.. تملأ التـاريخَ مجدًا وكرم

وافيات بالعهود والذمم.. وافيات للمعـــالى والهـمم

وبرغم الإسلامية الناضحة فإنَّ هواجس التحلل من ذاك الرِّبَاطِ الوثيقِ بشكله التقليدي قد بدت واضحة في ثنايا أحاديث الشباب عن الحاضر والمستقبل، فها هي الأناشيد التي نتشاركها أحدثها يعود لِعَشْرِ سنوات للوراء على الأقل، وأغلبنا لم يعد يحفظها كاملة، وربما لا يتذكر منها سوى أول بيت أو اثنين، وها هم الكثير من الشباب قد تحللوا من أسر التنظيم، وآخر لقاء تربوي قد حضروه ربما منذ عام أو عامين، وها هو مستوى العَلاقَاتِ والانفتاح بين الشباب والفتيات آخذ في الانتشار إلى ما لم يصله من قبل، ها هو الجبن والعسل الذي كنا نأكله في صَحْرَاءِ الْعَرِيشِ قد تَحَوَّلَ إلى «بوفيه مفتوح» به في كل وجبة ما لا يقل عن عشرين نوعًا من الطعام ومثلها من الفاكهة والحلوى.. ها هي صلاة الفجر يغيب عنها الكثير من الشباب.. يسهرون لساعاتٍ متأخرةٍ يتحدثون في أمر الأمة ويصحون على

وقت المحاضرة وقد ضاعت عليهم الصلاة.. ها هم بعض الشباب يحاول أن ينافحَ عن دولته إذا هُوجِمَتْ من شباب دولة أخرى حَمِيَّة جاهلية حديثة..
الكثير من الأمور بدأت تختلف للأسوأ وأحيانًا للأفضل.. قد أجْزِمُ بهذا أو ذاك لإحداها وأحار وأتوقف عند أخرى، لكن على كل حال لم يكن مشهد الاحتفال بعيد ميلاد عضو في إدارة الأكاديمية بالطريقة الغربية (الشموع والأغنية والتورتة) لم يكن للمشهد أن يتمَّ وسط ابتهاج الجميع في جيل تَشَرَّبَ إسلاميته كاملة غير منقوصة ولا مشوهة.
في آخر أيام الأكاديمية خرجنا إلى شوارع وأسواق كوالالمبور، كان حُلْمُ الدولةِ الإسلاميةِ تخترق جَسَدَهُ الواهنَ الرَّصَاصَاتُ من كُلِّ جَانِبٍ، ونحن نشاهد البلدَ الذي طالما تَغَنَّى به بعضُ الناسِ في مِصْرَ بأنها «تَجْرِبَةٌ إسلامِيَّةٌ»، كانت التجربة الإسلامية تغص بمئات الفتيات ذوات «الهوت شورت» في كل أنحاء العاصمة، وتغص بكبريات الشركات والبنوك الكبيرة في البنايات المزروعة رأسها بين السحب..
حاولنا أن نتلمس وجهًا إسلاميًّا واحدًا لهذا البلد، قررت أنا وصديقى الشيخ أنس السطان أنْ نَذْهَبَ لصلاةِ الجمعةِ. سألنا عن المسجدِ وَذَهَبْنَا إليه مُبَكِّرِينَ، وجدناهم يقدمون درسًا بينَ يَدَيِ الخُطْبَةِ، حَمِدَ الرجلُ اللهَ وأثنى عليه، وصلى وسلم على النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ولم نسمع منه كلمة عربيةً بعد ما قال: أما بعد، أخذتنى سنة من النوم لما طال الدرس ولم أُفِقْ إلا وهو يختم ويدعو بلسانٍ عربيٍّ ذي لكنة أعجمية «اللهم إنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على محبتك والتقت على طاعتك وتعاهدت على نصرة شريعتك فوحد اللهم رابطتها... إلى أن أنهى وِرد الرابطةِ فأذن للجمعة.
ربما الإخلاص وحده هو الذي يمكن أن يصل بهذا الدعاء من فم حسن البنا في الكتيبة التي كان يعقدها منذ ستين عامًا إلى هنا في ماليزيا وسط مئات

المصلين في أحد المساجد الرئيسة بكوالالمبور، أخذت أفكر، ربما الإخلاص أيضًا هو الذي لم نستطع أن نصل إليه حتى نحقق طفرة كالتي حققها البنا ورفاقه في الحركة الإسلامية في طول البلاد وعرضها.

كان الوداع ثقيلاً في آخر يوم، تسلم الجميع شهاداته في الحفل الختامي، أُلْقِيَتْ كلماتُ الوداع، قمنا بتأليف وتمثيل «اسكتش» عن الثورة السورية، حاولت فيه أن أتقنَ اللهجةَ وأن ألقيَ بكلمات الاستبسال قبل أن أستشهد في أجواء درامية على خشبة المسرح.. أضيئت الأنوار، رفعت المصاحف.. تشابكت الأيدي وانطلق لحن الوداع:

سوف نبقى هنا كى يزول الألم.. سوف نحيا هنا سوف يحلو النغم

موطنى موطنى.. موطنى ذا الإباء .. موطنى موطنى.. موطنى يا أُنا

رغم كيد العدا رغم كل النقم .. سوف نسعى إلى أن تعم النعم

سوف نرنو إلى رفع كل الهمم .. بالمسير للعلا ومناجاة القمم

فلنقم كلنا بالدواة والقلم.. كلنا عفوٌ على من يصارع السقم

فلنواصل المسير نحو غايات أهم.. ونكون حقًّا خير أمة بين الأمم

سوف نبقى هنا كى يزول الألم.. سوف نحيا هنا سوف يحلو النغم

خرجنا من الأكاديمية ولا أجمل في نفوسنا من شعور أن بالآفاق أناسًا يقتاتون كل صباح من نفس رغيف الحُلْمِ الذي نقتات منه، هم أقرب إليك من شركاء الوطن وزملاء العمل ورفاق الكفاح.. ركبت الطائرة عائدًا لوطنى أضع سماعة الأذن فينطلق لحن شجيٌّ يهيج نفسي شوقًا لهؤلاء الإخوان الذين لم يمضِ على مفارقتهم ساعات..

أخى فى فؤادى وفى مسمعى.. وفى خاطرى أنت والأضلع
أخى فى حناياك يجرى هواى.. وروحك فى الكون تسرى معى
أخى إن بسمت فعن مبسمى.. وإن أنت نُحت فمن أدمعى
أخى إن تراءى لعينى الصباح.. تبينتُ نورك فى المطلع
أخى أنا أنت فآمالنا.. وآلامنا فِضْنَ من منبع
أخى نغم أنت يحلو به.. فمى.. وَيَهَشُّ له مسمعى
أخى خذ مكانك فوق النجوم.. وقف أنت والشمس فى موضع

ماذا حدث للإسلاميين

كان البناء الإسلامي متماسكًا بفعل القبضة الأمنية المحاصِرة له، والاضطهاد السياسي والإعلامي الذي يتعرض له عبر العقود المتعاقبة، كانت أفكارنا السياسية وتصوراتنا الاقتصادية ورؤانا الاستراتيجية حبيسة الكتب والأشرطة والمؤتمرات، تتحدى أن لو قدر الله لها التمكين لَتُرِيَنَّ الناس من نفسها خيرًا، وكانت الأجواء الاجتماعية والتربوية محاطة بقدر كبير مِنَ الانغلاق والعزلة التي تحافظ لها على نقائها، وتضاعف من أثرها ومفعولها البالغ الأثر في النفوس.

عندما جاءت الثورة على غير موعد معنا انفتحت شرانق كل هذه الأفكار وطارت في النور تضرب بجناحيها في فضاءات الحياة، وانفكت هذه التصورات من عقالها تركض في البرية متخبطة بين الوهاد، وتحررت تلك الأجواء التربوية من أسر التحوط والتمترس أمام موجات المجتمع.

كنا نتمازح ليلة التنحي مع أصدقائنا من الإخوان بأن المرشد أصدر الأوامر بإطلاق اللحى بعد ما سقط النظام، فقد كانت الحجة الوحيدة لدى الإخوان بين الأوساط السلفية أمنية، لكن بعد سنتين من الثورة استسلمت أن هذا كان خداعًا، لم يهمَّنِي كثيرًا في يوم ما الخلاف حول الحكم الشرعي بقدر ما أهمني أن المنافحة عن عدم إطلاقها كان بحجة أمنية، زالت وبقيَ الأمر على حاله!

بدأنا نعجب لحال السلفيين، بعد أن كانت السياسة «حرامًا»، والنظام اليمقراطي مبنيًّا على مبادئ الشرك، وفكرة البرلمان تؤصل للتشريع من دون الله، أصبح كل هذا مباحًا ومندوبًا في يوم وليلة، أُنْشِئَ حزب النور دون مراجعة واحدة لأي من هذه النظريات، لم يتغير شيء في المعادلة، فلم تكن حجية عدم الدخول في الانتخابات متوقفة على تغلب سلطان جائر أو عادل، وإنما كانت مبنية على النظام البرلماني والديمقراطي نفسه، على حكم الشعب لنفسه، والأصل أن السيد هو الله، وأن عشرات من أشرطة العقيدة لإسماعيل المقدم كانت تنظر لهذا عن قناعة تامة.. انقلب كل هذا رأسًا على عَقِبٍ فلم أَعُدْ أَعْرِفُ السلفيين حقًّا!

خِلْتُ أَنَّ المساجدَ ستعودُ لعصورها السلفية الذهبية، لكن حال بين هذه العودة انتشار المشايخ في القنوات ودخول بعضهم إلى الساحة السياسية من غير خبرة ولا دراية، وهذا يؤدي بهم إلى مهازل تُلْحِقُ العارَ بِكُلِّ إسْلامِيٍّ، وخلو الساحة العلمية ممن يستعيد حلقات الدروس، واختفاء الشباب الذي يهتم بذلك أصلاً، حيث ذابوا في دهاليز العمل العام وحملات المرشحين وانتخابات البرلمان والرئاسة والأحزاب ومليونيات الشريعة!

خِلْت أن المساجد تعدُّ لنا محاضن تربوية بعد أن أغلقتها وزارة الأوقاف واحدًا تِلْوَ الآخَرِ بتعليمات أمن الدولة، ربما اختفاء مكتبات الأشرطة لأن الإنترنت والفضائيات مُلِئَتْ بالبرامج الإسلامية والمشايخ، ولكن اعتكافات رمضان التي تلت الثورة كانت فاضحة للغاية، فلم تزد أي أعداد بها، بل ربما تراجعت في عدد ليس بالقليل منها.. المكوث في المسجد في أي وقت لم يعد أصلاً منتشرًا بين الشباب كما كان من قبل!

لم أعد أجلس إلى الشروق بعد الفجر ولم أعد أرى من يجالس أطفالاً يحفظهم القرآن ويلقنهم الأذكار، قَلَّتِ المواظبةُ على صلاة الفجر ومعظم الصلوات في المسجد، كل أصدقائي الإسلاميين أراهم حتى ساعة متأخرة من

الليل على الفيسبوك يعلقون ويتشاركون أحوال البلد والكثير منا ينام قبل الفجر بساعتين أو ثلاث.. لم أعد أصطحب مصحفي الصغير في كل مرة أخرج فيها ولم أعد أراه كما كان دائمًا في جيب كل الشباب كما علبة السجائر في جيب كل مدخن.. أصبح الورد القرآني غير منتظم أكثر من أي وقت مضى!

لم يعد الحديث عن الأمة هو ما يشغل بالنا، انفتحت مساحة الفعل فأغرقتنا في همومنا ومشاكلنا التي لا حصر لها، عجزنا ونحن في زمن الثَّوْرَاتِ عن نصرة الشعب السوري، لم يخرج جمهور الإسلاميين في مليونيات تعتصم ولا تنفضُّ قبل أن يأخذ رئيسها الإسلامي قرارًا بالتدخل لوقف الدماء، ربما يكون حَلاً خياليًّا، ولكن المشكلة أَنَّ أحدًا لم يفكر في هذا أصلاً، في الوقت الذي فكرنا في أضعافه أيام حرب غزة!

قابلت عددًا من شباب الإسلاميين من مِصْرَ وليبيا وَتُونُسَ واليمنِ والمغربِ في مؤتمراتٍ مختلفةٍ بِمِصْرَ وَطِهْرَانَ وَإِسْطَنْبُولَ، ولاحظت أفول الحديث عن الحدود وسايكس بيكو وآمال الخلافة أو الوَحْدَة الإسلامية الكونفدرالية أيًّا كان الشكل، مقابل صعود الحديث حول خصوصية التجربة السياسية، وحساسية المعادلات الدولية، وموازين القوى العالمية، ولم تكن تلك النبرة لتنتشر لولا عشرات الخطابات السياسية لقادة الأحزاب الإسلامية السياسية في طول البلاد وعرضها.

أصبح الحديث عن الدساتيرِ والقوانينِ في مَادَّةٍ أو اثنتين خلافًا شكليًّا حول المادة الثانية في الدستور أو الفِقْرَة كذا من قانون كذا، ولم يعد أحد منا يبدأ الحديث كما تعلمنا في مئات الخطب: «القانون الوضعي الذي أتى به الاحتلالُ إلى بلادنا».. لا أدري هل كان القانون كل هذه الفترة شرعيًّا ليس به إلا هذه الفقرات لتعدل، أم إن الاحتلال بالفعل هو الذي أتى به وعلينا أن ننقضه أولاً عن آخر!

ارْتُكِبَتْ عشراتُ الأخطاءِ وربما الخطايا في كل الحملات السياسية للمرشحين الإسلاميين، انقسمت الساحة الإسلامية في الوقت الذي أقسمت ألا تفعل هذا في أول عهدها بالسياسة، كلٌّ أخذ بطرف.. كلٌّ أخذ يتناحر على وَفْقِ قواعد اللُّعبة الموضوعة سلفًا، قواعد اللعبة التي يؤمن أغلبهم بعدم إسلاميتها أصلاً..

طفا كل هذا اللغط في الفضاء العام، ووجد الإعلام ضالته في هذه البيئة، فتح الناس أعينهم على الإسلاميين الذين انفردت لهم المساحات الإعلامية العريضة، فإذا بها تنفتح على هذا المشهد، تنفتح على إحجامهم في معارك «محمد محمود» و«مجلس الوزراء».. كانت خطوط النار خالية منهم إلا حفنة ممن خرجوا عن كل التيارات واندمجوا مع الشباب الثوار منذ أول يوم في الثورة.

كانت الصدمة بالغة.. حاولت الصمود في معارك محمد محمود، حاولت أن أتعلل لهم، ولأدمغتهم التي صدمها الخروج للنور فأعشاها عن البصيرة، عن أن الخط الثوري قد آن له أن يكون منهجًا بديلاً عن الإصلاحي الذي لا مكان له بعد الآن.. لكنني لم أستطع الصمود وأنا أَتَلَفَّتُ يمنةً ويسرةً في جِنَازَةِ الشهيد «عماد عفت» فلا أرى إسلاميين لا شيبًا ولا شبانًا، لا أرى إلا ممثلين بوفود رسمية لا يزيد عدد أفرادها على عدد القساوسة الذين جاءوا متضامنين مع القضية.. بكيت بكل حرقة يومها، بكيت على الحق الذي أضعناه بأيدينا وعلى الدماء التي أهدرناها بموقف متخاذل كهذا.. فلا بارك الله في «إسلامية» يكون هذا نتاجها بعد كل سنين البذل والظلم والحلم.

لم أشعرْ أننا «يومًا ما كُنَّا إِسْلامِيّينَ» بسبب كل تلك المواقف في المجال العامّ، ولكن أيضًا مجتمعنا أصبح وكأنه يومًا ما كان إسلاميًا، فلم يعد له نفس الشكل التقليدي، لم يعد الخلافُ دائرًا بينَ الإسلاميين حول استحلال الموسيقى، ولم يعد أحد يهتم بإصدار أنشودة جديدة دون إيقاع، أو

بخلفيات الدفوف.. أضيفت فيروز إلى الكثير من صفحاتنا في «مفضلات الموسيقى».. اختفى الخمار الإخوانى من كل أرجاء القاهرة وبدأ يزحف الشكل الجديد للطُّرَحِ (الأوشحة) في المحافظات أيضًا.

انفتحت مساحة الإعلام لنا فلم أجد من يقدم برنامجًا واحدًا عن مجتمعنا الإسلامي.. قناة إخوانية ويظهر فيها المذيعات بـ«ميك أب» كامل، وتدار بها برامج حوارية تحاول أن تدافع عن قرض ربوي فتسميه «مصاريف إدارية».. لا يوجد أي فاصل في القناة يدير أنشودة طال غيابها عن الأسماع، ويكأننا ليس لدينا أبو عبد الملك وأبو راتب إذا ما طرب الآخرون بعبد الوهاب وأم كلثوم! أُدرِكُ أَنَّ علينا توجية مِسَاحَاتٍ إعلاميَّةٍ لكل الناس، لكن أيضًا نحن أنفسنا في حاجة لإعلام يتحدث عَنَّا حتى لا ننسى من نحن بعد عَقْدٍ من الزمان ربما.

انتشرت المبادرات والفعاليات والفرق التي خرجت من الرحم الإسلامي، أصبح الاختلاط سمتًا رئيسًا فيها بعد أن كان جانبيًا، لم يعد أحد يستطيع العثور على فعالية واحدة غير مختلطة ربما لعام كامل..

نادرًا ما تجد من تتحدث إليك وعينها في الأرض أو تأخذ الزاوية المعهودة قديمًا.. لم يعد أحدهم يُذَكِّرُ بالنية قبل الاجتماعات، أو يرتب المواعيد قبل الصلوات أو بعدها، أصبح جمع الصلوات بلا عذر سمةً عَامَّةً في أي اجتماع أو فعالية تطول.. تَحْضُرُ ساعةُ الغروب فلا أجد نفسي أردد الأذكار، وأراقب بإشفاق شفاه الجميع فلا أجد أحدًا يرددها، أتحسس قلبي برفق، وأكمل الاجتماع.

وفي الوقت الذي نرتب فيه لقاءاتٍ شبابيةً خالصةً من دون فتياتٍ فإننا نرتبها على المقاهي، التي كنا نتجنبها يومًا ما لأنها من مواطنِ اللَّهْوِ والشبهات، فيتخلل الجلسات التي تمتد حتى ساعات الليل المتأخرة ما هو أسوأ من مضارِّ الاختلاطِ، تنفلت الألفاظ، وتضاف مئاتُ الكلماتِ إلى معاجم

ألسنتنا. لا يسلم أي إسلامي على الساحة من الألسنة، تجريحًا وتسفيهًا وقذفًا بالحق والباطل.. ينتهي المجلس ولا يتذكر أغلبنا أن يختم «سبحانك اللهم وبحمدك.. نشهد ألا إله إلا أنت.. نستغفرك ونتوب إليك».

العشرات من الظواهر التي ربما تبلغ ذِروتها في حالات الانسلاخ الكامل والمعلن عن الحالة الإسلامية سياسيًّا كمن انضمَّ بل أسس بعض الأحزاب الليبرالية بعد أن كان إسلاميًّا، أو فكريًّا كمن تبنى فكرًا مختلفًا أو أخذ يتساءل حول الأفكار الكبرى للإسلام صلاحها وصلاحيتها معًا إلى الدرجة التي يعطل فيها دينه ذهنيًّا، أو سلوكيًّا كمن يدخن أو كمن تخلع الحجاب بعد أن كانا يومًا ما إسلامِيَّيْنِ!

لا أعرف ربما كنت يومًا ما إسلاميًّا مثاليًّا، حالة افتراضية لم تنزل على أرض الواقع، ولم تجرب في خانة الفعل من قبل، كانت ظواهرها كلها عبارة عن ردة فعل لكل شيء حولنا، القليل من هذه الظواهر أجزم بأنها فاسدة مهلكة، تلك التي تتعلق بما وصلنا إليه من مُسْتَوًى في العباداتِ والشعائرِ والمحافظةِ على ديننا، والقليل منها هو الذي أجزم بأنه صحي ومفيدٌ، كتلك التي تتعلق بالتحررِ مِنْ أسرِ التنظيمِ والانفتاحِ على العملِ العامِّ والانخراطِ في منظماتِ المجتمعِ المدنيِّ.. وأغلب الظواهر بين هذين الصِّنْفَيْنِ توقفت عندها لا أكاد أعرفُ ضرها من نفعها.

كل ما أعرفه أنني افتقدتها.. وأن الأجيالَ القادمةَ ربما لن تسمعَ عنها.. كل ما أعرفه أنني لم أعد قادرًا على الإنشاد بعد.. لم تعد كلمات الأناشيد في فمي تذوب بذات الحلاوة التي كانت في سالف تلك الأيام..

غُرَبَاءُ ولغير الله لا نَحْنِي الجباهْ.. غرباء وارتضيناها شعارًا في الحياةْ
إن تَسَلْ عنا فإنا لا نُبَالِي بالطُّغَاةْ.. نحنُ جُنْدُ الله دومًا دربنا درب الأُبَاةْ

مغيب الشمس

الضوء ما زال خافتًا في الأفق، الضباب يغطي جنباتِ الطريق المتلوي بين التلال والرُّبَى المخضرة، نتحرك بحذر خلف السيارة التي تسبقنا بأمتار قليلة ونتابع إشاراتها التي تؤمن لنا الطريق، تجاوزنا منذ قليل آخر قناص قد نواجهه في طريقنا، دخلت السيارة ضيعة صغيرة وتوقفت عند دكان متواضع، نزل الشباب تبرز أسلحتهم الخفيفة من بين طيات ملابسهم، أشاروا إلينا أن نصطفَّ خلفهم، علينا أخذ استراحة من الطريق وارتشاف فنجان قهوة مع بعض البسكويت.

نزلنا من السيارة وَقَبِلْنَا تضييفهم، أطلقت نظري في شعاع الشمس الآخذ في الانتشار بين تلك التلال الممتدة على الطريق، وعلى تلك البيوت القصيرة المتراصة صمودًا في وجه القصف اليومي، وعلى وجوه الشباب المبكر إلى عمله أو رِباطه.. أخذت نفسًا عميقًا وتهادت إلي أنشودةٌ ظننتها لأول مرة من وحي خيالي لكن الصوت بدأ يتضح أكثر وأكثر.. إنها تخرج من مسجل سيارة الشباب الذين يُؤَمِّنُونَ لنا الطريق إلى الحدود التركية..

الله أكبر الله أكبر الله أكبر يا أبطال
الله أكبر الله أكبر الله أكبر يا فرسان
لن نرضَى الذُّلَّ.. لن نرضى الذُّلَّ أو الإذلال
لن نحنيَ رأسًا.. لن نحنيَ رأسًا للطغيان

سندكَّ عروشًا.. سندكُّ عروشًا للطغيان
وسنمضي أسودًا.. وسنمضي أسودًا للمَيْدَانِ

آه إنه لقدر عجيب، أنشودة شريط «البواسل» الأولى. إنها تلك التي كانت تهدر من مسجل سيارة أحد المجاهدين أيضًا عندما كان يمرق في شوارع غزة تحت جنح الليل متجهًا بي نحوَ حدودِ جباليا حيث الرِّباط. إنه الإرث الممتد.. والشعلة التي ما إن تخبو جَذْوَتُهَا في موطنٍ حتى يتقد شررها من تحت الرَّمَادِ في موطنٍ آخر..

هاج في خاطري كل ما لقيته في الأيام السابقة في حَلَبَ وَإِدْلِبَ.. قصف الليل والنهار.. الجرحى والمقاتلون.. النساء والأطفال.. الجبال المحررة والمدن المحاصرة.. المشافي المستهدفة والطرقات المقطوعة..

ذلك الطبيب الشابُّ الذي نَذَرَ نفسه للثورة لا أعرف قصته إلا بعد أن جلست مع والدته (حيث ضيَّفنا ببيتهم) فاكتشفت أنَّ زوجها قد أُخِذَ في أحداثِ حَمَاة وعمرها خمسة وعشرون عامًا ولم يعرفوا عن شيئاً حتى الآنَ.. ثبتت وربت أبناءها طيلة هذه السنوات.. ولكنها أخذت عزاءه يوم أن حرروا «كفرمبل» وأوقعوا خسائر في كتائب النظام تفوق المِائَتَيْ مُجَنَّدٍ..

وتلك السيدة الثلاثينية التي تشرف مع زوجها على مستشفى «سراقب».. ذات العيون الحلبية التي تشبه صورة الشهيدة بنان علي الطنطاوي، لم أعرف سر حزن عينيها الدفين إلا بعد أن أخبرتنا بأن أهلها جميعًا قد فُقِدوا في حَمَاة منذُ أكثرَ من عشرين سنة.. وأنها على استعداد للدفع بأولادها أيضًا من أجل القضية..

كان الشباب السوري يتحدث عن القدس، ويسأل عن توقعاتي لعدد السنوات التي نحتاجها حتى تتحققَ الوَحْدَةُ بينَ مِصْرَ وَسُورِيَّة.. كانوا يُعَوِّلُونَ على مِصْرَ كثيرًا.. ويلوموننا ويلومون الإخوان وغيرهم لومًا وعتابًا رقيقًا.. كانت الأجواءُ (وبرغم كل الدماء والدمار) فِرْدَوْسِيَّةً لأقصى درجة.

خَلَّفْتُ كل همومي عن الحالة الإسلامية هناك على الحدود التركية قبل أن أطأ هذه الأرض المسجّاة بدماء الشهداء.. راودتني أحلامي القديمة مرة أخرى.. المعسكرات والأناشيد والاعتقال والخلافة والأمة والمسجل الذي كنت ألصقه بأذني وأقلب الوجه الآخر لشريط البواسل..

مغيب الشمس يا أمى بجانب تَلِّنا الأخضر
أنا واعدت أصحابى هناك الموعد الأكبر
تواعدنا لكى نمضى لقد عِفْنَا الذى كنَّا
كرهنا الواقع المخزى أنِفنا أننا عِشنا
على الحِرمان نَمْضُغُهُ بلا حولٍ وَيَطْحَنُنا
على الذكرى كحدِّ السيف تغشانا فتذبحنا
تواعدنا سنمضى نحوَ رِحْلَتِنا ولن نَضْجَرْ
لنكسر باب غربتنا فيشرق صبحنا الأنور
يُسابق زحفنا أمل كمثل ربيعنا أزهر
بأن الحق يُرجعه زناد غاضب يزأر
ونكتب حُلْمَ قريتنا بِحِبْرٍ لَوْنُهُ أحمر
ووهج النار مُضرَمة وحدِ الرمح والخنجر
ونكتب ألف ملحمة بسيف قاطع أبتر
فليس اليوم من لغة تسود زماننا الأسعر
سوى الصَّمصام ثرثارًا.. وعصف الموت إن زَمْجَر

انتهـــــــــــى

الفهرس

للتواصل مع الكاتب

a_abookhalil@yahoo.com

www.facebook.com/a.abookhalil

يُسعدنا تلقي آرائكم على صفحة الكتاب على Goodreads

أو صفحة الكتاب على facebook

www.facebook.com/islamyyan

مع أهازيج الأناشيد وغنن الآيات .. على دندنات الأذكار فى الشروق والزوال وبين أشعار الجهاد فى فلسطين وأفغانستـــان والشيشان .. نبتت إسلاميتى ، إسلامية تتجاوز الزمان والمكان والأحزاب والجماعات .. تردد ورد الرابطة مع الإخوان فى الكتائب والمعسكرات، وتعتمر عمامـة التبليغ إذ تشد الرحال إلى خطبـاء السلفيين .. تقتات من كتابـات رموز الحركة والفكر على امتداد رقعة الأمة .. تتغنى بها على المنصات .. تتنفسها خلف الزنازيـن .. ترفعها مع صيحـات إسقاط النظام فى الميادـين .. تعبر بها الأسوار إلى الرباط فى غزة أو ساحات القتال فى حلب .. تنسجها عشقا لعينَى مُختمِرة .. وتعصرها شوقـا لدماء شهـادة .. تسرى إلى أن تعكرها كثرة الكدر .. وتراكم أخطاء السير وخطايا المسيرة .. إلى أن تدهسها المفاجئة .. هل ما زالت على حالها، أم أنها يوما ما كانت .. وكنتُ إسلاميا!

كتاب يتحدث عن الحالة الإسلامية خارج حدود شاشات التلفزيون وأسطر الجرائد ..بعيدا عن المعارك السياسية والأيدلوجيــــة .. يتحدث عن المجتمع والروح والفكرة وتجلياتها الإنسانية التى نمت عشية سقوط الخلافة ، وخبت بشكل ما صبيحة الربيع العربي...



تصميم الغلاف: أسامة علام